أحوال المسلمين وغيرهم

الإسلام حضارة وتاريخه مع اليهود والمسيحية سياسياً وثقافياً وعلمياً

تأليف

كمال أبو ضاحى الزويدى
مجمع البحوث الإسلامية

د/ رفعت محمد صديق
جامعة الأزهر

دار الروضــة
طبع - نشر - توزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٣٥ - ٢٠١٤م

دار الروضة
للطباعة والنشر

٢ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥٠٦٦٨٨٤ - ٠١٢٢٣٦٠٨٩٩٥
darelrwdamms@yahoo.com

رقم الإيداع: ٨٤٦٣ / ٢٠١٤

الترقيم الدولى/ ٣-٠٦٤-٤٥٨-٩٧٧-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه هي أول دراسة علمية منهجية باللغة العربية عن (**الإسلام وأهل الذمة**) وقد رجعنا فيها إلى جميع المصادر العربية،القديمة والحديثة، فضلاً عن المصادر الأفرنجية.

وهذا الكتاب يتحدث عن أحكام أهل الذمة في الإسلام، ويدرس أحوال أهل الذمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الدول الإسلامية على مر العصور التاريخية، وقد أثبتنا بالأدلة ، التاريخية ، وباعترفات المستشرقين، أن أهل الذمة قد نعموا طوال العصر الإسلامي بالحرية و الإخاء والمساواة ، وعاشوا دائمًا في ظل التسامح الإسلامي.

وقد قسمنا الكتاب إلى ١٥ فصلاً .تحدثنا في الفصل الأول عن اليهود و المسيحيين في الجزيرة العربية قبل الإسلام وشهدنا الصراع الدائم الذي نشب بين الطائفتين حول السيادة في الجزيرة العربية، ورأينا عدم إقبال العرب على اعتناق هاتين الديانتين، حتى أصبح العرب في حاجة ماسة لظهور عقيدة جديدة ، هي الإسلام .

والفصل الثاني بعنوان (**الرسول والمسيحيون**) وشهدنا معاملة الرسول ﷺ المتسامحة للمسيحيين وذرسنا ظروف هجرة المسلمين إلى الحبشة المسيحية،ثم درسنا العلاقات بين الدول الإسلامية في عهد الرسول والدولة الرومانية ، ورسالتي النبي ﷺ إلى كل من هرقل إمبراطور الروم والمقوقس زعيم القبط بمصر، وموقف كل منهما من الدعوة إلى الإسلام.

وفي الفصل الثالث تحدثنا عن (الرسول ﷺ واليهود) فقد كان اليهود يبشرون بظهور نبي جديد ويتوعدون به الوثنيين ، حتى ظهر الإسلام ونزل الوحي على الرسول الكريم ﷺ، وتنكر اليهود للرسول والمسلمين ووقفوا منهم موقفاً عدائياً.وحاول الرسول بعد هجرته إلى المدينة جذب اليهود إلى الإسلام،وأكرمهم وعاملهم معاملة متسامحة ولكنهم أصروا على عدائهم وتعصبهم، مما أدى إلى الصراع بين المسلمين واليهود. ودرسنا في الفصل الرابع (أحكام أهل الذمة في الإسلام)،فعرفنا بأهل الذمة، وذكرنا حقوقهم وواجباتهم،وفصلنا الحديث عن الجزية،وأسباب فرضها ومقدارها وطريقة موعد جبايتها وأصول الإعفاء منها .كما ناقشنا مدى اعتبار المجوس من أهل الذمة .ثم تحدثنا عن ملابس وأزياء أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ومدى تطبيق هذه القواعد.ثم ذكرنا القواعد الفقهية لكثير من مسائل أهل الذمة كالزواج والقضاء والارتداد والمواريث والتجارة

والفصل الخامس بعنوان (أهل الذمة في ظل التسامح الإسلامي)،تحدثنا فيه عن المبادئ الإنسانية في الإسلام،وما حث عليه الإسلام من تسامح مع أهل الكتاب وشهدنا صوراً كثيرة من تسامح المسلمين مع أهل الذمة مما أثر في ترحيبهم بالفتوحات الإسلامية ثم ذكرنا اعترافات معظم المستشرقين بتسامح المسلمين .

ويدرس الفصل السادس أحوال أهل الذمة في مجتمع صدر الإسلام فشهدنا إقبال أهل الذمة على اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية والتحضر بالحضارة الإسلامية مما أدى إلى مشاركة أهل الذمة في جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

ويتحدث الفصل السابع عن أهل الذمة في عهد الخلفـــاء الراشـــدين والأمويين، فيبدأ بدراسة أحوال أهل الذمة في عهد عمر وعثمان وعلي، ثم أحوالهم في العصر الأموي ويتحدث عن توليـــة أهـــل الذمـــة المناصـــب الحكومية،ثم يدرس الجزية والخراج في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين، وما تمتع أهل الذمة به من حرية دينية وقيامهم ببناء الكنائس والمعابد .

ويدرس الفصل الثامن أحوال أهل الذمة فـــي العـــصرين العباســـي والعثماني، فيبين تسامح الخلفاء العباسيين مع أهل الذمة .حتـــى أصـــبحوا يتولون كثيرًا من المناصب الكبرى، مما شجعهم على الإقبال على اعتنـــاق الإسلام .كما يتحدث عن المجوس في العـــصر العباســـي وتحـــولهم إلـــى الإسلام . ثم يدرس هذا الفصل أحوال المسيحيين فـــي العـــصر العثمـــاني ومشاركتهم في حياة المجتمع الإسلامي .

أما الفصل التاسع فهو يدرس أحوال أهل الذمة في مصر الإسلامية، منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني، فيتحدث عن موقف الأقباط المصريين من الفتح الإسلامي، وتسامح العرب مع الأقباط ، وينفي أســـطورة حريـــق مكتبة الإسكندرية ، ثم يدرس إقبال أهل الذمة على اعتناق الإســـلام وتعلـــم اللغة العربية ، ثم يدرس الفصل أحوال أهل الذمة في مـــصر علـــى مـــر العصور الإسلامية، في عصر الولاة ، وفي العصور الطولونية والإخشيدية والفاطمية والأيوبية والمملوكية .

ويدرس الفصل العاشر حياة أهل الذمة في بلاد الأنـــدلس وجزيـــرة صقلية، فشهدنا كثيرًا من صور تسامح المسلمين مع أهل الذمة بالأنـــدلس، والحرية الدينية والاجتماعية التي تمتع بها غير المـــسلمين فـــي المجتمـــع

الأندلسي، كما يدرس الفصل أحوال المسيحيين في جزيرة صقلية في العصر الإسلامي .

و الفصل الحادي عشر بعنوان (الحروب الصليبية ليست حروبا دينية)، فقد أثبتت الأبحاث التاريخية الحديثة أن هذه الحروب ليست حروبًا بين المسلمين والمسيحيين، وأن الدين كان ستارًا اختفت خلفه الأغراض السياسية والاجتماعية والاقتصادية للصليبيين .فقد كانت هذه الحروب هي الحلقة الأولى في سلسلة الأطماع الأوربية في الشرق العربي .

وذكر في هذا الفصل صورًا كثيرة لفظائع ومظاهر تعصب الصليبيين، وهى مستمدة من كتابات المؤرخين الأوربيين المسيحيين، ثم أوضحنا مظاهر تسامح المسلمين مع الصليبيين، وكيف اعترف بذلك المفكرون الغربيون، ثم تحدثنا عن إقبال بعض الصليبيين على اعتناق الإسلام والتحضر بالحضارة الإسلامية .

ويدرس الفصل الثاني عشر أحوال (اليهود في الدول الإسلامية) فيبدأ بالمقارنة بين التسامح الإسلامي والعصبية اليهودية، ثم يقارن بين أحوال اليهود في الدول الإسلامية وأحوالهم في الدولتين الفارسية والرومانية . كما يرسم صورًا كثيرة لحياة اليهود في المجتمع الإسلامي، وتحدثنا عن أحوالهم في بلاد الأندلس وفي مصر الإسلامية، ثم قارن بين أحوال يهود مصر وأحوال يهود أوروبا .

أما الفصل الثالث عشر فيتحدث عن اليهود في فلسطين في العصر الإسلامي، فيبين كيف كانت فلسطين دائمًا جزءً من العالم الإسلامي والوطن العربي، ثم يتحدث عن موقف العرب المسلمين من اليهود في فلسطين قبل

القرن الثامن عشر الميلادي، ويدرس أحوال اليهود في فلسطين في العصر العثماني .

ويدرس الفصل الرابع عشر أحوال العرب والمسلمين في إسرائيل، فقد شهدت الفصول الماضية صورًا ناصعة البياض تثبت تسامح المسلمين مع المسيحيين واليهود على السواء، في جميع الدول الإسلامية ويدرس هذا الفصل الأحوال السيئة التي يعيش فيها الآن العرب والمسلمون في إسرائيل، حتى يستطيع القارئ أن يرى الفارق الكبير بين الحالتين والمعاملتين .

والفصل الخامس عشر، والأخير، بعنوان (حضارة العرب أرقى من حضارة اليهود)، فيبين أنه لم يكن لليهود تراث حضاري، ويصور عقلية اليهود، وثقافتهم المحدودة، ويناقش مدى نجاحهم في النواحي الاقتصادية، ثم يقارن بين الثقافة العربية والثقافة العبرية، وينتهي الفصل بدراسة الحضارة والثقافة في إسرائيل .

وبعد، فهذه صفحات مجيدة، تشرف كل مسلم، وكل عربي، وتبرز تسامح الإسلام والمسلمين مع أهل الذمة، وتوضح جوانب حياة أهل الذمة على مر العصور الإسلامية .ونرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا في هذه الدراسة الجديدة، والله سبحانه وتعالى دائمًا ولي التوفيق .

الفصل الأول

اليهود والمسيحيون

في الجزيرة العربية قبل الإسلام

اضطهاد الرومان لليهود وهجرتهم إلى الجزيرة العربية :

استمر اليهود يحرفون البقية الباقية من العقائد الماسونية، ويوجهونها الوجهة التي أرادوها لها، وكانت الوسيلة التي اتبعوها للوصول إلـى هـذه النتيجة هي التأويل التي استغلوها في التزييف والتشويه، وسموها بطريقـة "التفسير الرمزي" حيث دعوا أن الكتاب المقدس لا يعنى معناها الحرفي، بل يكمن وراء هذا المعنى من دلالات باطنية لا يستطيع الجهال معرفتها إلا عن طريقها . وعلى هذا النحو استطاعوا أن يقنعوا عامة اليهود بأن ما ورد في التوراة مثلا من وصايا تأمر بحب الغريب واحتـرام حقوقـه لا تعنـي إلا الغريب من اليهود، وأن يوحوا لهم بعاطفة بُغض فطري لكل ما هو غيـر يهودي .

وكان المنافقون قد وصلوا إلى ما أرادوا من تسميم أفكار غيرهم من اليهود وتشويه عقولهم حينما ظهر المسيح الذي كشف عن نفاقهم في كثيـر من آيات الإنجيل ؛ ولكن المسيح ومن بعده أتباعه قد دفعوا ثمن كشفهم عن هذا الخداع غاليًا، إذ راح اليهود الذين كانوا منبثـين فـي أنحـاء الأرض يعملون على تشويه سمعة المسيح وأتباعه برميهم بـأفظع الـتهم وتأليـب الحكومات والهيئات عليهم[1].

---

[1] القصاص : الإسرائيليون وروح العدوان ص٨٩ .

تكرر الصراع بين اليهود والمسيحيين، فقام اليهـــود بثـــورة علـــى الرومان سنة ٧٠ بعد الميلاد ، وذبحوا فيها كل من وقع تحت أيـــديهم مـــن غير اليهود ، ثم انتهت بهزيمتهم وتشتيت شملهم وهدم معبـــدهم علـــى يـــد "تيتوس" ولكنهم عادوا بعدها إلى جمع شملهم ونصبوا لهم حاخاما جديـــدا ، وأعادوا تكوين مجلس حكمهم "الساهندرين" ومجمعهم العلمي،ووثقوا الروابط بينهم وبين جالياتهم المنبثة في أنحاء الأرض ، ونظموا جمع الضرائب من أفرادها،وقاموا بمحاولة أخرى سنة ١١٥ في عهد الحاخام "اكيبا" يـــسمونه " ابا السنة التلمودية" وفيها ذبحوا مائتي ألف من المسيحيين في ليبيا وحـــدها ومائتي وأربعين ألفا في قبرص ما بين مسيحيين ووثنيين وفي ســـنة ١٣٤ قاموا بمحاولة أخرى كانت من أشنع المحاولات التي قاموا بها إذ اغتـــالوا فيها مئات الآلاف من غير اليهود بقسوة معدومة النظيـــر ولكنهـــا بـــاءت بالإخفاق،وبعد ذلك تتابعت ثوراتهم و تتابع معها إخفاقهم وتبدد شملهم.

أخذ يهود فلسطين يذوبون شيئًا فشيئًا فاندمج بعضهم في الحضارتين اليونانية و الرومانية وقد تخلو على الأقل عن تحجرهم الفكري ،بيد أن فريقًا استبقى إيمانه بالديانة اليهودية كرمز للكيان اليهودي فلم يستسغ التفريط في إحداهما، فكان لا يفتأ يثور على الاحتلال الأجنبي،وكـــان قيـــام الثـــورات المسلحة ضد الحضارة الهلينية أكبر دليل على جمود الفكر اليهودي.وما لبث ثورات اليهود أن استنفدت صبر الأمبراطورية الرومانية فدمرت أورشـــليم سنة ٧٠ بعد الميلاد وذبحت عددا كبيرا،وبيعت النساء و الأطفال في أسواق الرقيق وتمكن البعض من الفرار،فخرجوا إلى الأقطـــار المجاورة،وكانـــت الجزيرة العربية مقصد عدد كبير منهم.

اليهود في الجزيرة العربية قبل الإسلام

تناثرت الجماعات اليهودية في أنحاء المعمورة حاملة معها تفكيرها البدائي للذي يذهب إلى بني إسرائيل خير الأمم لأنهم شـعب (يهـود) وأن أرض إسرائيل أحسن البلاد لأنها موطن يهود.

توارث اليهود هذا التفكير فأوجد فيهم الغرور والتخريب و الانزواء وكان الزمن كفيلا بحل هذه العقدة النفسية وإعادتهم إلى حظيرة الانـسجام البشرى لولا أن تولى مقاليد المسيحية أناس لم يتشبعوا بجوهرهـا الخالـد (المحبة) وما تعنيه من تسامح،وانتشر التفكير الذي لم يكن من المسيحية في شيء وهو الانتقام من القوم الذين أنكروا المسيح واضـطهدوه،ونما عـداء متبادل بين اليهود و النصارى وتغلغل في القلـوب وعـم معظـم أرجـاء العالم،اليهود يؤمنون أنهم مضطهدون مكروهـون محـسودون،والإخلاص عندهم هو التمسك بدينهم كما أوجدوه،وربهم كما تصوروه، وهيكلهم الـذي يجب أن يعيدوه وغير اليهود يرونهم قوما مغرورين منبوزين مجردين من الإنسانية .

كان نصيب الجزيرة العربية من اليهود النازحين عن فلسطين بعـد اضطهاد الرومان لهم كبيرًا فقد كان من هاجر من بني إسرائيل إلى جزيرة العرب في العهود الأولى التي قاربت عهد موسى لا يزالون واقعين تحـت تأثير بيئتها، لذلك ما كادوا يشعرون بنتائج المـسئوليات و التبعـات حتـى فضلوا عيشة بلاد عرفوها واختبروا لقاءها وعرفوا رحابة صدرها فتسرب عدد منهم إليها .

وأصبحت الجزيرة العربية بعد ذلك مهبطًا مرغوبًا لليهود يسارعون إلى الهجرة إليها كما شعروا بخطر يهددهم فينزلون في رحاب إخوانهم الذين سبقوهم إليها آمنين شر أعدائهم وقد فصلت بينهم مفاوز الصحراء[٢]

اليهود في اليمن :

انتشرت اليهودية في اليمن في عهد الدولة الحميرية الثانية وكان ذلك نتيجة لغزو فلسطين وتحيم بيت المقدس على يد (قيطس)في سـنة ٧٠م.وإذا حكمنا من مواقع الأسماء التي وصلت إلينا نستطيع أن نقـرر أن معظـم اليهود في بلاد العرب كانو من الأراميين و العرب المتهودين لا من سلالة إبراهيم[٣].

كان أول من اعتنق اليهودية من ملوك الدولة الحميرية باليمن هـو أسعد بن كرب (٣٨٥-٤٢٠م) وتروى المصادر العربية القديمة أنه غـزا أذربيجان وهزم مللك الفرس كما هزم سمرقند وقتله ودخلت جيوشـة بـلاد الصين، وعادت محملة بالغنائم .كما حاصرت جيوشـه رومـا،وأدت لـه القسطنطينية الجزية .كذلك تذهب الروايات العربية إلى أن سعد هـذا غـزا يثرب وكسا الكعبة وأنه كان أول من تهود من العرب [٤].

وتروى الروايات العربية قصة اعتناق أسعد بن كـرب اليهوديـة، فتروى أن أسعد حين قفل من الشرق إلى اليمن مر بالمدينة، وكان قد خلف

---

[٢] برائق والمحبوب: محمد واليهود ص ١٩.

[٣] حتى: تاريخ العرب ص ٧٤.

[٤] ابن هشام : كتاب التبيجان في ملوك حمير ص ٢٤٩ وما بعدها.

هناك ابنا له، فقتل غيلة ، فلما علم بذلك قرر الانتقام بــضربها واستئــصال أهلها، وأخذ في محاربتهم، وبينما هو قتالهم إذ جاءه حبــران مــن قريظـــة فتكلما معه، وأعجب بهما ورأى أن لهما علما فترك المدينة وانصرف عنها وعاد إلى اليمن مصطحبا معه الحبرين، ودعا قومه إلى اعتناق اليهودية كما اعتنقها هو [٥].

المسيحية في الجزيرة العربية قبل الإسلام :

نجت بلاد الحجاز ونجد من الغزو والاستعمار الأجنبي، فلم تكــن لهذه البلاد خيرات أو مميزات تجذب الفاتح وتشجعه على تحمــل وعــورة السطح وقسوة المناخ، بل أن هذه البلاد لا تجود حتى لسكانها ما يمكنهم من حياة رغيدة .

تحدث المؤرخ (واشنجتون أرفنج) عن مــدى تعــرض الجزيــرة العربية للغزو فقال: ربما تدلنا دراسة أخلاق وطبائع العرب على الأســباب التي جعلت أحوال العرب ثابتة على مر الزمن .فقد كان وضعهم الجغرافي وصحاريهم القاحلة الواسعة تحميهم من الغزو، كما أدى نزاعهم وصراعهم المستمر ورغبتهم في الاستقلال الديني والسياسي إلى أن صاروا بعيدين عن الغزو والاستعمار .

كانت كل من الدولتين الفارسية والرومانية تتمنى لو أنها نجحت في بسط سلطانها على إقليم الحجاز،فقد كانت الدولتان قبــل ظهــور الإســلام تتنافسان على مناطق النفوذ، ولكن وعورة الطرق الموصلة إلــى الحجــاز،

---

[٥] التيجان ص ٩٥، الطبري ج ٢ ص ٩٤ وما بعدها .

وطول خطوط الإمدادات والتموين، وجدب الصحراء، وعدم وجود جـيش عربي مركزي توجه إليه الدولة الفارسية أو الدولـــة الرومانيـــة جيوشـــها وجهودها، أدى إلى بقاء الحجاز في أيدي أصحابه من العرب بعيـدا عــن السيطرة الأجنبية .

حتى إذا لمس الفرس والروم عجزهم عن بسط نفوهم السياسي على بلاد الحجاز، اتجهوا إلى بلاد اليمن،حيث كانت تحكمها الدولـــة الحميريـــة العربية .وأخذ الرومان ينشرون المسيحية كتمهيد لبسط الـــسيادة الرومانيـــة وأدرك الفرس حقيقية أهداف الرومان فعلوا على الوقوف في وجه الـــسياسة الرومانية وأخذوا يعرقلون التجارة الرومانية في الخليج الفارسي

بدأت المسيحية تجد طريقها إلى اليمن عن طريق الشام وقد أخـــذت البعثات السورية الفارة من الاضطهاد تدخل اليمن في أوقات غير معروفـــة لنا، ولكن أول سفارة مسيحية إلى جنوب بلاد العرب وصلت إلينا أخبارهـــا هي تلك التي أرسلها الإمبراطور (كونستاسيوس) في ســـنة ٣٥٦ بزعامـــة (تيوفيلوس اندوين الأريوس). وكان الباعث الحقيقي لإرسال هـــذه البعثـــة، ظروف السياسة الدولية في تلك الفترة نتيجة للتنـــافس بـــين إمبراطـــورتي الفرس و الروم في سبيل الحصول على مناطق نفوز في جنوب بلاد العرب، وكانت لهذه البلاد أهمية اقتصادية كبرى ، فقد كانت تنتج كمية كبيرة مـــن البخور والتوابل والأعشاب الطبية كما كانت تقع على طرق التجارة الرئيسية في العالم القديم . ونجح تيوفيلوس في إنشاء كنيسة فـــي عـــدن وكنيـــستين أخرتين في ممكلة الحميريين. وقد اعتنقت نجران الدين الجديد حوالي سنة ٥٠٠ ميلادية وأصبحت أهم معقل للمسيحية فـــي جنـــوب شـــبه الجزيـــرة العربية .أدى التنافس في بلاد العرب الجنوبية بين معتنقي الدينين الجديدين

إلى العداء و الصراع . وتسابق اليهود والنصارى في اليمن لتهويد أو تنصير أهل اليمن الذين ظلوا على دين أبائهم و أجدادهم من عبادة الأصنام،وحاول كل فريق أن يتغلب على منافسه ويسحقه من غير رحمة ولا شفقة فوقع بين أتباع الديانتين صراع مؤلم سالت فيه الدماء .وكانت (اللاسامية) في جملة العوامل التي زادت في شدتها،ولا شك إذا سارت الحكومة البيزنطية بعد تنصرها على السياسة القديمة في مقاومة اليهود باضطهادهم و الضغط عليهم .وهذا مما حملهم على توجيه أنظارهم إلى خصوم الروم وأعدائهم من الفرس(٦).

وكان الفرس على الغالب باستثناء فترات من الزمن متساهلين مع اليهود،كما كان من مصلحتهم تأييد كل جبهة معادية للروم،و اليهود كانت جبهة من هذه الجبهات.

صراع اليهود و النصارى حول السيادة في اليمن

أحرز اليهود انتصارات كبيرة على النصرانية في اليمن،حين اعتنق ملك حميري اليهودية وبدأ اضطهاده العنيف للمسيحيين،وتعصب لليهود فأفرط في التعصب، فقد حنق لما كان يلاقيه إخوانه اليهود من اضطهاد في الدولة الرومانية البيزنطية، وطفق يسوم نصارى مملكته سوء العذاب(٧).

هاجم الملك الحميرى معقل الجالية المسيحية،وخير أهلها بين الارتداد عن المسيحية أو القتل، فاختاروا الاستشهاد من أجل عقيدتهم،فقتلهم

---

٦ جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٣ ص ١٨١.

٧ ولغنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٤٥ .

حرقا في الخنادق.وصور القرآن الكريم هذه الحادثـــة فـــي هـــذه الآيـــات الكريمة[٨]. :(قتل أصحاب الأخدود.النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود.وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود).ويعلل المؤرخ العربي المسيحي المعاصر الدكتور فيليب متى[٩]. هذه الواقعة بأن الملك الحميرى كان يمثـــل الـــروح القومية، فكان يرى في مواطنة المسيحيين ما يذكره بحكم الحبشة المـــسيحية البغيض .

غضب (جستنيان) إمبراطور الدولة البيزنطية لما لحـــق بمـــسيحي نجران، باعتباره حاميًا للمسيحيين في كل مكان، وطلب من نجاشي الحبشة المسيحي غزو هذه البلاد وإنقاذ المسيحيين .وكان جستنيان يرمي من وراء ذلك إلى غرضين : أحدهما سياسي، وهو اتخاذ بلاد اليمن طريقًا لتجارتـــه إلى الشرق إذا وقعت في يد حلفائه الأحباش ، ليقضي على تجارة منافـــسيه الفرس، والأخر ديني، وهو جعل السيادة للدين المسيحي هناك [١٠].

كانت الحبشة حينئذ في ذروة مجدها، تجري بأمرها علـــى البحـــار تجارة واسعة، ويمخر لها العباب أسطول يجعلها تتسلط بنفوذها علـــى مـــا حاذاها من البلاد. وكانت حليفة الإمبراطوريـــة البيزنطيـــة ورافعـــة علـــم المسيحية على البحر الأحمر، كما كانت بيزنطة رافعة علمها علـــى البحـــر المتوسط[١١].

---

٨ سورة البروج ٨٥ آيات ٤-٥ .

٩ متى: تاريخ العرب ص ٧٥.

١٠ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ح١ ص٢٩.

١١ هيكل: ابن هشام ح ١ ص ٤١.

تظاهر الأحباش بأنهم قدموا للانتقام ممـــا حـــل بالمـسيحيين فـــي نجران، ولكنهم كانوا يتخذون هذه الحجة ستارا يخفـــون وراءه أغراضـــهم الاستعمارية .أرسل النجاشى إلى اليمن عبر البحر الأحمر، جيشا يتألف من سبعين ألف رجل بقيادة (أرياط) . وانتصر الأحبـــاش علـــى الحميـــريين سنة ٥٢٣م .

أصبح أرياط حاكما على بلاد اليمن، وظل يتولى أمور هذه الـــبلاد حتى أخذ عليه قواده انحيازه إلى فريق منهم في توزيع العطـــاء والغنـــائم، فاجتمعوا بقيادة أبرهة وقضوا عليه، وبذلك خلا الجو لأبرهة، فولي للحكـــم في اليمن بدلاً من أرياط [١٢].

أقام الأحباش في اليمن كفاتحين، وانقلبوا كمستعمرين، وظلوا مـــن سنة ٥٢٥ إلى ٥٧٥م يهيمنون على بـــلاد الـــيمن واســـتثمروا مواردهـــا الاقتصادية لمصلحتهم .

محاولات الأحباش لنشر المسيحية في الجزيرة العربية :

أتخذ أبرهة من صنعاء عاصمة للمستعمرة الحبشية الجديدة في بلاد اليمن، وبني فيها واحدة من أعظم كاتدرائيات العالم فخامة وروعة وهى التي يسميها كتاب العرب (القليس)، وهى مشتقة من الكلمة اليونانيـــة (اكليزيـــا Ckkleisia) ومعناها كنيسة .وقد أراد الأحباش أن تكون هـــذه الكنيـــسة الكبرى نواة لدولة مسيحية كبرى في بلاد اليمن، ثم تمد هذه الدولة نفوذها فيما بعد على أرجاء شبه الجزيرة العربية، فيصلوا بذلك بين دولة الأحباش

١٢ سيرة ابن هشام ح ١ ص ٤١.

والدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) التي تمتد إلـــى مـــشارف الجزيـــرة العربية حيث تقوم إمارة الغساسنة .

تميزت كنيسة صنعاء بالضخامة والفخامة، ويرى الـــدكتور (متـــى)[١٣] أن الأحباش المسيحيين كانوا ينوون تنصير البلاد، وخلق منافس لمكة الوثنيـــة التي كانت مركز الحج في الشمال لأن الحج كان مورد دخل عظيم لأولئـــك الذين يسكنون في تلك المدينة، التي كان يسافر إليها الحجاج، أو على مقربة من الطرق التي كانت تؤدي إليها . وقد نجح الأحباش بتأسيس ذلك التعبـــد الديني في الجنوب في اجتذاب الجمـــاهير وأصـــبح التنـــافس الاقتـــصادي عظيمًا .ويذكر الأستاذ الدكتور طه حسين[١٤]. أن أبرهة رغم أنه بذل جهدًا كبيرًا في ترغيب الناس في أن يتخذوا من كنيسة صنعاء كعبة لهـــم، إلا أن العرب كانوا أهل وثنية ولجاج في الوثنية، فكانوا يكبرون من أمـــر أبرهـــة ويعظمون سلطانه ويبتغون عنده المعروف، ولكنهم كانوا يكرهـــون دينـــه وتأبى نفوسهم الاستجابة له، وكان الذين يختلفون إلى كنيسته قليلـــين مهمـــا كثروا .

سميت هذه الكنيسة (القليس) لارتفاع بنائها وعلوها، وقـــد اســـتذل أبرهة أهل اليمن وسخرهم في بنيان الكنيسة، وكان ينقـــل إليهـــا الرخـــام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليـــه السلام، ومن شدته على العمال كان العامل إذا طلعت عليه الشمس قبـــل أن يبدأ عمله قطعت يده .

---

١٣ تاريخ العرق ص ٧٦.

١٤ على هامش السيرة ص ١٤١.

كتب أبرهة إلى النجاشي أنه يريد أن يصرف حجاج العـــرب إلـــى كنيسته، ويحول تجارة قريش إلى صنعاء، وجاء في رســـالته " بنيـــت لـــك بصنعاء بيتا لم تبن العرب ولا العجم مثله، ولن أنتهي حتى أصرف حـــاج العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيتهم "

أثار مشروع أبرهة حفيظة العرب، فخرج من بني مالك بن كنانـــة حتى قدم اليمن، ودخل الكنيسة وعبث بأثاثها وانتهـــك حرمتهـــا .وغـــضب أبرهة لذلك أشد الغضب، وأقسم ليهدمن الكعبة وليحملن العـــرب علـــى أن يحجوا إلى كنيسته بالسيف، بعد أن أعياه حملهم على ذلك بـــالرفق واللـــين .وتحدث ابن هشام[١٥].عن أثر قسم أبرهة في العرب فقال : " وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وقطعوا به ، ورأوا جهاده حقا عليهم، حين ســـمعوا بأنـــه يريد هدم الكعبة، بيت الله الحرام ".

ولم يكد النهار يتقدم حتى رفعت الأنباء إلى أبرهة بأن أهل تهامة قد قتلوا ذلك الرجل الذي أرسله إليهم ملكا، فزادت ثورته، وأمر بالاستعداد في الحال للقتال والرحيل إلى مكة، وبعث برسالة إلى النجاشي لطلبـــه، ونجـــح أبرهة في تكوين جيش كثيف العدد وكامل العتاد .

ثم جاءت خاتمة المأساة، ويروى المؤرخون القدامى أن الله قد أرسل من البحر طيورًا أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجر في منقاره وحجران في رجليه، أمثال الحمـــص والعـــدس، لا تصيب أحدًا منهم إلا هلك [١٦]. ووصف المـــؤرخ المـــسعودي[١٧].مـــصير

---

[١٥] سيرة ابن هشام ح ا ص ٥٤.

[١٦] سيرة ابن هشام ح ١ ص ١٤٦

الجيش الحبشي فقال "فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل أشباه اليعاسيب ترميهم بحجارة من سجيل، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر مع كل طيـــر ثلاثة أحجار، فأهلكهم الله عز وجل ".

وخلد القران الكريم هذا الحدث التاريخي الكبير، في سورة الفيـــل : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾). وهلك معظم جند أبرهة، ونجت القلة القليلة .أما أبرهة فقـد مسه حجر فصرع، وظهر على جسمه بلاء عظيم، وأخذت أجــزاء جــسمه تساقط حتى مات .

يعتبر المؤرخ (براون) عام الفيل فاتحة عصر جديد في تاريخ حياة العرب القومية، ولاشك أن هذه الحادثة التاريخية كانت فاتحة خيــر علـــى العرب عامة وقريش خاصة حتى أنهم أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم . فقد مهدت السبيل لقبول الدعوة الإسلامية، إذ لو أتيح للجيش الحبشي الانتــصار لتغير وجه التاريخ وانتشرت المسيحية في بلاد العرب، وانصرف العـــرب عن مكة إلى صنعاء[١٨].

حدث بعد الهزيمة الماحقة التي نزلت بأبرهة وجيشه أن قامت حركة وطنية في دولة حمير لتخليص اليمن من حكم الأحباش، وكان علـــى رأس هذه الحركة سيف بن ذى يزن الحميري الذي سعى لإنقاذ قومه، فسار إلـــى

---

[١٧] مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٨.

[١٨] حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج١ ص ٥١.

ملك الحيرة العربي ليتوسط له لدى كسرى أنو شروان ليمده بقوة يستعين بها في إخراج الأحباش من بلاد اليمن .

وكان العرب المسيحيون في تلك الـبلاد يتطلعـون إلـى الحمايـة والرعاية من الروم، كما كان اليهود والوثنيـون يتطلعـون إلـى الحمايـة والرعاية. كما كان اليهود والوثنيون من العرب يلوذون بالفرس ويطلبـون العون منهم .

فلما استنجد سيف بن ذي يزن بكسرى فارس، أمـده بحملـة سـنة ٥٧٥ م بقيادة وهزر. وقد تغلب هذا القائد على الأحباش في الـيمن، وأنقـذ هذه البلاد من حكمهم البغيض[١٩].

قامت على إثر ذلك في بلاد اليمن حكومة مشتركة، تقلد سيف بـن ذي يزن فيها ولاية اسمية، وانتحل (وهزر) وظيفة نائب ملك في تلك البلاد، حتى اعتنق (باذان)، آخر ولاة الفرس على اليمن الإسلام ودخل في طاعـة الرسول، وبذلك أسدل الستار على صراع اليهود والمسيحيين في الـيمن، أو بعبارة أخرى صراع الفرس والروم .

اليهود في الحجاز :

كان اليهود قبل ظهور الإسلام قد احتلوا أخـصب بقـاع الحجـاز واستغلوها في الزراعة والصناعة والتجارة .وقد أدى استعمارهم تلك البقاع واعتزازهم بأنفسهم ودينهم إلى كراهة العرب لهم ورغبتهم في إخراجهم من

١٩ جمال سرور: قيام الدولة العربية ص ٨.

بلاد الحجاز .ونلحظ ذلك بصفة خاصة فـــي يثـــرب حيـــث كـــان الأوس والخزرج يبذلون جهدهم للحلول محل اليهود في أراضيهم الخصبة [٢٠].

عاش اليهود في يثرب وخيبر واليمن وجاوز اليهود أهل يثرب، أما مكة والطائف فلم يكن بها غير الوثنية لبعدها عن موطن اليهود [٢١].

كانت يثرب (المدينة المنورة بعد هجرة الرســول) أكثــر مــدن الحجاز التي قصدها اليهود، وكان سكانها الأوائل (العمالقة)، وما لبثــت أن تابعت موجات هجرات اليهود فتغلبوا على العمالقة واستقروا في يثرب .

وصف أبو الفرج الأصفهاني تغلب اليهود على يثرب فقال: " كـــان يسكن المدينة في أول الأمر قبل بني إسرائيل قوم من الأمم الماضية يقال لها العماليق، وكانوا قد تفرقوا في البلاد وكانوا أهل غزو وبغض شديد " .

ولم تظهر هجرة اليهود إلى يثرب بشكل واضح إلا فـــي القـــرنين الأول والثاني الميلادي على أثر الحروب التي شنها الرومان ضد اليهود في فلسطين والتي انتهت بطردهم منها وتشتيتهم في أرجاء متفرقة، فهاجر منهم بنو النضير وبنو قريظة إلى شمال الجزيرة العربية، واســتقر بهــم المقـــام في يثرب .

اضطر اليهود إلى الاندماج في الحياة العربيـــة، ليحـــافظوا علـــى مصالحهم المادية واقتبسوا بعض نظم العرب الاجتماعية، فانقسم اليهود مثلما

---

٢٠ جمال سرور: قيام الدولة العربية ص ١١٤

٢١ ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٦٧

انقسم العرب، إلى قبائل واتخذ معظم اليهود أسماء عربية، وحاولوا إجـــادة اللغة العربية، حتى أنه ظهر بعض الشعراء اليهود مثل السموءل بن عادياء.

كانت لغة اليهود في بلاد العرب هي اللغة العربية، ولكنها لم تكـــن عربية خالصة بل كانت مشوبة بالرطانة العبرية، لأنهم لم يتركوا اســـتعمال اللغة العبرية تركا تاما .بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراساتهم، فكان من الضروري أن يدخل في لغتهم العربية بعض الكلمات العبرية .

كما ساهم اليهود في الحياة الاقتصادية في يثرب وســـيطروا علـــى معظم الموارد الاقتصادية فاحتكروا التجارة وجابت قوافلهم بـــلاد العـــرب طولا وعرضا وامتلكوا ضياعا واسعة واهتموا بزراعتها وزيـــادة الإنتـــاج الزراعي، كما برعوا في الفنون الميكانيكية وصناعة الأسلحة والمصنوعات الذهبية وآلات الزراعة .

لم تهدأ الأحوال للقبائل اليهودية (وأشهرها بنو قينقاع وبنو قريظـــة وبنو النضير) في يثرب، فقد وفد عليها قبائل عربية يمنية، قدمت من اليمن بعد خراب سد مأرب وتخريب السيول للأراضي الزراعيـــة، إذ هـــاجرت القبائل اليمنية إلى مناطق مختلفة، واســـتقرت اثنتـــان منهـــا همـــا الأوس والخزرج في يثرب .

خضع اليهود للأمر الواقع، فهـــادنوا القبيلتـــين العـــربيتين (الأوس والخزرج)، فسمحوا لهم بالاستقرار والنشاط الاقتـــصادي، فـــي التجـــارة والزراعة ولكن الأوس والخزرج أرادوا ضمانا يضمن لهم حـــسن معاملـــة اليهود باستمرار فطلبوا أن يعقدوا معهم تحالفا يبذلون فيه الأمان ويضمنون

لهم حسن الجوار، فتحالفوا وتعاقدوا معهم واستطاعوا أن يتفرغوا لنـــشاطهم الاقتصادي وحازوا ثروات كثيرة.

وسرعان ما انقلب اليهود على العرب، فقد حقدوا عليهم مـــشاركتهم لهم في استغلال الموارد الاقتصادية في يثرب، وحسدوهم على ما نالوا من ثراء، فأعلنوا نقضهم لما بينهم وبين العرب من تحالف وتعاقد .

بدأ اليهود اضطهادهم للعرب (الأوس والخزرج)، وكانـــت قبيلتـــا قريظة وبني النضير أكثر القبائل اليهودية عداء للعرب مما اضطر العـــرب للاستنجاد بأخوتهم في العروبة وهم العرب الغساسنة المستقرون في إمارة لهم بالشام على أطراف الدولة البيزنطية، ولبى الغساسنة النـــداء وهرعـــوا يقفون إلى جانب إخوانهم عرب يثرب في صراعهم مع اليهود .

كان النصر مضمونا لعرب يثرب على اليهود، طالما يقفـــون – أي الأوس والخزرج – معا صفا واحدا أمام عدوهم المشترك .ولكن للأسف ما لبث الشقاق أن دب بين صفوف العرب فانقسموا على أنفسهم وبدأ عداء قبيلة الأوس لقبيلة الخزرج .

انتصرت الخزرج على الأوس، وقصدت الأوس قبيلة قريش تطلب منها أن تعاونها، ولكن قريشا كانت قبيلة تجارية فحرصـــت علـــى تركيـــز جهودها في الأغراض التجارية فامتنعت عن مساعدة الأوس، فاضطروا إلى محالفة أعداء الأمس، اليهود، وتحالفوا مع بني قريظة وبني النضير.

ودارت حرب عنيفة تـــسمى (فجـــار يثـــرب) أو (فجـــار الأوس والخزرج)، انتهت بانتصار الأوس، ثم اتفق الفريقان على الصلح، وإقامـــة

حكومة مشتركة تنظم العلاقات بين أهل يثرب واختاروا عبد الله بـــن أبـــى سلول ملكا عليهم . ولكن هذا المشروع لم يكتب له النجـــاح، فقـــد هـــاجر الرسول الكريم في ذلك الوقت [٢٢].

لماذا لم يقبل العرب على اعتناق اليهودية ؟

لم يقبل العرب على اعتناق الديانة اليهودية، ويرجع ذلك إلى عـــدة أسباب: **أولاً** : لم يهتم اليهود قديما وحديثا، بالتبشير بدينهم، فهم يزعمـــون أنهم شعب الله المختار، وأن سائر الشعوب غير جديرة بالدخول فيما دخلـــوا فيه، ولذا وضعوا العراقيل أمام كل من يريد أن يتهود .ويقـــول (إســـرائيل ولفنسون) [٢٣]: الذي يقرأ تاريخ اليهود يعلم أن الأمة لم ترغب في إرغـــام الأمم على اعتناق دينها، وكان نشر الدعوة الدينيـــة مـــن بعـــض الوجـــوه محظورا على اليهود .وهناك عامل آخر حال دون انـــشار اليهوديـــة فـــي الحجاز، فاليهودية،كما نفهمها هي خلاصة القانون التلمودى بعقائده وتقاليده وطقوسه . وهكذا صمم اليهود، الذين انفردوا عدة قرون بحمل راية التوحيد، على أن يبعدوا عن اليهودية كل من أراد أن يعتنقها، إلا إذا تـــوافرت فيـــه جميع شروط التوراة والتلمود وخضع لكل نظمها .

ثانيًا : كانت التوراة والتلمود تكلف الإنسان تكاليف صعبة ، وتربطة بتقاليد كثيرة لم يألفها فلم يستطع العربي الذي لم يكن يعرف للنظم المعقـــدة قيمة أن يدركها بسهولة ، وكان من العسير على نفسه أن تقبل التقيد بأغلال

---

٢٢ القلقشندي: صبح الاعشى حـــ ٥ ص ٢٩٥ وما بعدها، والسمهودي، وفاء الوفا حـــ ١ ص ١٥٢ وما بعدها.

٢٣ تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٦٧.

لا تحصى من القوانين الثابتة الثقيلة وهى المطبوعة على حـــب الاســـتقلال والحرية .

ثالثًا : ضايق العرب احتكار اليهود لموارد الـــبلاد الاقتـــصادية وخاصة أن العرب كانوا ينظرون إلى هؤلاء اليهود باعتبارهم غرباء دخلاء [٢٤]نزحوا إلى بلادهم العربية فأقاموا فيها بالقوة ، وزاحموهم في أرزاقهـــم ، وسيطروا على اقتصاديات الجزيرة العربية يذكر (هاريمـــان) أن اليهـــود تمكنوا بما كان لهم من مال ، وخبرة في جمعه ، وفـــي أعمـــال الـــصرافة والاحتكار وإكثار المال من تولى الوظائف المالية في حكومة حمير ، ومـــن تنظيم ميزانيتها ، وبذلك سيطروا على المواضع الحساسة في جسم الدولـــة وعلى الملوك حتى ادخلوا في نفوسهم بغض في ديانتهم القديمة وحب ديانة اليهود .

رابعًا : كان العرب ، وخاصة في اليمن ، ينظرون إلى اليهـــود علـــى أنهم عملاء للنفوذ الفارسي الأجنبي .فقد اعتمد الفرس على اليهود كعمـــلاء لهم .ولذا اعتبر بعض العرب انتشار اليهودية يعنى اتساع النفوذ الفارسي في بلاد العرب .

خامسًا : كان اليهود لا يتصفون بصفات طيبة تجعل العرب يعجبـــون بأشخاصهم فيقبلون على اعتناق دينهم ، فقد تكرر نقضهم للعهود ، وتكررت خيانتهم وغدرهم إلى جانب التجائهم إلى أساليب ملتوية في معاملاتهم المادية والاقتصادية .

---

(٢٤) القلقشندى : صبح الاعشى ج٥ص٢٩٥ وما بعدها ، والسنهودى : وفاء الوفا ج ١ ص ١٥٢ وما بعدها .

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص٦٧ .

الفصل الثاني

الرسول والمسيحيون

حاجة العالم إلى الإسلام

الدين بمعناه اللغوي هو الطاعة والانقياد ، والتدين هو الرضوخ والدينوية لعقيدة ، والدين بمعناه العام هو ناموس أبدي مطلق ، كامنة بذوره في كل نفس حية واعية ، وأساسه وحدة الخالق وخلـود الـنفس والحـب ، وتنظيم علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، والإيمان بالبعث والحساب والثواب والعقاب .

والإنسان لا يمكنه أن يعيش بدون عقيدة سامية ، فالعقيـدة مـن مقومات إنسانيته وارتفاعه عن مستوى الغرائز الحيوانية ، والحضارة فـي كل عصر منبعها الأول الدين ، ولا يمكن أن تقوم نهضة اجتماعية إلا على أسس دينية .

والإسلام دين يتجه إلى العقل ، ويوافق الميول الطبيعيـة فـي الإنسان وهو أول دعوة عالمية ، توفر المقومات لتعاون إنساني عـالمي ، وتحقق الانسجام البشري ، والإسلام هو صمام الأمن والسلام لحياة الإنسان الروحية والمادية .ويجد الإنسان في الإسلام من المرونة ومجابهـة الواقـع ومن الوعي الحقيقي الكامل للطبيعة البشرية ومطالب الحياة ، ما لا يجده في غيره من الأديان أو النظريات الوضعية .

وأثبت النظام الإسلامي الاجتماعي أنه النظام العـــالمي الوحيـــد الثابت ..وفي التعاليم الإسلامية نجد أســس عـــلاج المـــشاكل الاجتماعيـــة والاقتصادية والسياسية التي تعانى البشرية، والتعاليم الإسلامية ، وحضارتها ونظمها ، تقوم على أساسين رئيسيين ، أساس روحي أو عـــاطفي وأســـاس عقلي أو منطقي .وقد جعل الإسلام العقل حكما في كـــل شـــيء ،والـــنظم الإسلامية تستند إلى العقل .ويكفل الإسلام للجميع الـــسعادة فـــي حيـــاتهم ، ويضمن لهم التكافؤ الاجتماعي ، والعدالة الاجتماعية .

تحدث المؤرخ (فاليرى) عما امتاز به الإسلام عن غيره مـــن الأديان مما أدى إلى سرعة انتشاره فقال : فرضت الأديان على من يدينون بها معتقدات ثقيلة يصعب القيام بأعبائها لبعدها عن مدى الأفهام ، على حين كان الإسلام عجيبًا في سهولته صريحًا في فروضه، وهذا كان ســـببًا فـــي سرعة انتشاره بين الشعوب التي اضطربت نتيجة ما أصـــابها مـــن الـــشك المضني في عقائدها الدينية ، وهذا أيضًا كان ولا يزال السبب في انتـــشاره المتواصل بين الأمم في آسيا وافريقية لنفوذه إلى أرواحهم ،دون الحاجة إلى التطويل في شرحه ، والتلطف في الدعاية له .

وقال (ليودوروش) : ان الإسلام دين إنساني طبيعـــي اقتـــصادي أدبي ، ولم أذكر شيئا من قوانيننا الطبيعية الوضعية إلا وجدته مشروعًا فيـــه وبحثت عن تأثير الدين في نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرمًا ، بل وجدت هذه النفوس على مثال مـــا يحلـــم بـــه الفلاسفة من حب الخير والرحمة والمعروف .وقال (جان مليا) : الإســـلام دين سماوي ، وهو دين حب وعاطفة وشرف ، وأكثر الأديان تساهلا [٢٥]

---

(٢٥) انظر كتاب الإسلام والحضارة العربية لكرد علي .

كانت أحوال الدولتين الفارسية والرومانية البيزنطية وقـــت ظهـــور الإسلام سيئة للغاية .

أما الفرس ، فقد ظهرت دولة الفرس الساسانية سنة ٢٢٦ م على يد أزدسبر بن بابك الذي اتخذ المدائن عاصمة له ، وقد عظمت دولته فـشملت العراق وما يجاوره من بلاد العرب وجميع بلاد العجم ، وما زالوا يتوارثون ملكه حتى تولى كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩ م) وفي أيامه ولد الرسول ﷺ.وقد اشتبك مع الرومان في حروب طويلة انتصر في نهايتها ، لانـشغال خصمه جستيان في فتوحاته في ايطاليا وشمال افريقيـة . وقـد اسـتمرت الحرب متقطعة بين الدولتين أيام خليفته هرمز ، ثم كسرى أبرويـز الـذي اكتسح سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى حتى وصل إلـى البـسفور سـنة ٦٠٨ م ، فعجز ملك الروم عن صده فخلعه الأهالي واستدعوا هرقل حـاكم افريقية وولوه مكانه . ورغم حنكته استمرت انتصارات أبرويـز الـساحقة ،فاحتل دمشق سنة ٦١٣ م والقدس سنة ٦١٤ م واحتل مصر سـنة ٦١٦ م وصل ثانية قرب القسطنطينية سنة ٦٧١ م ، فاضطر هرقـل إلـى طلـب الصلح فرفض أبرويز ، وأثار هرقل حماسة رجال الدين فـآزروه بـأموال الكنيسة ، فجهز جيشا كثيفا ضد الفرس واسترد ما فقده .وأدت هزائم الفرس إلى ثورة شيرويه على أبيه أبرويز ثم اغتاله وعقـد الـصلح مـع هرقـل .وسادت الفوضى الدولة الفارسية ، نتيجة ضعفها وحروبها المـستمرة مـع الروم لاختلافهم في الدين وحاجة الفرس إلى ميناء علـى سـاحل للبحـر المتوسط ، ومن جراء النزاع على الملك ، وبسبب ظهـور البـدع الدينيـة الهدامة مثل المانوية والمزدكية الأباحية التي أدت إلـى تـدهور الأحـوال الاجتماعية والخلقية

كانت عاصمة الروم القسطنطينية ، وشـمـلت الدولـــة الرومانيـــة الشرقية (البيزنطية) إلى جانب أملاكها في أوروبـــا : آســـيا الـــصغرى ، وسوريا ، وفلسطين ومصر ، و شمال افريقية . ومـــن أشـــهر أبـــاطرتهم جستنيان الذي اشتبك مع كسرى أنوشروان ، والذي أمر نجاشـــي الحبـــشة بغزو اليمن وإسقاط الدولة الحميرية العربية . وقد أصاب الدولة الرومانيـــة بعد موته ضعف شديد ناتج عن كثرة حروبه في العرب لاســـتعادة أمـــلاك الإمبراطورية الرومانية ، وكثرة ما أنفقه على المباني ، فكانت خزانة البلاد خاوية ، وجيشها منهكًا .

وتولى على عرش الروم بعده أباطرة ضعاف اشتد في أيـــامهم النزاع على المُلك ، وتمردت الجند المرتزقة مما أدى إلى انتصار الفـــرس وظلت الحال كذلك حتى أسند العرش إلى هرقل (٦١٠- ٦٤١ م) فاســـترد هيبة الدولة وقهر الفرس ولكن كانت هناك عوامل تـــؤدى إلـــى اســـتمرار ضعف الدولة .فقد كانت الحروب المستمرة قد أدت إلى فراغ الخزانة وتأخر الزراعة والصناعة ، كما كانت هناك خلافات دينية حاميـــة نـــشبت بـــين المذاهب الدينية المختلفة ، وهى مذهب الأريين ومذهب الشاطرة ، ومذهب اليعاقبة ، ومذهب الملكانيين .وكان مذهب الدولة هو المـــذهب المكـــاني ، واضطهدت الدولة اليعاقبة والنساطرة ، وحاولت إجبـــارهم علـــى اعتنـــاق المذهب الملكاني مما أدى إلى نفور السكان في مصر والشام مـــن الـــروم واستعدادهم لمساعدة أي فاتح يخلصهم من هذا الاضطهاد الديني

لم يقبل العرب في أرجاء شبه الجزيرة العربيـــة علـــى اعتنـــاق المسيحية رغم أنها دين سماوي أفضل من الوثنية ويرجـــع هـــذا إلـــى أن المسيحية ارتبطت بالنفوذ السياسي الاستعماري ، الروماني والحبشي .فقـــد

قضى الأحباش المسيحيون على الدولة العربية الحميرية في اليمن ، وبنـــوا كنيستهم في صنعاء ، وأرادوا هدم الكعبة وتحويل الحجاج العرب إلى كنيسة صنعاء ، كما كان البدوي العربي يميل إلى الحرية الدينية ، إلى جانب تمتعه بالحرية السياسية والاجتماعية والمكانية ، ولذا لم يرض عن القيود والأوامر والنواهي التي تفرضها المسيحية .

الرسول والراهب بحيرى :

استعد أبو طالب ، عــم الرســول ، للرحيــل بقافلتــه إلــى بــلاد الشام .وكان محمد قد أصبح في الثانية عشرة من عمره المبارك ، وتقدم إلى عمه يطلب منه أن يصحبه في رحلته .وكان قلب أبى طالب زاخرًا بالحــب والعطف ، وفكر مليًّا ، فرأى أن محمدًا قد بلغ من العمر ما يسمح له بــأن يمارس نواحي النشاط في الحياة العربية ، وأن يتمرن على خدمات وواجبات القافلة ، ولذا وافق على اصطحابه معه إلى الشام وقال : والله لأخرجن بــه معي ، و لا يفارقني ، ولا أفارقه أبدا (٢٦) .

وصلت القافلة إلى (بصرى) على حــدود ســوريا قــرب الأردن ويسكنها الآن النساطرة المسيحيون ، وكانت سوقا عظيما ترتادها القوافــل وفي هذه المدينة توقفت القافلة ونصبت خيامها قرب دير من أديرة الرهبان النساطرة .

---

(٢٦) سيرة ابن هشام حـــ ١ ص ١٩١.

وقف العالم الراهب (بحيرى) على مقدمة دير يعلو جبل حوران يسرح الطرف في انتباه إلى سهول سوريا الشاسعة المنبسطة نحو جزيرة العرب .وفجأة استرعى نظره قطعة من الغيم بيضاء مستطيلة ، تعترض على خلاف العادة ، زرقة السماء الصافية ، وكان هذا الغيم – الذي يشبه طائرًا أبيض هائلاً – يحلق فوق قافلة صغيرة تتجه نحو الشمال ، يغمرها بظله الأزرق ، ويسير معها أنى سارت .

تحدث ابن هشام (٢٧) عن بَحيرى فقال : " وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهبًا ، إليه بصر علمهم عن كتاب فيها ، يتوارثونه كابرًا عن كابر ".

كانت قوافل العرب كثيرًا ما تمر بهذا المكان ، فلا يهتم بحيرى بمرورها ، و لا يعرض لهم أو يتكلم معهم ، حتى كان ذلك العام .فلما استقرت قافلة أبى طالب على مقربة من صومعته أسلفت نظره شيء جديد .فروى ابن هشام (٢٨) : " أنه رأى رسول الله ﷺ، وهو في صومعته ، في الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبًا منه .فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها ".

غادر بحيرى صومعته ، ثم بعث في طلب أهل القافلة وقال لهم : أني قد صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا

---

(٢٧) المصدر السابق .

(٢٨) سيرة ابن هشام جـ ص ١٩٤

كلكم ، صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحركم .وأبدى رجل من قريش تعجبه ، فقال لبحيرى : والله يا بحيرى إن لك لشأنًا اليوم ، فما كنت تصنع هذا بنـــا وقد كنا نمر بك كثيرًا ، فما شأنك اليوم ؟! فأجاب بحيرى : صـــدقت ، قـــد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأضـــع لكـــم طعامًـــا فتأكلوا منه كلكم .

وقبل القرشيون ضيافة بحيرى ، واجتمعوا حول مائـــدة بحيـــرى ، وتخلف الرسول ﷺ عن المشاركة في الطعام ، ومكث فـــي رحـــال القـــوم تحت الشجرة ، فقد كان حدث السن فلم يـــشأ أن يـــشارك شـــيوخ قـــريش مجلسهم .وجالت عيني بحيرى بين الجالسين حول مائدته ، فافتقـــد محمـــدًا الذي استضاف القافلة كلها من أجله ، فقال : يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى .فقالوا له : يا بحيرى ، ما تخلف عنك أحد ينبغي لـــه أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سنًا ، فتخلف في رحالهم .وأبدى بحيرى غضبه فقال : لا تفعلوا فليحضر هذا الطعام معكم .فقال رجل من قـــريش : واللات والعزى ، إن كان للوم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلـــب عن طعام من بيننا .ثم قام هذا الرجل إلـــى محمـــد ، فاحتـــضنه وأجلـــسه مع القوم . وتفرس بحيرى بنظره في محمد ، وأخذ ينظر إلى أشـــياء مـــن جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته .حتى إذا انتهى القرشيون من تنـــاول الطعام وتفرقوا ، قام بحيرى إلى الرسول ، وتوجه إليه بالحديث فقال : يـــا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه .

ويفسر ابن هشام (٢٨) حلف بحيـــرى بـــاللات والعـــزى فيقـــول : " وإنما قال له بحيرى ذلك ، لأنه سمع قومه يحلفون بهما ". وكان محمد منذ

---

(٢٨) سيرة ابن هشام جـــ ١ ص ١٩٢ .

حداثته نابذا للأوثان ، مؤمنا بالتوحيد والدين الحنيف ، فقــال مــن فــوره لبحيرى : لا تسألني باللات والعزى ، فــو الله مــا أبغــضت شــيئا قــط بغضهما .فقال له بحيرى : فبالله ألا ما أخبرتني عما أســألك عنـــه .فقــال محمد : سلني عما بدا لك .

فجعل بحيرى يسأل محمد عن أشياء من حاله فــي نومـــه وهيئتـــه وأموره ، وأشبع حب استطلاعه ، فأجابه على أسئلته بالصدق والحق فكــان بحيرى يبدي سروره لهذه الإجابات إذ كانت توافق " ما عند بحيــرى مــن صفته " (١) .ونظر بحيرى إلى ظهر الرسول فرأى خاتم النبوة بين كتفيه .

حتى إذا انتهى بحيرى من أسئلته وفحصه .أقبل على أبـــى طالـــب وقال له : ما هو ابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا .فقال أبـــو طالب : فإنه ابن أخي .فسأله بحيرى : فما فعل أبوه ؟ وأجاب أبو طالـــب : مات وأمه حُبلى به ، فقال بحيرى : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنّـــه شـــرًا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فاشرع به إلى بلاده .

تقبل أبو طالب نصائح بحيرى ، فخرج بابن أخيه سريعًا حتى قـــدم مكة بعد أن فرغ من تجارته بالشام ــ وتروي بعض المصادر أن أبا طالب بعث بمحمد على عجل مع بعض غلمانه إلى مكة ، كما تروي أن الراهب زوده بكعك وزيت هدية ومؤونة للطريق .

ويروى ابن هشام (١) " أن زريرا وتماما ودريسا ، وهم نفـــر مـــن أهل الكتاب ، قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ مثل ما رآه بحيرى في ذلـــك السفر ، الذي كان فيه مع عمه أبو طالب ، فأرادوه فردهم عنه بحيرى .

المسيحيون والتبشير بنبوة محمد :

لم يخل كتاب من الكتب السماوية قبل مبعث الرسول مـــن التبـــشير بظهور النبي محمد .وكانت الأخبار مستفيضة فـــي الأمـــم ، ولعلهـــا مـــن الأسباب التي دعت اليهود والنصارى إلى استيطان أرض الجزيرة العربية ، التي وصفتها الأسفار المنزلة بأنها أرض النبي المنتظر [(١)].[٢٩]

قال المؤرخ الهندي المسلم مولاى محمد على[٣٠]: ذكر القرآن الكريم أن مجيء النبي أخبر به جميع من سبقه من الأنبياء ، وأنهم قطعـــوا العهـــد والميثاق على شعوبهم بقبول دعوته لمجرد ظهوره .وقـــد أبلغـــوا أقـــوامهم أن آية صدق النبي المرتقب شهادته وإقـــراره برســـالته مـــن ســـبقه مـــن الأنبياء .واقتضت إرادة الله أن تكون الرسالات الأولى على يد نبي أرســـل لهداية شعب معين ، وقتما كانت شعوب الأرض في حيـــاة معزولـــة ، لـــم تعرف بعد وسائل الاتصال الحديثة ، ولكي يستخلص مـــن الأديـــان دينـــًا واحدًا ، ويجمع العالم في إخاء عالمى واحد ، بعث الله محمـــدًا رســـولاً ، وجُعل للبشر كافة .

كان في مكة راهب مسيحي يدعى (عيص) يترقب مولد الرســـول عليه الصلاة والسلام ، وكان يقول : " تدين له العرب ، ويملـــك العجـــم ، أرضها و بلادها ، هذا زمانه ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجتـــه ، ومـــن

(١) المصدر السابق

(٢) سيرة ابن هشام حـــ ١ص ١٩٤

(١) محمد رسول الله ص ٣٠.

(٢) سيرة ابن هشام حـــ ١ص ١٦٧.

خالفه أخطأ حاجته ، وأن نجمه طلع البارحة " حتى إذا ولـد محمـد قـال الراهب لعبد المطلب جد الرسول: احفظ لسانك فإنه لن يحسد حـسده ولـن يبغى على أحد كما يبغى عليه ، وإن طال عمره لا يبلغ السبعين ، يموت في إحدى وستين أو ثلاث وستين .

وروى ابن هشام (٢) أن حليمة السعدية ردت الرسـول إلـى أنـه وأخبرتها أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به فطامتـه ، فنظروا إليه ، وسألوها عنه ، وقبلوه ، ثم قالوا لها : لتأخـذن هـذا الغـلام فلنذهبن به إلى ملكنا ولبلدنا ، فان هذا الغلام كائن له شأن ، نحـن نعـرف أمره .وأسرعت حليمة تهرب بالطفل الصغير العظيم .

جاء في كتاب (الإنجيل والصليب) تأليف الأب عبـد الأحـد داود الأشوري العراقي ، مطران الموصل في عهد السلطان عبد الحميـد ، فـي صفحة ٣٣ في الباب الثاني : " أن المبشر لوقا يبشر بالإسلام وبأحمد ، فقد جاء في لوقا أنه ظهر في الليلة التي ولد فيها المسيح عليه السلام جمهور من الجنود السماوية للرعاة الذين كانوا في البرية يترنمون بهذا النـشيد (لوقـا ٢:١٤) " الحمد لله فله الأعالي ، وعلى الأرض السلام ، وللناس أحمد " .

وفي الترجمة العربية لهذه الآية " المجد لله فـي الأعـالي وعلـى الأرض السلام وبالناس المسرة ". والمؤلف يعلم هذا وقد نقله ، ولكن يقـول أن الأصل الصحيح هو ما قاله : إسلام وأحمد .

واستطرد المؤلف المطران عبد الأحد داود في الفصل الثالث ومـا بعده (ص٤٥) إلى ترجمة كلمة (ايادوكيا) التي معناها أحمد ، وقد سـاعده علمه باللغات السريانية والعبيرية واليونانية القديمة .

ومعلوم أن اسم أحمد هو صفة تفضيل من الحمد ، وهو الذي يقع منه الحمد أكثر مما يقع من غيره ، واسم محمد صفة مبالغة من التحميد ، والثلاثة من أسماء النبي ﷺ .

وجاء في صفحة ٨٦ من الكتاب نفسه : " يقول يوحنا ١٦:٢٩ أن المسيح إلى آخر ليلة كان يكلم تلاميذه بالأمثال ووعد أن البارقليط المرسل من طرف الله والذي سيأتي بعده سيفسر ويبين كلامه وإنجيله الحقيقي " . وكلمة (بارقليط) أو (فارقليط) يونانية قديمة ومعناها المعين ، والمدافع ، والنصير ، والمواسى .

وبديهي أن المسيح لم ينطق بهذه الألفاظ بنصها لأنها عربية ، وهو كان يتكلم بالعبرية ، أضف إلى هذا أن الألفاظ التي نطق بها المسيح ضاعت وكل اعتمادنا على ترجمة يونانية للإنجيل . وقد ذكرت كلمة (بارقليط) و(ايفادوكيا) التي يراد بها اسم في حين أن الترجمة الحرفية لكلمة براقليط هي كما أسلفنا النصير أو المواسى والثانية تدل صراحة على معنى الحمد عن طريقي الحقيقة والمجاز ، ولأن النصير والمواسى يستحق الحمد والثناء .

غير أن الذي يدعم التفسير ويدل على أن المقصود بالبارقليط هو محمد رسول الله استقراء الصفات التي وردت في إنجيل يوحنا ١٤: ٦و١٦ فإنها تنطبق على النبي العربي ، ويؤيد هذا الرأي أن المسيح كان يخاطب حوارييه الرموز والأمثال ، فقد جاء في وصف البارقليط أنه سيبقى إلى الأبد ، رهذا هو المُشاهد في رسالة محمد وشريعته ، فإنه خاتم الأنبياء ، ولم يأت ولن يأتي بعده رسول بتشريع عالمي .وموصوف بأنه يُعَلم أمته كل شيء ، وقد جاء محمد بدين كامل وتشريع تام .

وأوضح من هذا كلمات يوحنا ١٦: ١٢- ١٤ على لـسان المـسيح نفسه : " لا تزال عندي أشياء كثيرة أقولهـا ، ولكـنكم لا تحتكمونهـا أو تطيقونها .عندما يجيء روح الحق فإنه سوف يرشدكم إلى الحـق ويـدلكم عليه ، لأنه لن يتكلم عن نفسه ، ولكنه سوف يمجدنى" [٣١]

عدد المؤرخ الهندى المسلم مولاى محمد على [٣٢] كثيرا من آيـات الإنجيل ، وكلها تبشر بظهور محمد ﷺ ، فقد جـاء فـي إنجيـل يوحنـا ، الإصحاح الرابع عشر ١٣-١٥ : (إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم معزيا آخر، ليمكث معكم إلى الأبد: روح الحق) وجاء في إنجيل يوحنا الإصحاح ١٦:٧ (لكي أقول لكم الحق، انه خير لكـم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم) .وجاء في إنجيل يوحنا أيضًا الإصحاح ١٤-٢٦(أما المعزى الروح القـدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء). ثم يقول المؤرخ مولاى محمد على: وجميع هذه النبوءات تشير بوضوح لا ريب فيه إلى مجيء نبي بعد المسيح.

الرسول وورقة بن نوفل:

ورقة بن نوفل شيخ وقور، ارتبط تاريخه بظهور الإسلام، ونـزول الوحي على الرسول ﷺ. وينتمي إلى بيت من أشرف بيوت قريش هو بيـت عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد، أول من آمنت من النساء، وشريكة الرسول في الجهاد

---

٣١ انظر كتاب ثورة الإسلام للطفي جمعة ص ٢١٧

٣٢ محمد رسول الله ص ٣٥.

قبل ظهور الإسلام، ظهر من بين العرب جماعة مـــستنيرة نبـــذت الوثنية، فاعتنق بعضهم المسيحية أو اليهودية، واعتنق البعض الأخر الحنيفية فعملوا على إحياء دين إبراهيم الحنيف وهو دين التوحيد. وكان ورقة ممـــن اعتنقوا المسيحية، وقرأ التوراة والإنجيل، وكتب العبرانية، وأصـــبح أعلـــم رجال مكة بالنصوص المقدسة وشاركته أخته(قتيلة بنت نوفل) ميوله الأدبية والدينية واطلعت على الكتب القديمة .

آثر الرسول ﷺ العزلة، وألف النسك والعبادة، فكان يذهب قبل نزول الوحي إلى غار حراء، يتحنث فيه ويتأمل عجائب الكون، ويفكر في البعـــث والحساب والجنة والنار. وفي غار حراء نزل الوحي على الرسول، وعـــاد إلى خديجة وهو يرتجف، وأخبرها بما كان من نزول جبريل عليه الـــسلام، وأسرعت خديجة تزمله وتدثره، وتطمئنه وتبث السكينة في نفسه، ثـــم رأت أن تخرج لتقص ما سمعته من الرسول على ابن عمها ورقة، وكانت تعلـــم مدى علمه واطلاعه، وما يتحدث به عن قرب ظهور نبي مرتجى.

وقصدت خديجة بيت ورقة، وكان حينئذ شيخاً طاعناً فـــي الـــسن، ضعيف الحركة، أعشى البصر، حتى إذا انتهت خديجة من حـــديثها، شـــعر ورقة بالفرح والسرور وصاح: قدوس، قدوس، والذي نفس ورقة بيده لـــئن كنت صدقتني يا خديجة فلقد جاء الناموس الذي كان يأتي موسى، وأنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت.

وبينما الرسول يطوف بالكعبة، سارع ورقة إليه، رغـــم شـــيخوخته وضعفه، وطلب منه أن يقص عليه قصته بنفسه وقص الرسول عليـــه مـــا حدث، وتبين ورقة صحة كلامه، فأعاد على سمعه التنبؤ التي أخبـــر بهـــا خديجة من قبل وأضاف : يا ليتني أكون حيًّا حين يخرجـــك قومـــك.فقـــال

الرسول: أو مخرجي هم ؟ فأجاب ورقة: نعم، لم يأت رجل بما أتيت به إلا عودي، ولئن أدركني يومك لأنصرنك نصرًا مؤزرًا.ولكن المنايا لم تمهـل ورقة حتى تحقق أمنيته .

هجرة المسلمين إلى الحبشة المسيحية:

اشتد عذاب قريش للمسلمين، فكانوا يضربونهم ويضعون الـصخور العظيمة على صدورهم في شدة الحر، فلم يزدهم ذلك إلا إيمانا .هذا ورسول الله ﷺ يدعوا إلى الله ليلاً ونهارًا، سرًّا وجهرًا، لا يصده عن ذلك صاد. ولما رأى الرسول ما نزل بأصحابه من تعذيب واضطهاد ، سمح لهم بالهجرة إلى الحبشة، فقد كان ملكها يشتهر بالتسامح والعدل.

لم يفكر الرسول في هجرة المسلمين إلى أحد القبائل العربية؛ لأنهـا كانت ترفض دعوته في مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكا بدينها الوثني. وكذلك لم يفكر في الهجرة إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والمـسيحيين من العرب، لأن كلا من الجاليتين اليهودية والمسيحية كانت تنازع الأخرى وتنافسها في النفوذ الأدبي ببلاد العرب، فهما والحالة هذه لا تقبلان منافـسا **ثالثا:** أما اليمين ــ وكانت مستعمرة للفرس الذين لم يدينوا بدين سماوي ــ فلم يطمئن الرسول إلى الالتجاء إليها. أما الحيرة وبلاد الشام فكانت بعيـدة غاية البعد عن مكة، كما أن كلا من الشام واليمن والحيرة كانت أسواقا هامة لتجارة قريش. وكانت لقريش بكل منها صلات وثيقـة ومـصالح متبادلـة وزيارات في أوقات منتظمة، فإذا علمت قريش أن المسلمين في بلد منهـا، طلبت إلى أهل ذلك البلد إن يردوهم إليهم ويخرجوهم منها، كما حاولت ذلك مع النجاشي لولا تسامحه وعدله [١].

هاجر المسلمون إلى الحبشة مرتين ، وكان لهذه الهجرة أثر كبير في نشر الإسلام وترغيب الناس فيه ، فقد ذاع بين العرب أن فريقًا من القرشيين هاجروا إلى الحبشة فرارًا بدين تلقوه عن نبي بمكة، وبذلك سمع عن الـــدين الإسلامي ما لم يسمع به من قبل، كما أنه كان لخروج هذه الجماعة أثر في تجفيف حدة عداء قومهم، إذ رأوا فريقًا يشترك معهم في العروبة قد أصـــبح مضطهدًا، أوذي في دينه حتى اضطر أن يهاجر إلى مكان بعيد (٢).

[٣٣] غضبت قريش لهجرة المسلمين إلى الحبشة، فبعثت وفدًا محمـــلاً بالهدايا الفاخرة يطلب من نجاشي الحبشة رد المهاجرين إلى مكـــة، ولكـــن النجاشي كان بعيد النظر، فطلب من المهاجرين أن يحدثوه عن حقيقة دينهم، فشرحوا له تعاليم الإسلام، فبكى النجاشي وقال: إن هذا والذي بـــه عيـــسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا لأسلمهم إليكما ورجع وفد قريش يجر أذيال الخيبة (٣٤) .وظل المهاجرون في الحبشة حتى هاجر الرسول إلى المدينة فعاد معظمهم .

موقف الرسول من المسيحيين:

كان في الدولة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ أديان أربعة:

(١) الإسلام، وهو دين الدولة الحنيف، وعقيدة الغالبية العظمى مـــن أهالي الدولة .

---

[٣٣] - حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـــ ١ص ٨٧- ٨٨

٢- جمال سرور : قيام الدولة العربية ص٦٦

[٣٤] سيرة ابن هشام جـــ١ ص ٢٦٠ .

(٢) اليهودية وكانت دين بعض أهالي اليمن في الجنــوب وبعــض أهالي الشام في الشمال .

(٣) النصرانية، واعتنقها بعض أهالي اليمن وخاصـــة فـــي مدينـــة نجران . وبعض أهالي الشام

(٤) المجوسية، وقد اعتنقها بعض أهالي البحرين .

ورغم اختلاف هؤلاء عن معظم رعايا الدولة في الــدين، فقــد كانت الدولة تعاملهم معاملة عادلة، فتمتعوا بالحقوق الوطنية التي تمتع بهــا المسلمون، فكان لهم فيها ما للمسلمين من حقوق، وعليهم مــا علــيهم مــن واجبات. وجعل الإسلام أهل هذه الأديان أخوة للمسلمين في الوطن العربي، فقد كان نظام الدولة يقضى بأن يعاملوا فيها مثلهم ليشعروا بأن لهــم دولـــة واحدة تجمعهم، ووطنا واحدًا يؤلف بينهم، وقانونا واحدًا يخضع له الجميع.

ويذكر المؤرخ (توماس أرنولد) أن محمدًا قد عقد حلفًا مــع بعــض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمــن وطمأنينة. وقد وحد حلف كهذا بين أتباع النبي ومواطنيهم، مما جعل هؤلاء المواطنين يظهرون ولاءهم للحكومة الجديدة.

أثبت معاملة الرسول– ﷺ – لأهل الذمة أن الإسلام دين التــسامح، الذي يحرص على حقوق الإنسان.وكانت رسالة محمد ﷺ إلى رهبان ديــر سانت كاترين في جبل سيناء دليلا ناصعا على تسامح الحكومة الإســلامية الوليدة في معاملة رعاياها من غير المسلمين، مهما كان دينهم. وقد حرص

الرسول ﷺ على أن يملى رسالته على مسمع من صحابته ليعلم الجميع مـــا يخص الإسلام عليه من تسامح. وهذه هي بعــض فقــرات هــذه الرســالة الكريمة:

(هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله بشير ونذير وأمين الخلق أجمعين لوديعة الله في خلقه، كي لا تكون حجة على الله بعد الرسل وكان الله عزيزًا حكيمًا. كتبه لمن هم على دينه عهدًا لأولئك القوم الــذين هـم علــى ديــن النصرانية من مشارق الأرض إلى مغاربها، بعيــدهم وقــريبهم، عــربيهم وعجميهم ، معلومهم ومجهولهم .. فمتى كان راهب أو سائح مجتمعًــا فــي جبل أو واد أو مغارة أو معمورة أو سهل أو كنيسة أو معبد، فــنحن مــن ورائهم وأني لاذب عنهم بنفسي والموالي وأنصاري وشعبي، هم وأمــوالهم وأثوابهم، إذ أنهم من رعيتي وأهل ذمتي، وادفع عنهم كل ما يكدرهم مــن تلك الأثقال التي نعطيها أهل العهد، فلا يعطون إلا ما طابت لهم نفوسهم من الأشياء خراجًا، ولا يكدرون ولا يكون عليهم جبر ولا إكراه، ولا يتغير من كان عليهم قضاة منهم عن وظيفتهم، ولا رهبانهم عن رهبانيتهم، ولا أرباب الخلوات عن الإقامة في صوامعهم. ولا يسلب أحد سياحهم، ولا يهدم بيتًا من بيوت كنائسهم ولا يتلفه، ولا يدخل شيء منها إلى بيوت المسلمين. وكل ما أخذ شيئًا من ذلك فيكون قد أفسد عهد الله وخالف رسوله حقيقة)

(ولا يطرح خراج على قضاتهم ورهبانهم، ولا من كان مشغولاً في العبادة منهم، ولا شيء آخر غرامة كان أو خراجًا أو مظلمة أخرى. فإني أنا أحفظ ذمتهم في البحر والبر، والمشرق والمغرب والشمال والجنوب، أينمـــا كانوا، وهم في ذمتي وميثاق أمان من جميع الأشياء التي يكرهونهـــا، فـــلا يؤخذ خراج أو إعشار ممن يتعبد في خلوة في الجبال ولا ممن يزرع فـــي

تلك الأراضي المباركة، ولا أحد يشاركهم في طريقهم ولا يـــشترك معهـــم بدعواه إن ذلك لغيرهم. ويعطى لهم من اوقات المواسم من كل أردب قـــدحًا لأجل مأكولهم فلا يقال لهم أن هذا كثير. ولا يطالبون بخراج، ولا يؤخذ من ذوى الخراجات أيضًا، ولا من الأغنياء وأرباب التجارة زيادة عـــن الحـــد المعين. ولا يكلفهم أحد إلى سفر، ولا يلزمهم إلى حرب أو نقل سلاح)

إنما المسلمون يحاربون عنهم، ويجادلونهم على أحسن وجه إتباعًـــا للآية (وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ) فيعيشون مرحومين، ويمنع عنهم ما يكدرهم أو يضيق عليهم من كل راع أينما كانوا أو فـــي أي محل نزلوا. وإذا تزوجت نصرانية فلا يكون ذلك إلا برضا تلك المرأة، ولا تمنع من الذهاب إلى كنيستها لأجل الصلاة. وتحترم كنائسهم فلا يمنعون من تعميرها، ولا من حرمة أديرتهم، ولا يلتزمون بنقل سلاح أو حمل حجارة، وإنما المسلمون يذبون عنهم، و لا أحد من الأمة يخالف هذا العهد إلى يـــوم القيامة وانقضاء الدنيا"

كانت هذه الرسالة دستورًا حكما، وضعه الرسول ﷺ، واتبعه ســـائر الخلفاء والأمراء والولاة في الدولة الإسلامية، فعاش أهل الذمـــة ترفـــرف عليهم رايات التسامح والعدل والحرية والإخاء.

الرسول والدولة الرومانية المسيحية :

كان المسلمون يعطفون على أهل الكتاب من يهود ونصارى، وكانوا يتمنوا انتصارهم على الوثنين والمجوس. فلمـــا كانـــت جحافـــل الفـــرس والمجوس تكتسح ممتلكات الدولة الرومانية المسيحية، في آسيا ومصر، ولما

وقفت تدق أبواب بيزنطة، عاصمة الإمبراطورية، ولمـا لاحـت الـساعة الرهيبة، ساعة انهيار الدولة الرومانية، نزل الوحي مؤكدا انتصار الرومان في النهايــة: (الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝) [٣٥].

وقد تحققت النبوءة، ففي عام بدر انتصر المسلمون، واستعاد الروم ما فقدوه من ممالك.

لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل أن للعالم كله نصيبًا منه.ولما لم يكن هناك غير إله واحد، كذلك لا يكون هناك غير ديــن واحد يدعى إليه الناس كافة. ولكي تكون هذه الدعوة عامة، وتحدث أثرهــا المنشود في جميع الناس وفي جميع الشعوب، نراها تأخذ صورة عملية فــي الكتب التي بعث محمد بها في السنة السادسة مــن الهجــرة (٦٢٨) م إلــى عظماء وملوك هذا العصر. في هذه السنة بعث الرسول كتبًا إلــى هرقــل إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) وإلى كسرى فارس، وإلــى حاكم اليمن، وإلى حاكم مصر المقوقس، وإلى نجاشي الحبــشة، وغيــرهم. وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحًا وأشد صراحة على ما تردد ذكره فــي القرآن من مطالبة الناس جميعًا بقبول الإسلام؟"

لم يضع انتشار المسيحية بين الرومان حدًا للخلاف الديني، فظهــر الاختلاف المذهبي نتيجة العداء بين الأرثوذكسية والكاثوليكية مــن جهــة،

[٣٥] سورة الروم آية ١-٤ .

والخلاف حول طبيعة المسيح وصفته من جهة أخرى، وخاصة أن الأباطرة تدخلوا في هذا الخلاف المذهبي، فعقد الإمبراطور البيزنطي مجمعًا في خلقيدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م وقرر أن المسيح طبيعتين، وأن مذهب الكنيسة القائل بأن المسيح طبيعة واحدة كفر، ولذا قرر حرمان بطريرك الإسكندرية. وعارض المصريون المسيحيون هذا القرار وأطلقوا على أنفسهم اسم الأرثوذكسيين ومعناها في اللغة اليونانية أتباع الدين الصحيح، بينما أتباع الكنيسة الرومانية البيزنطية يسمون باسم الملكانيين لأنهم يتبعون مذهب الملك أي الإمبراطور، وكان يطلق أحيانا على الأرثوذكسيين المصريين اسم اليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادعي أسقف الرها، كما كان اليعاقبة يسمون أيضًا (المونوفيزيت **Monophgsite** أى أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، بينما كان الملكانيون ينادون بأن للمسيح طبيعتين

كانت هذه الاضطهادات التي قاسى المصريون الكثير منهم، سببًا مباشرًا للتمهيد للدولة الفارسية للاستيلاء على مصر سنة ٦١٦ م، واستمر الاحتلال الفارسي لمصر إلى سنة ٦٢٩م حينما غزا الإمبراطور البيزنطي هرقل الدولة الفارسية فاضطر الفرس للجلاء من مصر.

حاول هرقل بعد تغلبه على الفرس أن يعيد إلى الدولة البيزنطية وحدتها، فأصدر (صورة توفيق **Monothema**) ومنع الناس من الحديث في طبيعة المسيح، ورأى أن يعترف الجميع بأن المسيح إرادة واحدة، وحاول هرقل أن ينشر هذا المذهب الجديد في مصر، فولى على حكمها (المقوقس) وأسند له السلطة السياسية والرئاسة الدينية معًا سنة ٦٣١م .وخير المقوقس المصريين بين أمرين: إما اعتناق مذهب هرقل الجديد، أو الاضطهاد. وأبى المصريون الأمر الأول، فبدأ المقوقس سياسة الاضطهاد، وهرب البطريرك القبطي بنيامين.

كان هرقل إمبراطور الدولة الرومانية في مقدمة من وجه الرســـول ﷺ دعوته إليهم لاعتناق الإسلام، باعتباره إمبراطورًا لدولة مـــن الـــدولتين العظيمتين في العالم القديم.فبعث الرسول إليه برسالة دعاه فيها إلى الإسلام ووعده بثواب الله وحذره من تضاعف الإثم عليه في حالة الرفض.

جاء في كتاب الرسول إلى هرقل:" بسم الله الرحمن الـــرحيم- مـــن محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فان تتول فإنما عليك إثم اليريـــسين[٣٦] (يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾) بعث الرسول هذه الرسالة مع دحيـــة بـــن خليفة الكلبي إلى عامل هرقل في بصرى الحارث بن أبى شـــمر الغـــساني، وعندما وصل إليه أرسله بخطابه إلى هرقل ليسلمه له بيده، وكان قد خـــرج من حمص في طريقه إلى القدس فوافاه دحية في مدينة إيليا (بيت المقـــدس) وسلم إليه الخطاب وترجم له فلم يجد فيه غير دعوة الله خالـــصة، فـــأكرم الرسول ورد عليه ردًا حسنًا، ثم أخذ يستقصى عن أمره ويسأل عن خصومه حتى اهتدى إلى أبى سفيان وكان إذ ذاك في تلك المدينة في تجارة له فجـــاء به وسأله أن يقول الصدق وتوجه إليه ببعض الأسئلة .

هرقل: أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعى مـــا يدعى ؟

أبو سفيان: أيها الملك ما يهمك من أمره؟

[٣٦] ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٤٨.

هرقل: أنبئني عما أسألك من شأنه ولا تزد .

أبو سفيان: سل ما بدا لك .

هرقل: كيف كان نسبه فيكم ؟

أبو سفيان: هو فينا ذو نسب .

هرقل: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

أبو سفيان لا.

هرقل: فهل كان من آبائه ملك ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

أبو سفيان: ضعفاؤهم .

هرقل : أيزيدون أم ينقصون ؟

أبو سفيان : بل يزيدون .

هرقل : هل يرتد أحد منهم سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟

أبو سفين : لا .

هرقل: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

أبو سفيان: لا .

هرقل: هل يغدر ؟

أبو سفيان: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها (قال أبو سفيان: ولم أتمكن من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة) .

هرقل: فهل قاتلتموه؟

أبو سفيان: نعم .

هرقل: فكيف كان قتالكم إياه؟

أبو سفيان: الحرب بيننا سجال ينال منا وننال منه.

هرقل: فماذا يأمركم به؟

أبو سفيان: يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

هرقل(للترجمان) : قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فلو قلت نعم لقلت رجل يتأسى بقول ما قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا، فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب مُلك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أنهم ضعفاؤهم وكذلك أمر الإيمان

حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيـــه فـــذكرت أن لا وكذلك الإيمان حتى تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغـــدر ويـــأمركم بالصلاة والصدق والعفاف فإن كان ما تقوله حقًا فـــسيملك موضـــع قـــدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم فلو أعلم أني أخلص إليه لقاءه ولو كنت عنده لغسلت قدميه، انطلق لشأنك!

قال أبو سفيان: فخرجت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى وأقول لقد بلغ من أمر هذا الرجل حتى أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام وما زلت مرعوبًا من محمد حتى أسلمت.

ثم كتب هرقل إلى صاحب له في رومية، وكان نظيره فـــي العلـــم يخبره بأمر الكتاب الذي جاءه من محمد وسار هو إلى حمص وهناك وافـــاه الرد من صاحبه يوافقه على رأيه. فجمع عظماء الروم في مقصورة له وقال لهم: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد أن يثبت ملكم فتبايعوا هـــذا النبي ففروا منه وهرعوا إلى الأبواب فدعاهم أن يفصحوا بالجواب فقالوا له: أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيدًا لأعرابي ؟ فلما رأى نفرتهم وأيس من إيمانهم قال: إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم.فـــسجدوا لـــه ورضوا عنه.فبقي على دينه.وإن لم يقف موقفا معاديًا للإسلام.ويدلل بعض الكتاب على ذلك بحادثتين، **أولهما** حينما كتب إليه الحارث بن أبـــي شـــمر الغساني عامله بدمشق بعد ذلك يستأذنه بحرب رسول الله لم يأذن له بـــذلك وأمره أن يتغافل عنه.

والحادثة الثانية عندما بلغ هرقل أن النجاشي قد أسلم ورفــض أن يدفع له ما كان يدفعه له من الخراج لم يغضبه حتى قال البتاق، أتدع عبدك لا يخرج لك خرجًا ويدين بدين غيرك دينًا محدثًا؟ فأجاب هرقــل: رجــل رغب في دين فاختاره لنفسه ما أصنع به، والله لولا الضن بملكي لــصنعت كما صنع. وعلى الرغم من عطف المسلمين على الدولة الرومانيــة خــلال حروبها مع الفرس، قد وقعت بينها معركة في مؤته(٣٧) .

ولما بلغ الدولة الرومانية أن جزيرة العرب كلها قد دانت الإســلام، ثارت الغيرة الدينية، فقد كانوا يمنون النفس بتنصي شبه الجزيرة العربيــة كلها، فعقدوا العزم على وقف الإسلام الزاحف، والقضاء على الدولة العربية الإسلامية. وعلم الرسول ﷺ أن الدولة الرومانية تهيئ جيوشًا لغزو حــدود العرب ، فعمل النبي على تجهيز حملة ليسيرها إلى حدود سورية، واستنفر النبي جميع القبائل العربية للذوذ عن ديارهم، فقد كان خطر الغزو يهدد بلاد العرب جميعا (٣٨).

بين الرسول والمقوقس:

وجه الرسول برسالة إلى المقوقس حاكم مصر الروماني، واســمه (جريج بن ميناء)، وكان هرقل قد بعثه إلى مصر لجمع الجزية ليستعين بها على الحروب المستمرة بين الفرس والرومان (٣٩).

---

٣٧ ابن الاثير: أسد الغابة جـــ ٢ص ١٠٢ .

٣٨ - مولاى محمد على : محمد رسول الله ص١٦٩

٣٩ - أرفنج: حياة محمد (من ترجمتنا) ص٢٠٧.

جاء في كتاب الرسول ﷺ: " **بسم الله الرحمن الرحيم** من عبـــد الله ورسوله محمد إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى ، أمـــا بعد: فإني أدعوك بدعوة الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مـــرتين، فـــان توليت فعليك أثم كـــل القـــبط (يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾).

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه الرسالة مع حاطب بن أبى بلتعه فالتقى بالمقوقس في الإسكندرية، حيث أكرمه وأحسن استقباله، وقـــال المقوقس له قد كنت أعلم أن نبيًّا قد بقى، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام ، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج في العرب فـــي أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعني في إتباعه، ولا أحب أن يعلم بمحـــاورتي إياك .

كتب المقوقس ردًا جاء فيه " لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكر فيه وما تـــدعو إليه وقد علمت أن نبيًّا قد ، بقى، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام "

وبعث المقوقس بهدايا إلى الرسول، منها جاريتان شقيقتان،هما مارية و سيرين وقد دخل الرسول بمارية وأنجب منها إبراهيم، وأعطي أختها إلى حسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن. وتذكر بعـــض الروايـــات أن هـــذه الهدايا ضمت بعض المنسوجات، والعسل، وبغلة شهباء تسمى دلدل، وبغـــل أشهب يسمى يعفور وتضيف رواية طبيبًا رده الرسول وقال:ارجع إلى أهلك نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا كلنا لا نشبع .

الفصل الثالث

الرسول و اليهود

اليهود والتبشير بنبوة محمد:

كان اليهود و النصارى قبل ظهور الإسلام يتنازعون النفوذ الأدبي في الجزيرة العربية، ويتنافسون في كسب احترام العرب، واعتز كل فريــق بدينه وكان اليهود يستنصرون على المشركين في الجاهلية ويقولون: اللهــم انصرنا بنبي آخر الزمان، ولما سألهم العرب عنه قالوا: أن نبيا قــد قــرب زمانه سيكون لمن اتبعه العز والنصر إلى يوم القيامة ويتوعــدون العــرب بإتباعه والاستنصار به عليهم[٤٠]

وكان اليهود ـــ وبخاصة أحبارهم ـــ يعلمون من كتــابهم أن نبيًّــا سيبعث في آخر الزمان تكون الجزيرة العربية داره وقراره ويحدثنا التاريخ عن (أسعد بن كرب) ملك اليمن الذي قدم إلى يثرب (المدينة المنــورة بعــد هجرة الرسول) ينتقم من أهلها لأنهم قتلوا ابنه غيلة. وبينما ابن كرب ماض في القتال والانتقام إذ جاءه حبران من أحبار اليهود – من بنــي قريظــة ـــ عالمان راسخان في العلم، فقالا له : أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة ودهش الملــك وســأل الحبرين: ولم ذلك ؟! فقالا: أن المدينة – أيها الملك – ستكون مقر هجــرة نبي يخرج من الحرم من قريش في آخر الزمان تكون داره وقراره. وتأثر الملك بعبارات الحبرين فانصرف عن المدينة وتذكر الروايات العربيــة أن

---

[٤٠] انظر كتاب (عبد المطلب جد الرسول) ص١١٧ .

عبد المطلب، جد الرسول رحل إلى اليمن، وهناك رآه أحد أحبار اليهود، وفحص هذا منخريه، ثم قال: أنا أشهد أن في إحدى يديك ملكا وفي الأخرى نبوة، وإنما نجد كلا من الملك و النبوة في بني زهرة فكيف ذاك؟وأشار هذا اليهودي على عبد المطلب بأزواج من بني زهرة ،ولذا تزوج عبد المطلب من هالة،وزوج ابنه عبد الله من آمنه ،وكان زواج الأب والابن في مجلس واحد والعروسان من بني زهرة[٤١]

كما تذكر هذه الروايات أيضا أنه عند مولد محمد ﷺ، كان في مكة يهودي يدعى (يوسف)،فقال لبعض وجوه قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم:والله ما نعلم .قال : احفظوا ما أقول لكم ،ولد هذه الليلة نبي الأمة الأخيرة ،وهو منكم على كتفه شامة فيها شعيراتان متواترات كأنهن عرف فرس، وتلك هي خاتم النبوة وتوجه الجميع إلى بيت آمنة وقالوا اها:أخرج إلينا ،فأخرجته،وكشفوا عن ظهره ،فرأي تلك الشامة،فخر مغشيًا عليه فلما أفاق قالوا :ويلك مالك؟!قال:ذهبت النبوة من بني إسرائيل

وتروى الروايات أن عبد المطلب كان قد توجه إلى اليمن على رأس وفد لتهنئة سيف لعبد المطلب :ولد ولد اسمه محمد، يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه ،يخمدان النيران(أي نيران المجوس)،ويكسر الأوثان،فاحتفظ بابنك ،واحذر عليه من اليهود فإنهم أعداؤه، واطو ما ذكرته لك عن قريش لئلا تدخلهم النفاسة فينصبون له الحبائل وهم فاعلون ذلك وأبناؤهم، ويثرب دار ملكه ،واستحكام أمره ،موضع قبره .

[٤١] سيرة ابن هشام جـ٢ص٤٢٦، المقريزي: إمتاع الأسماع جـ١ص١٠٤.

كان اليهود العرب يتوقعون ظهور نبي،وكـــانوا يتوعـــدون بـــه الوثنيين ولكنهم كانوا يظنون أن النبي يظهر من بني إسرائيل وحينما هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى يثرب قال ليهود بني قينقاع "يا معشر يهـــود، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش ، فو الله إنكم أتعلمـــون أنـــى رسول الله ،وتجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم". ونحـــن نجـــد فـــي القرآن الكريم آيات مباركة تؤيد فكرة التبشير بنبي جديد ومن هذه الآيـــات الكريمـــــة: (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾).

عداء اليهود للرسول والإسلام:

كان اليهود مؤمنين بصدق رسالة محمد، فقد كانوا دائما يتنبأون بنبـــي جديد ودين جديد . بل كانت نبوءاتهم هذه عاملا ساعد على انتشار الإسلام، فقال عاصم بن عمر بن نقادة: (إن مما دعانا إلى الإسلام، مـــع رحمـــة الله تعالى وهداه لنا، أنا كنا نسمع من رجال يهود، وكنا أهل شرك وأصـــحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننـــا وبيـــنهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب الزمان بنبـــي يبعث الآن نقتلكم معه وإرم، فكنا كثيرا ما نسمع منهم ذلك ، فلما بعـــث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعـــدوننا بـــه فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا).

سور القرآن الكريم تنبئ اليهود بالرسول ثم تكذيبهم لــه فــي هــذه الايات المباركــة:(وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ) (٤٢)

عارض اليهود الإسلام ومحمدًا منذ اللحظة الأولى، فقد رأوا في محمد ودينه منافسًا جديدًا يوشك أن يقضي على نفوذهم وعلى نفــوذ النــصارى جميعًا، وأن ينزع من الفريقين لواء الزعامة الدينية الذي يتجاذبونه، فقد كان من صميم العرب ومن أكرم بيوتات قريش، فهو لذلك أقرب إلــى نفــوس العرب الذين يبغضون اليهود ويضيقون ذرعًا بافتخــارهم علــيهم بــالعلم وبالتوراة.وكتب بني إسرائيل، لذلك كان أهل المدينــة أســرع إلــى قبــول الإسلام.

صار اليهود في عداوة مع الرسول على غيــر هــدى، وأخــذوا يصرحون بالشك في رسالته لا لشيء سوى أنه عربي، والنبوة في نظــرهم مقصورة عليهم، ولأنه أيضًا بعث في الحجاز، والنبوة في رأيهم إنما تكــون في الشام موطن الأنبياء(٤٣)لما رأى اليهود ازدياد عدد المــسلمين وانتــشار الإسلام يوما بعد يوم وأن العرب يقبلون على محمد والإسلام، وأن جميــع مصالح اليهود القائمة على أرستقراطية دينية فرصوها على العرب بقــولهم أنهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه، أصبحت مهددة باستقرار الأمــر لهؤلاء العرب الأميين، ولما رأوا ذلك أيقنوا أن لا سبيل للمحافظة على هذه

٤٢ سورة البقرة آية ٨٩ .

٤٣ جمال سرور: قيام الدولة العربية ص١١٤ .

المصالح وضمان اطمئنانهم في الجزيرة العربية إلا بالقضاء علـى محمـد وأتباعه.

وهكذا كان اليهود ينظرون إلى الرسول وإلى الإسلام بعين الخوف منذ اللحظة الأولى من هجرته من مكة إلى يثرب (المدينة) ثم ازداد خوفهم منه وظهر حسدهم له عندما رأوا الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فأخذوا يكيدون للإسلام والمسلمين بالدس والأرجاف ، ثم بـالمراء والجـدل فيمـا يعلمون و ما لا يعلمون وإذا سئلوا عن شيء مما في كتبهم حرفوا الكلم عن مواضعه وألبسوا الحق بالباطل لكسبوا ولاء المشركين بالحض مـن شـأن الإسلام، لا لسبب سوى كراهيتهم للرسول لما اختصه الله به مـن الرسـالة [٤٤].

صور الله سبحانه وتعالى موقف اليهود في آياته الكريمة، فمنها: (بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ) [٤٥].ومن هذه الآيات المباركة أيضًا: (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾) [٤٦]

[٤٤] حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام جـ١ص ١٣٢ .

[٤٥] سورة البقرة ٩٠ .

[٤٦] انظر كتاب (عبد المطلب جد الرسول) ص١١٧ .

موقف الرسول من اليهود:

لما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة حرص على تحقيق أحد أمرين: إمـــا أن يجتذب اليهود المقيمين بها إلـــى الإســـلام، أو أن يكتـــسب صـــداقتهم وإخلاصهم مع بقائهم على دينهم، وتحقيقا لهذه الغاية، كتب كتابًا بيّن فيه ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات.

وهذا الكتاب أبطل ما كان بين أهل المدينة قبل الأسلام من المعاهـــدات الظالمة التي تبث روح الفرقة بين أهلها.فقد أراد الرســـول أن يجعـــل مـــن المدينة (يثرب) وطنا واحدًا للعرب واليهود، وأن يجعل من الفـــريقين أمـــة واحدة تجمعها جامعة الوطن و لا يفرق بينها اختلاف في الدين فيزول مـــا كان بينهم من شرور وآثام وتبطل حروبهم ومنازعاتهم ويرفرف علم الإخاء بينهم جميعًا، فلا ينظر العرب إلا إلى هذا الوطن، وينسون فيه أنهم عـــرب، ولا ينظر اليهود إلى هذا الوطن، وينسون أنهم فيه يهود[٤٧].

فتحت هذه المعاهدة فتحًا جديدًا في السياسة الدينية، فأقرت حرية العقيدة وحرية الرأي، وحرمة الحياة، وحرمة النفس، وحرمة المـــال، ولـــم يحدث كل هذا قبلها فيما بين أهل الأديان، بل كان هناك الاضطهاد والظلـــم والتفرقة في الحقوق، والتفاوت بين الأفراد والطبقات.

حاول الرسول أن يجذب اليهود إلـــى الإســـلام، فـــدأب علـــى الاستشهاد بكتبهم المقدسة ومنحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينيـــة وساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق السياسية، ولكنهم قـــابلوا صـــنيعه

[٤٧] الصعيدى : السياسة الإسلامية ص٥٦ .

وكرمه بالجحود والغدر، وشعر الرسول بأنه لا جدوى من جذب اليهود إلى الإسلام.

لم يخلص اليهود قط للمعاهدة التي وقعوها مع الرسول، ولم يفوا بوعودهم مطلقًا، فما أبرموا هذه المعاهدة إلا ليخدعوا المسلمين ويدبروا في السر ما يفسدون به أمرهم، وقد عاشوا بين العرب في الجاهلية ما عاشـــوا بينهم ولقوا من حسن جوارهم ما لم يلقوه من غيـــرهم فلـــم ينـــسهم هـــذا بغضاءهم فكيف يخلصون لهم ، وقد صاروا إلى دين جديد يـــنهض بهـــم ، وكيف يرتفعون إلى هذه السياسة التي تسمو على الفوارق الكنيسية، وهم لا يعرفون إلا جنسهم ودينهم، وجبلوا على الجشع والطمع، فلا يهمهم إلا أمـــر المادة، و لا يهمهم أمر الروح وفضائلها.

وكان رسول الله ﷺ كريمًا في معاملة اليهود، إلى أبعـــد حـــدود الكرم، فكان يصابرهم ويصبر عليهم، ويغض الطرف عن كيدهم ويحتـــرم دينهم، ويساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق والواجبات، وكان لا يعاتبهم إلا بمقدار ما يكف أيديهم عنه، وكان يحكم فيهم مـــن يختارونـــه بأنفـــسهم وصفوة القول أن معاملة الرسول إياهم كانت أيسر وأخـــف مـــن معاملتـــه لقريش وغيرها

الصراع السلبي بين المسلمين واليهود :

بدأ يهود المدينة ببث بذور العداء و الخصام بـــين المـــسلمين فـــي المدينة ،فكانوا يثيرون البغضاء والأحقاد بـــين المهـــاجرين والأنـــصار ، ويوقعون بين فريقي الأنصار والأوس والخزرج فيذكرونهم بما كـــان بـــين القبيلتين من معارك وخاصة يوم بعاث الذي انتـــصرت فيـــه الأوس علـــى

الخزرج .كما أعلن اليهود تأيدهم لقريش وحرضوهم على قتال الرسول،وقام شعراء اليهود يرثون قتلى قريش في غزوة بدر،وكان اليهود إذا سئلوا عـن شيء مما في كتبهم حرفوا الكلم عن مواضعه وألبسوا الحق بالباطل لينـالوا رضا المشركين بالكيد للإسلام ،لا لسبب سوى كراهيتهم للرسول لما اختصه الله به من الرسالة ، وأنزل الله عز و جل في الآية الكريمة: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [٤٨].

استمر اليهود في حربهم السافرة حينا والخفية أحيانًا،ضـد محمـد والمسلمين . وانضم إليهم رجال من الأوس و الخزرج ممـن بقـوا علـى جاهليتهم وكانوا أهل نفاق علـى ديـن آبـائهم مـن الـشرك و التكـذيب بالبعث،رجال امتلأت نفوسهم حقدًا على محمد، فتظاهروا بالإسلام وقلـوبهم مليئة بالكفر والنفاق، وكان هواهم مع اليهود، لأن اليهود يكـذبون محمـدًا وينكرون رسالته، إذن فان الفرصة سواتية لليهود أن يجـدوا فـي هـؤلاء المنافقين المطايا التي يصلون بها إلى أغراضهم ويعكرون الجو على محمد والمسلمين[٤٩].

على أن كيد اليهود لمحمد والمسلمين لم يقتـصر علـى تحـريض أحبارهم المنافقين، وبث روح لكراهية في المدينة ضـد الرسـول ودينـه ورسالته بل لقد سلكوا طرقًا أخرى خبيثة ملتوية. فرأينا بعـض أحبـارهم يتظاهرون بالإسلام نفاقا ورياءً. وصور الله عز وجل موقفهم فـي آيـات

---

[٤٨] - سورة البقرة آيه ٩٠.

[٤٩] برانق والمحجوب: محمد واليهود ص٣٩.

كريمة :(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾) [٥٠]..

حذر الله سبحانه وتعالى اليهود أن ينقضوا المعاهدة التي عقدوها مع الرسول فقال عز وجل :(يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾) [٥١]..

لكتفى الرسول ﷺ في هذه الفترة من الصراع السلبي برد كيد أولئك اليهود وإفساد محاولاتهم التفريق بين المسلمين، وتشكيكهم في دين الإسلام، وقد جرى في هذا على السياسة التي استنها في مطاولة أعدائه إلى أن ينقطع عذرهم ولا يكون هناك شيء في أخذهم بالحزم والشدة، ويكونوا هم الـــذين جنوا على أنفسهم ، ولاشك أن هؤلاء اليهود كانوا خطرًا عظيمًا على الدعوة

---

[٥٠] سورة البقرة آية ٨ وما بعدها .

[٥١] سورة البقرة آيات ٤٠_٤٤.

عز وجل الآية الكريمة: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ)، فهم إن أخفقوا في شق عصا الطاعة على الرسول فإن تخطئهم الوسيلة إلى زعزعة العقيدة في قلوب المؤمنين بتحينهم الفرصة، فإن لم تحن اختلقوها، كما صنعوا عند تحويل قبلة المسلمين من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،ثم إلى مقام إبراهيم مرة أخرى، فقد زعم اليهود أن عقيدة المسلمين غير ثابتة(٥٢). ، وعبر القرآن الكريم عن هذا الأمر فقال : (۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾).

شن اليهود حربا عنيفة على المسلمين،فقد حاولوا قتل الرسول وحرضوا الكفار على قتال المسلمين وحزبوا الأحزاب عليهم،ونقضوا عهود المسلمين، فرأى محمد والمسلمون أن يدفعوا عن أنفسهم كيد اليهود، واضطروا إلى مقاومتهم ومحاربتهم،لأن فرديتهم العدوانية كانت تعارض إنسانيته،كما كانت هذه الفردية تقف حائلاً أمام الوحدة الإسلامية والعربية.

الصراع الإيجابي بين اليهود والمسلمين:

لم يكن اليهود في الحجاز متحدين، ولم تكن بينهم رابطة سياسية تجمعهم،بل كانوا قبائل متفرقة، فلما أظهروا عداءهم للمسلمين حاصرهم الرسول قبيلة بعد قبيلة وأجلاهم عن المدينة، ثم أخذ يتتبع حركاتهم بعد أن اجتمع شملهم في خيبر،فسار إليهم وأضعف من شوكتهم (٥٣).

---

٥٢ محمد عطا:الدعوة التحريرية الكبرى ص١١٩

٥٣ جمال سرور: قيام الدولة العربية ص١١٥ .

غيرت موقعة بدر وضع محمد تمامًا، فقد أصـــبح القائـــد المظفـــر لجماعة تزداد يومًا بعد يوم .وسرعان ما تحولت كثير من القبائل العربيـــة الوثنية إلى الإسلام، وأصبح محمد الآن حاكمًا للمدينة، كما أصبح مُـــشَرعًا للقوانين، وكان من أهم المشكلات التي واجهها الرسول تحديد موقفـــه مـــن اليهود وكانوا يؤلفون ثلاث قبائل قوية. لم تثمر معاملة محمد الطيبة لليهود، فقد ظلوا غير مؤمنين بالإسلام كما عاملوا الرسول والمسلمين بقسوة وجفاء. ونظمت أسماء بنت مروان، الشاعرة اليهودية،كثيرا من القصائد في هجـــاء الرسول،كما انشد الشاعر اليهودي كعب بن الأشرف عدة قصائد في مكة بعد موقعة بدر يحث فيها القرشيين على الأخذ بثأر قتلاهم في تلك المعركة.بـــل بلغ من وقاحته أن أنشد هذه القصائد عند عودته إلى المدينة وفي حـــضور بعض المسلمين، مما أثار غضب الرسول، فقال يومًا، من لـــي مـــن ابـــن الأشرف ؟ وبعد عدة أيام دفع كعب حياته ثمنًا لقصائده فقـــد قتلـــه بعـــض الأنصار من قبيلة الأوس.

أولاً: بنو قينقاع:

كانت قبيلة بنو قينقاع أول قبيلة يهودية تبدأ الصراع الإيجـــابى. وكانت هذه القبيلة تسيطر على شمال الحجاز، وكان الرسول ﷺ قد جعل بينه وبينهم أمانًا، وشرط عليهم شروطًا منها ألا يظاهروا عليه عدوا. فلما قـــدم الرسول من بدر، أظهر بنو قينقاع البغي والحسد ونقضوا العهد الذي عقـــده معهم [٥٤]. فنزلت الآيات الكريمة تخاطـــب الرســـول(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾)، فجمعهم الرسول

---

[٥٤] ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير حـــ ٣ ص٦٨ .

بسوق بني قينقاع وقال:" يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثـــل موقعة قريش فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله، تجدون ذلك فـــي كتـــابكم وعهد الله إليكم" ، فقالوا " يا محمد، لا يغرنك من لقيت، إنك قهـــرت قومًـــا أغمارًا وإنا والله أصحاب الحرب ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا"[٥٥]

وهكذا أبدى بنو قينقاع عداءهم، واستعدادهم للقتال، ثم حدث مـــا أصار غضب الرسول على بنو قينقاع، فكان هذا الحدث شرارة الحرب فقد حدث أن فتاة عربية من قبيلة عربية تجاوز المدينة كانت قـــد اعتـــادت أن تجلب اللبن إلى المدينة، وكانت يومًا في الحي الذي يملكه بنو قينقـــاع وقـــد ضربت خمارها فوق وجهها كما أمرتها تعاليم الإســـلام، وباعـــت الفتـــاة بضاعتها، ثم اتجهت إلى أحد الصاغة اليهود تشترى حلية، فتعـــرض لهـــا بعض فتيان اليهود، فمضوا يتغامزون عليها ويسخرون بخمارها ويهـــزءون من الإسلام وتعاليمه. وحاول بعض شباب المسلمين في الـــسوق أن يكفـــوا شباب اليهود عن الفتاة وعن الهزء بالإسلام، ولكنهم لم يكفوا. وفـــي هـــذه الأثناء كان الصائغ اليهودي قد أثبت طرف الثوب إلى مقعده بمسمار صغير، وعندما حاولت الفتاة أن تنصرف تعرى ظهرها ثم تعثرت ووقعـــت علـــى الأرض وقد انحسر ثوبها عن وجهها وتعرت. وتعالت ضـــحكات الـــشباب اليهود.ووقفت الفتاة وسطهم حائرة مضطربة. وشاهد أحد المسلمين موقـــف الفتاة الحرج، فتقدم شاهرًا سيفه وأغمده في صدر الصائغ اليهودي، فهجـــم الشباب اليهودي على المسلم وقتلوه، واندفع المسلمون بأسلحتهم كما تـــزود بنو قينقاع بسلاحهم، ورأى الرسول أن يقاتل هؤلاء اليهود، فقد نقضوا العهد الذي عقد معهم [٥٦].

---

[٥٥] ابن هشام حـــ ٢ ص٤٢٦.

[٥٦] ابن هشام حـــ ٢ ص ٤٢٧.

لم يكن لبني قينقاع حصون ولا معاقل، وإنما كانوا تجارًا وصاغة وهم حلفاء لعبد الله بن أبى بن سلول، زعيم المنافقين، فسار إليهم الرســول وحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى اضطروا إلى النزول على حكمــه الــذي تضمن أن تكون أموالهم غنيمة له، وتكون النساء والذرية لهــم ثــم أخلــى سبيلهم بعد أن شفع فيهم عبد الله بن أبى سلول ، وأمرهم بالجلاء عن المدينة فساروا صوب شمال الحجاز حتى نزلوا بأذرعات[٥٧].

ثانيا: بنو النضير

ثم جاء دور قبيلة بني النضير، فقد فرحت القبائل اليهودية لما نــال المسلمين في موقعة أحد من قريش مما شجعهم على الغدر بالمسلمين. قــدم على الرسول وفد من مدينتى (عضل) و (القارة) يعلنون إسلامهم ويطلبون من الرسول أن يبعث معهم نفرًا من الصحابة يفقهونهم في الدين ويعلمونهم شرائع الإسلام.فبعث الرسول معهم ستة من المسلمين، ولكن خلال الرحلة، عند مرورهم بمنطقة الرجيع[٥٨] غدروا بالمسلمين وقتلــوا أربعــة مــنهم، وأسروا اثنين وحملوهما إلى مكة حيث سلموهما إلى القرشيين فقتلوهما.

وتكررت هذه الخيانة، فقد قدم بعض أهالي نجد علــى الرســول وتظاهروا برغبتهم في الإسلام، وطلبوا من الرســول أن يمــدهم بــبعض المسلمين ليحموهم من أعدائهم فبعث الرسول بجماعة من المــسلمين يبلــغ عددهم أربعين مسلمًا من الأنصار وكانوا يعرفون بالقراء لحفظهم القــرآن الكريم .

---

[٥٧] أذرعات : مدينة بأطراف الشام قبل الحجاز .

[٥٨] المقريزى : إمتاع الأسماع جـــ ١ ص ١٠٥.

وعند بئر مؤته، على مسيرة أربعة أيام من المدينة، هاجم بنو سليم المسلمين وقتلوهم عن آخرهم سوى رجل واحد وهو عمرو بن أمية الذي استطاع الفرار وهرع إلى المدينة وفي طريقه إليها التقى برجلين يهودين من بني عامر، غير مسلحين فظن أنهما ينتميان إلى أعدائه وأراد أن يأخذ بثأر إخوانه المسلمين القتلى، فقتل هذين اليهودين وطالب بنو عامر بالدية.ورأى الرسول أن يقوم بنو النضير، وهم يهود أيضًا.بدفع الدية لبني عامر، فقد كانوا على جانب كبير من الثراء، ويمتلكون حصناً يسمى (زهرة) على بعد ثلاثة أميال من المدينة. وكان بنو النضير قد عقدوا مع الرسول حلفا عند قدومه إلى المدينة . يقضي بالتعاون على أداء الدية، ودعا الرسول إلى عقد اجتماع للتباحث في هذا الأمر، وتوجه الرسول إلى هذا الاجتماع بصحبة أبو بكر، وعمر، وعلى، وبعض المسلمين الآخرين، وجلس الرسول إلى جنب جدار من بيوت النضير كانوا قد تآمروا على الرسول واتفقوا على أن يقوم أحدهم بإلقاء حجر من سطح هذا البيت على الرسول فيقتله ولكن الله سبحانه وتعالى أعلم رسول الله بالمؤامرة فعاد إلى المدينة دون أن يعلم أحد بذلك، ثم لحق به أصحابه [٥٩].

أثارت هذه المؤامرة غضب الرسول وسخط المسلمين، فطلب الرسول من بني النضير الجلاء عن المدينة وأمهلهم عشرة أيام يحاربهم بعدها إذا لم يخرجوا، ولكن عبد الله بن أبى سلول الخررجي أرسل إليهم سرًا يعدهم بمساعدته لهم. ولكنه لم يستطع أن يبر بوعده، كما أن بني قريظة لم تساعدهم. وحاصر الرسول بني النضير، وألقى الله الرعب في قلوبهم، ورأى بنو النضير عجزهم عن الصمود في قتال المسلمين، فطلبوا الصلح بعد حصار دام خمسة عشر يومًا.

---

[٥٩] سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ١٩١.

وصالحهم الرسول على ألا يتعرض لأحد منهم بسوء، وأن يجلوا عن المدينة، ولهم ما حملت الإبل من أموالهم ومتاعهم، ولرسول الله أرضهم ونخلهم وأسلحتهم[٦٠].

وغادر بنو النضير المدينة بستمائة بعير نقلوا عليها أحسن ما في بيوتهم ثم خربوا ديارهم بأيديهم، ورحل بعضهم إلى الشام، ونزل معظمهم بمدينة خيبر وهى مدينة يهودية حصينة على مسيرة أيام قليلة من المدينة [٦١].

صور الله سبحانه وتعالى خروج بني النضير من المدينة وتخريبهم لبيوتهم في هذه الآيات الكريمة:(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥). (الحشر)

---

[٦٠] البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٠-٣١ .

[٦١] اليعقوبى جـ ٢ ص ٣٨ .

كان بنو النضير على جانب كبير من الثراء، فقد غنم المسلمون كثيرًا من الغنائم وكانت هذه الغنائم مما أفاء الله على رسوله أي أنها خالصة له يضعها حيث يشاء[62] كما جاء في القرآن الكريم: (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧) [63] . فـــدعا الرســـول الأنصار وذكرهم بما صنعوا للمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم، ثم قال لهم : " ليس لاخوانكم من المهاجرين أموال، فان شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعا، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة "

فقالوا : بل قسم هذه فيهم وأقسموا هذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا ما شئت .فقسم الرسول ما أفاء الله عليه من أموال بني النضير على المهاجرين دون الأنصار[64]

ثالثا : بنو قريظة :

بعد إجلاء بني النضير، لم يبق في المدينة من القبائل اليهودية سوى بني قريظة وكانوا يملكون حصنًا منيعًا قرب المدينة. وقـد نقـضوا عهدهم للرسول، اذ تحالفوا مع أعدائه من المشركين الـذين قـدموا لغـزو

[62] سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٩٤.

[63] سورة الحشر آية ٧ .

[64] البلاذرى: فتوح البلدان ص ٣٤ .

المدينة في غزوة الأحزاب (أو الخندق) [٦٥] وأدرك الرسول حرج الموقف، فكان عليه أن يصد القرشيين وحلفاءهم عن عبور الخندق، وكان عليه فـــي الوقت نفسه أن يعمل على تجنب هجوم بني قريظة وعلى حفظ الأمن داخل المدينة.

وفي ذلك الحين، جاء إلى الرسول نعيم بـــن مـــسعود مـــسلمًا، وعرض عليه أن يكلفه بأي عمل يقوم به في جهاد المشركين وصرفهم عن المدينة. فقال الرسول له خذل عنا فإن الحرب خدعة. فذهب نعيم إلى بنـــي قريظة وحذرهم إن هزمت قريش نجت بنفسها وتركتم تحت رحمة محمد، ثم نصحهم بألا يطمئنوا إلا إذا أعطوهم رهائن من ساداتهم وأشرافهم. ثم ذهب نعيم إلى كل قريش وغطفان وأوهمهم أن بني قريظة قد ندموا على نقضهم عهد محمد، واتفقوا معه على أن يخدعوا له قريشا وغطفان فيأخذون بعض أبناء القبيلتين كرهائن ثم يقدمونهم إلى محمد ليضرب أعناقهم. واســـتعجلت قريش وعد قريظة لها، فكان جوابهم ما يؤكد عـــزم بنـــي قريظـــة علـــى الغدر بهم .

وقد فعلت هذه الوقيعة فعلها في الأحزاب، وتأكدت قريش وغطفان من غدر بني قريظة بهم، فعزموا على الرحيل. وبعد جلاء المـــشركين، تفـــرغ الرسول لعقاب بني قريظة الذين نقضوا عهدهم ، وحاصرهم الرسول خمسة وعشرون يومًا، حتى نزلوا على حكمه.

وتم للرسول بالقضاء على بني قريظة السيطرة على المدينة، وأصـــبح يأمن فيها على نفسه بعد أن تخلص من العناصر المناوئة، كما انتفع فقـــراء

---

[٦٥] اليعقوبى جــ ٢ ص ٣٩ .

المسلمين بصفة خاصة من أنصار ومهاجرين بتلك الأراضي والمنقــولات التي كان يمتلكها اليهود.

رابعا: يهود خيبر:

على مسيرة خمسة أيام من المدينة تقع مدينة خيبر، حيث يسكن اليهود الذين تميزوا بالثراء نتيجة اشتغالهم بالتجارة والزراعة. فقد كانوا يزرعون أرضهم بالحبوب وأشجار النخيل ويمتلكون كثيرًا من قطعان الأغنام وعددا من الحصون، وبلغ تاريخ تلك المدينة من القدم بحيث أكد أبو الفدا ، المؤرخ العربي، أن موسى بعد عبوره للبحر الأحمر أرسل جيشًا لقتال العمالقة فــي يثرب وخيبر.

أصبحت خيبر ملجأ لليهود بعد أن أجلاهــم الرســول عــن المدينــة، واستقروا هناك يتطلعون إلى الانتقام، وأدرك الرســول أهــدافهم . وكــان الرسول قد بدأ يقاتل أعداء الإسلام فرأى أن يهاجم مدينة خيبر.

وفي مطلع السنة السابعة من الهجرة، خرج الرسول إلى المدينة علــى رأس جيش من المسلمين بلغ ألفا ومائتين من الرجال ومائتين من الخيالــة. وصحبه أبو بكر وعلى بن أبى طالب وعمر بن الخطاب، وغيرهم من كبار الصحابة[٦٦]

كان يهود خيبر إذ ذاك يقيمون في حصون على نحو ما كان يفعل بنــو جلدتهم بيثرب، ولو يدر بخاطرهم أن الرسول سيغزوهم لمنعــتهم ووفــرة

---

[٦٦] ابن سعد : الطبقات الكبرى جـــ ٣ ص ١٥٢ ـــ .

سلاحهم وكثرة عددهم.لكن الرسول ما لبث أن نزل بساحتهم ليلاً على حين غفلة منهم، بحيث لم يستطيعوا أن يضموا إليهم حلفاءهم .فلما أصبح الصباح وشرعوا يتأهبون لآداء أعمالهم فوجئوا بمشاهدة المسلمين أمامهم فـذعروا وولوا هاربين إلى حصونهم . ثم دار القتال بين الفريقين وهاجم المـسلمون حصون اليهود حصناً بعد حصن، وتمكنوا من فتح بعضها عنوة، كما اخذوا البعض الأخر صُلحًا.أصبحت الحصون التي فتحت عنوة ملكا للمسلمين. أما ما أخذت صلحا فقد اتفق الرسول مع أصحابها علـى أن يبقـوا بـالأرض يزرعونها مناصفة ، النصف للمسلمين والنصف الأخر لليهود[٦٧]

لما سمع أهل فدك، وهى مدينة قرب المدينة بتلك المعاملة الحـسنة التي عامل بها اليهود أهالي حصون خيبر، أرسلوا إليه يطلبـون الـصلح، فصالحهم وصاروا يعطونه نصف غلة أراضيهم [٦٨]

وأصبحت فدك خالصة له لأن المسلمين لم يقفوا عليهـا بخيـل ولا ركاب، أما مغانم خيبر فقسمت على أهل الحديبية. قـال الله تعـالى [٦٩] : (وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ) [٧٠]

كان الاستيلاء على مدينة خيبر من أعظم انتـصارات المـسلمين، وحينما تقدم الرسول إلى خيبر وشاهد أسوارها العالية الحـصينة والـتلال الصخرية التي تحميها، توجه بصلاته إلى الله بالشكر[٧١]

---

[٦٧] ابن سعد: كتاب الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ١٥٢.

[٦٨] المقريزى : إمتاع الأسماع حـ ١ ص ٣١٢ - ٣٢٨.

[٦٩] سورة الفتح آية ٢٠.

[٧٠] يقصد عز وجل بهذه (خيبر) .

وكان لانتصار المسلمين في خيبر أهمية خاصة، فقد ترتب عليه أن أصبحت لدولتهم الناشئة أراض مملوكة خارج المدينة يجبون منها الخــراج كما أدى إلى وجود جماعة من اليهود يضمها الــسلطان الــسياسي للدولـــة الإسلامية. وهكذا وحد تلك الدولة لأول مرة (أهل ذمة) . ولقد سمح لهؤلاء الذميين بأن يظلوا على دينهم ويستغلوا أراضيهم وفق الشروط التي تؤخــذ عليهم[٧٢]

وفوق ذلك، فقد استطاع الرسول أن يقضي على فردية اليهود، وان يجعلهم رعايا في الدولة العربية الإسلامية الناهضة، يدينون بالطاعــة لهــا ولرئيسها العربي، ترفرف عليهم جميعًا راية تسامح الإسلام.

* * * * * * * *

[٧١] ارفنج: حياة محمد (من ترجمتنا) ص ١٩٩.

[٧٢] جمال سرور: قيام الدولة العربية ص ١٢٠ .

الفصل الرابع

أحكام أهل الذمة في الإسلام

تعريف أهل الذمة :

الذمة هي اللغة العهد والأمان والضمان، وأهل الذمة هم المستوطنون لبلاد الإسلام من غير المسلمين، وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم و أموالهم، وأصبحوا في ذمة المسلمين. وكانت تقاليد الإسلام تقضي بأنه إذا أراد المسنمون غزو إقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الإسلام، فمن استجاب منهم طبقت عليه أحكام المسلمين، ومن امتنع فرضت عليه الجزية، كقوله تعالى (قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾) ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى أتباع الملل المعترف بها وهي : المسيحية، واليهودية، والمجوسية، والسامرية، والصابئة.

يوضح معاملة الرسول عليه الصلاة والسلام للمسيحيين عهده لأمير (أيلة) المسيحي، فقد جاء فيه:" بسم الله الرحمن الرحيم. وهذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله، ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد والنبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه

وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا مــاء يردونـــه و لا طريقًا يريدونه من بر أو بحر(٧٣) .

ولما تم للعرب من المسلمين فتح الأمصار رحب بهم أهل الذمة، فقد أملوا في الخلاص من الانقسامات الدينية والمذهبية، والخلاص مــن ظلــم حكامهم، والاعفاء من الخدمة العسكرية، والتمتع بالحرية الدينية التي يسمح بها الإسلام مقابل دفع الجزية. فقد دعا العرب المسلمون أهل الذمـــة إلـــى الإسلام، وأعلنوا أن المحارب إذا أسلم يصبح له ما للمـــسلمين وعليـــه مـــا عليهم، ولذا دخل في الإسلام جموع هائلة من أهل الذمة، وآمن بعـــضهم أن توفيق العرب المسلمين في الفتوحات هو مظهر من مظاهر رضاء الله عليهم ودليل على صدق دينهم (٧٤) . وأما من بقى من أهل الذمة على دينه، فقـــد عاملهم العرب بتسامح عظيم باعتبارهم أهل كتاب، وكانت كتب الصلح مرآة صافية انعكست عليها صور كثيرة لتسامح المسلمين.

حقوق وواجبات أهل الذمة:

كان على أهل الذمة في الدولة الإسلامية واجبـــات ولهـــم فـــي مقابلها حقوق. أما الواجبات: فكان على أهل الذمة أن يدفعوا الجزيـــة، مـــع تقديم الزيت والخل والطعام اللازم للمسلمين . وكان يشترط على أهل الذمة في عقد الجزية شرطان، أحدهما مستحق والأخر مستحب . ويشمل الـــشرط المستحب ستة أمور يجب على أهل الذمة تحقيقها، فيجب علـــيهم احتـــرام القرآن والرسول وعدم القدح في الإسلام، و ألا يصيبوا مسلمة بزنا و بنكاح،

٧٣ سيرة ابن هشام جـــ ٤ ص ١٨٠- ١٨١ .

٧٤ أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٧٥ .

و ألا يحولوا مسلمًا عن دينه، فعليهم لبس الغيار وشد الزنـــار، وأن تكـــون مبانيهم أقل ارتفاعًا من مباني المسلمين، و ألا يسمعوا المـــسلمين أصـــوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم، وعدم المجاهرة بشرب الخمر أو إظهـــار الـــصلبان والخنازير وإخفاء دفن الموتى وعدم النواح عليهم، وعدم ركوب الخيل مـــع السماح بركوب البغال والحمير [٧٥] . وكان على أهل الذمة ألا يُحَدثُوا بيعة أو كنيسة، ولكن يجوز بناء ما تهدم من بيعهم وكنائسهم القديمة [٧٦] . كمـــا كان على فلاحى أهل الذمة العناية بالطرق والجسور والأسواق والإرشـــاد وضيافة أبناء السبيل [٧٧] .

أما حقوق أهل الذمة، فهي الكف عنهم والحماية لهم، ولأهل العهد الأمان على نفوسهم وأموالهم [٧٨] . وفي الحقيقة كانت معاملة المسلمين لأهل الذمة تنم عن تسامح وعطف وكرم. فقد كان أهل الذمة لا يـــدفعون ســـوى عُشْر التجارة والجزية، بينما هم معفون من الصدقات [٧٩] . وكانت الجزية تقابل ما يدفعه المسلم من صدقة [٨٠] . وأعفي الصبيان والنساء والمساكين وذوو العاهات والرهبان [٨١] .

وكثيرا ما نقض بعض أهل الذمة ما شرطه المـــسلمون علـــيهم، فكان المسلمون لا يقتلونهم أو يغنموا أموالهم أو يسبوا ذراريهم، بل كـــانوا

---

٧٥ الماوردى: الأحكام السلطانية ص ١٣٨ .

٧٦ المصدر السابق ص ١٤٠ .

٧٧ الطبرى حـــ ٤ ص ١٨٤ .

٧٨ الماوردى: الأحكام السلطانية ص ١٣٧ .

٧٩ الماوردى: الأحكام السلطانية ص ١٣٧ .

٨٠ ابن أدم : الخراج حـــ ١ ص ١٠ .

٨١ الطبرى حـــ ٤ ص ١٩٨ .

يكتفوا بطردهم من بلاد المسلمين [٨٢] . وعاش المسلمون مع أهـل الذمـة جنبا إلى جنب، فقد اشتركوا مع المسلمين في تخطـيط المـدن الإسـلامية الجديدة وعاشوا جميعا في سلام .

الجزية: أسباب فرضها، ومقدارها:

فرضت الشريعة الإسلامية على أهل الذمة دفع الجزية، ولم يكن ذلك – كما ذكر المستشرقين – عقابا لهم على عدم اعتناقهم الإسلام. بـل كانـت الجزية ضريبة عادلة تمامًا في كل صورها. والحياة في كل مجتمع في كل عصر تقوم على أساس الحقوق والواجبات، وقد تمتع أهل الذمة بكثير مـن الحقوق وعاشوا في ظل التسامح الإسلامي، فكان عليهم أن يقوموا، مقابـل هذه الحقوق العديدة، ببعض الواجبات، كما أن كل فرد في أي دولة فـي أي عصر، لابد أن يساهم بجزء من المال، تقوم الحكومة بجمعـه للقيـام بمـا يحتاجه المجتمع من خدمات و مرافق. وكان المسلم عليه كثير من الواجبات، فهو يدفع الزكاة، ويقوم بالخدمة العسكرية. ولذا كان على الذمي أن يـؤدى ضريبة أخرى إذا كان معفي من تأدية الزكاة لأنه غير مسلم، كما كان الذمي معفي أيضًا من أداء الخدمة العسكرية، ويتمتع بحماية المسلمين وتسامحهم، ويمارس سائر الأعمال والوظائف في حرية .

واعترف أحد المستشرقين بهذه الحقيقة، وهو المؤرخ (توماس أرنولد) [٨٣] . فقال لم يكن الغرض من فرض الجزية على أهل الذمة. كما يريـدنا بعض الباحثين على الظن، لونا من ألوان العقاب لامتنـاعهم عـن قبـول

---

٨٢ أبو يوسف: الخراج ص ٦٩– ٧٠ .

٨٣ الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٤٠ .

الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة، وهم غير المسلمين مـــن رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، فـــي مقابل الحماية التي كفلتها لهم الدولة الإسلامية.

ويرى الماوردي [٨٤] . في كتابه الأحكام السلطانية ، أن دفـــع غيـــر المسلمين الجزية كان مقابل الكف عنهم وحمايتهم، و ما تمتعوا به من حقوق كثيرة.

لم يكن مقدار الجزية ثابتًا أو محددًا، فقد اختلـــف بـــاختلاف الزمـــان والمكان . فقد كانت معاهدات الصلح بين العرب والمسلمين وأهـــل الذمـــة تحدد هذا المقدار، فإن لم تحدده هذه المعاهدات فكانت العادة المتبعة فـــرض الجزية تبعًا لمقدار دخل كل فرد.

حددت شروط الصلح في معظم بلاد الشام ومصر مقدار الجزية. جـــاء في كتاب(الأموال) لأبى عبيد[٨٥] . : ".. عن نافع عن أسلم عن عمر: أنـــه ضرب الجزية على أهل الشام، على أهل الذهب أربعـــة دنـــانير، وأرزاق المسلمين من الحنطة مدين، وثلاثة أقساط زيت، لكل إنسان كل شهر وعلى أهل الورق أربعين درهما، وخمسة عشر صاعا لكل إنسان.. ومن كان من أهل مصر فأردب كل شهر لكل إنسان"

فتح الإسكندرية، أن لأهل الذمة في مصر حرية ممارسة شـــعائرهم الدينية مقابل دفع دينارين سنويًا، وأعفي مـــن الجزيـــة النـــساء والأطفـــال والشيوخ ورجال الدين، وكتب عمرو للأقباط عهدًا بحماية كنيستهم .

---

[٨٤] الأحكام السلطانية ص ١٣٧ .

[٨٥] الأموال ص ٣٩ .

بعد استقرار المسلمين في الأمصار المفتوحة، فكر عمر بن الخطاب في وضع نظام ثابت موحد للجزية يتبعه العمال في سائر الأمصار، وليمنع اجتهاد الولاة[٨٦] . فجعل عُمَر الجزية على الرجال، على الموسـر ثمانيـة وأربعون درهمًا، وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهمـا، وعلـى الفقير أثنا عشر درهما [٨٧] . أما الموسر فهو صاحب الحرفة المربحة مثل الصيرفي والبزار وصاحب الضيعة والتاجر والطبيب، أما المتوسط الحـال فهو الأقل كسبًا، أما الفقير فهو العامل بيده مثل الخياط والصباغ والإسكافي وما شابههم [٨٨]

واتبعت هذه القاعدة في بلاد العراق وبعض مدن الشام وغيرها من الأمصار.

" عن ابن أبى نجيح قال : سألت مجاهدًا: لم وضع عُمر على أهل الشام من الجزية أكثـر ممـا وضـع علـى الـيمن، فقـال: اليـسار" . حدد أبو يوسف في كتابه " الخراج " من تؤخذ مـنهم الجزيـة ومقـدارها فقال: " الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ممن في السواد [٨٩] وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان من اليهود والنـصارى والمجـوس والـصابئين والسامرة، ما خلا نصارى بني تغلب وأهل نجران خاصـة، وإنمـا تجـب الجزية على الرجال منهم دون النساء والصبيان. وعلـى الموسـر ثمانيـة وأربعون درهما، وعلى الوسط أربعة وعشرون، وعلى المحتـاج الحـراث

[٨٦] الماوردى: الأحكام السلطانية ص ١٣٨ .

[٨٧] أبو يوسف : الخراج ص ٦٩ .

[٨٨] المصدر السابق ص ٧٠ .

[٨٩] السواد: أراضى العراق الخصبة السوداء اللون .

العامل بيده اثنا عشر درهما، يؤخذ ذلك منهم في كـل سـنة، وإن جـاءوا بعرض قبل منهم، مثل الدواب والمتاع وغير ذلك، ولا يؤخـذ مـنهم فـي الجزية ميتة و لا خنزير و لا خمر".

وهذا النص لأبى يوسف، يدل على عدالة الجزية، وعلـى تـسامح المسلمين، فقد كانت الجزية على قدر دخل الفرد وكسبه، كما كـان يـدفعها الرجل البالغ القادر على العمل والكسب، وأعفي منها الـشيوخ والأطفـال والنساء والعجزة ورجال الدين، فكان الرجل إنما يؤدى الجزية عـن نفـسه وسائر أفراد أسرته التي يعولهم. كما كان يسمح بدفع الجزية عينـا، فكـان بعض أهل الذمة يؤدون جزءًا من إنتاجهم الزراعي أو الحيواني.

وأعفى المسلمون من الجزية كل من عجز عن تأديتها، بل كانت الدولة تعول كل ذمي عجز عن كسب رزقه بكده.فقال أبو عبيد فـي كتابـه (الأموال) [٩٠] . " ولو عجز أحدهم لحظة عن دينار لحط عنه ذلك، حتى لقد روى عنه أنه أي عمر بن الخطاب – أجرى على شيخ مـنهم مـن بيـت المال.وذلك أنه مر به شيخ وهو يسأل على الأبواب"

طريقة جمع الجزية وموعدها:

كانت الجزية تجمع مرة واحدة كل سنة بالشهور الهلالية [٩١] وكـان يسمح بدفع الجزية نقدًا أو عينًا، لكن لا يسمح بتقديم الميتة أو الخنزيـر أو الخمر بدلا من الجزية . وأمر عمر بن الخطاب بالتخفيف عن أهـل الذمـة

---

٩٠ الاموال ص ٤١ .

٩١ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٨ .

فقال:" من لم يطق الجزية خففوا عنه، ومن عجز فأعينوه، فإنا لا نريـــدهم لعام أو لعامين"[٩٢] وكانت الدولة الإسلامية كثيرا ما تـؤخر موعـد تأديــة الجزية حتى تنضج المحصولات الزراعية، فيستطيع أهل الذمة تأديتها دون أن يرهقهم ذلك، فقال أبو عبيدة[٩٣] وإنما وجه التأخير إلى الغلة للرفق بهم".

واتبعت الدولة الإسلامية الرفق والرحمة في جمع الجزية ، فقد قدم أحد عمال عمر بن الخطاب بأموال الجزية، فوجدها عمــر كثيــرة، فقــال لعامله: إني لأظنك قد أهلكتم الناس؟ فقال :لا، والله ، ما أخــذنا إلا عفــوا صفوًا.فقال عمر: بلا سوط، ولا نوط ؟ فقال: نعم.فقال عمر: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي و لا في سلطاني[٩٤].

تناول المستشرقون بالحديث مسألة ختم رقاب أهل الذمة، مما يجعلنا ندرس هذه المسألة دراسة علمية منهجية، حتى تتبين حقيقة الأمر. ويــستند هؤلاء المستشرقون فيما يقولون على ما جاء في المصادر العربية القديمـــة من أن عمر بن الخطاب بعث حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف إلى سواد العراق لجمع الجزية، وأنهما قالا:" ومن لم يأتنا فنختم في رقبته فقد برئــت منه الذمة [٩٥].

وهذا يجعلنا نتساءل: هل كان هذا الختم وقت جمع الجزية فحــسب، أم كان يتخذ صفة الاستمرار والدوام؟

---

[٩٢] ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق جـــ ١ ص ١٧٨.

[٩٣] الأموال ص ٤٤ .

[٩٤] أبو عبيدة: الأموال ص ٤٣ .

[٩٥] المصدر السابق ص ٥٢.

وذكر المؤرخ اليعقوبى[٩٦]. أنه كانت تختم وقال أهل الذمـــة وقـــت جباية جزية الرءوس ثم تكسر الخواتيم، وتستبدل بشارة تعلق حول الرقبـــة يقدمها عامل الجزية دلالة على دفع الجزية .

وناقش المؤرخ (ترتون) [٩٧]. هذه المسألة فقال: أما ما أشرنا إليه من ختم رقاب الذميين على الدوام فأمر مبالغ فيه تمام المبالغة. والحقيقة تتلخص في أن عمر بن الخطاب كان قد أنفذ لجمع خراج العراق فختما أعناق جميع الذميين(وهم مائة ألف وخمسون) ، وليس من الثابت تمامًا أن الخـــتم كـــان يتعلق بدفع الخراج، و لا يمكن للمرء أن يتصور دوام بقاء ختم الأعناق، إذ ليس بين أيدينا شاهد على استمراره، ويشير أبو يوسف إلى أن ختم الأعناق لم يكن يستعمل إلا عند جمع الجزية فحسب، وهذا نص ما يقوله : " ينبغـــي أن تختم رقابهم في وقت جباية جزية رءوسهم حتى يفرغ من عرضهم، ثـــم تكسر الخواتيم كما فعل عثمان بن حنيف حينما سألوه كسرها" [٩٨].

ويمضى (ترتون) في الدفاع عن العرب المسلمين فيقول: ومن الحق ألا نحمل العرب وزر هذا العيب، إذ لم يكونوا فيه بالبادئين والمبتدعين، بل كانوا مقلدين لما اصطنعه البيزنطيون قبلهم.

وهكذا يتفسح الموقف، فقد كان المسلمون يتبعون نفس السياسة التي اتبعها الرومان البيزنطيون في ختم الرقاب وقت تأدية الجزية، وهى ليـــست صورة لاضطهاد أو إذلال، ولكنها وسيلة لمعرفة وتمييز من أدى الـــضريبة ومن لم يؤدها، وخاصة أن الطباعة لم تكن قد ظهرت بعد وكان من العسير

---

[٩٦] تاريخ اليعقوبى حـــ ٢ ص ١٣٠.

[٩٧] أهل الذمة في الإسلام ص ١٣٢.

[٩٨] أبو يوسف: الخراج ص ٧٢ .

تدوين إيصالات واضحة ثابتة تثبت تأدية الجزية و لا يمكن تزييفها. ومــا زالت بعض الدول قي افريقية وآسيا في القرن العشرين تتبع هذه السياسة في الانتخابات، فيقومون بختم أيدي الناخبين بنوع من الأختام لا تزول إلا بعــد يومين أو أكثر، حتى لا يعطى الناخب صوته أكثر من مرة.

أحوال الإعفاء من الجزيـة :

كانت الجزية لا تجبى إلا من الذكور القادرين على العمل والكسب، و لا تجبى من النساء والصبيان، ويستثنى من أداء الجزية الــذي يتــصدق عليه، والشيخ الفقير الفاني الذي لا يستطيع العمل، كمــا أعفــي الأعمــى والأعرج والمريض الذي لا يرجى شفاؤه، والمغلوب على عقله إلا إذا كان من أصحاب اليسار، كما أعفي المنزهون الذين في الديارات، وأهل الصوامع إذا كانوا يعيشون على صدقات الموسرين، أما إذا كانوا قادرين على العمل أو كان لهم غنى أو يُسَّار أخذت منهم الجزية.

وأعفت الدولة الإسلامية كبار السن أو الضعفاء، بل كانت تعــولهم نرى هذا واضحا في رسالة الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز إلى عــدي ابن أرطأة عامله بالبصرة:" أما بعد، فان الله سبحانه إنمــا أمــر أن تؤخــذ الجزية ممن رغب عن الإسلام واختار الكفر عتيًا وخسرانًا مبينًــا. فــضع الجزية على من أطاق حملها، وخل بينهم وبين عمارة الأرض، فإن في ذلك صلاحًا لمعاش المسلمين وقوة على عدوهم .وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه، وضعفت قوته وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه. فلو أن رجلا من المسلمين كان له مملوك كبرت ســنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقرته حتي يفرق بينهما موت أو عتق. وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر- يقصد عمــر

ابن الخطاب- مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقـال: مـا أنصفناك، إن كنا أخذنا منك الجزية في شبابك ثم ضيعناك في كبـرك. ثـم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه" [٩٩] .

كان كل من اعتنق الإسلام يعفي من دفـع الجزيـة. فقـال قـال الرسول ﷺ:" ليس على مسلم جزية" .. ويذكر (أبو عبيد) [١٠٠]- هذا الحديث الشريف ثم يقول:" تأويل هذا الحديث أن رجلا لو أسلم في آخر السنة، وقـد وجبت عليه الجزية أن إسلامه يسقطها عنه فلا تؤخذ منه، وإن كانـت قـد لزمته قبل ذلك. لأن المسلم لا يؤدى الجزية و لا تكون دينًا عليـه، كمـا لا تؤخذ منه فيما يستأنف بعد الإسلام. وقد روى عن عمر، وعلي، وعمر بن عبد العزيز ما يقوي هذا المعنى"

أسلم رجل غير عربي، ولكن الوالي كان يأخذ منه الجزيـة، فقـدم على عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين ، أنى أسلمت، والجزية تؤخذ منى . فقال عمر أما أسلمت متعوذا. فقال : أما في الإسلام ما يعيذني؟ فقال عمر: بلى أن لا تؤخذ منه الجزية وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته "من شهد شهادتنا، واستقبل قبلتنا، واختتن ، فلا تأخذوا منه الجزية [١٠١] .

وقال عمر بن عبد العزيز: ليس على من مات ولا من ابق جزيـة ويفسر(أبو عبيدة) [١٠٢][١٠٣]هذا القول فيقول :لا تؤخذ من ورثه بعد موتـه،

---

[٩٩] الاموال ص٣٦ .

[١٠٠] الخراج ص ١٣١ .

[١٠١] أبو عبيد : الاموال ص ٤٨ .

[١٠٢] المصدر السابق

[١٠٣] الطبرى حـ ٢ ص ٢٥

ولا يجعلها بمنزلة الدين،ولا من أهله إذا هرب عنهم منها،لأنهم.لم يكونوا ضامنين لذلك .

كان كل من يعتنق الإسلام من أهل الجزية طوال حكم الخلفاء الراشدين و الأمويين حتى فترة حكم الحجاج ترفع عنه الجزية وسار الخلفاء على سيرة عمر بن الخطاب، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي أول من أبقى الجزية على من أسلم، فقد لاحظ أن عددًا كبيرا من أهل الذمة قد أعتنق الإسلام وأسرعوا إلى سكنى المدن، ولذا أمر بعدم إعفائهم من الجزية وإعادتهم إلى قراهم بالقوة [١٠٤]

أما الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز فقد أمر برفع الجزية عن من أسلم. و اختلف المؤرخون المحدثون في تقدير ما فعله عمر .فيرى المؤرخ العربي المسيحي المعاصر الدكتور فيليب متى[١٠٥]أن سياسة عمر قد أضرت بيت المال ضررًا كبيرًا .ويرى (فان فلوتن) [١٠٦]أن إصلاحات عمر ناقصة، فقد أيقظت آمالا لم تستطع الحكومة تنفيذها،بل أدت إلى الفوضى المالية،بعد موت عمر . ويرى(فلهوزن) [١٠٧]أن عمر لم ينجح في سياسته المالية، بل أدت هذه السياسة إلى الانحطاط المالي .أما (دوزى) فإنه يتهم عمر ويدافع عنه في نفس الوقت، فيرى أن سياسة عمر أدت إلى ارهاق بيت المال، كما دفعت بكثير من أهل الذمة إلى التظاهر باعتناق الإسلام

---

[١٠٤] متى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٢٨٥ .

[١٠٥] السيادة العربية ص ٥٨

[١٠٦] نظرات في تاريخ الإسلام ص ١٢١ .

فرارًا من الجزية ، ثم يدافع (دوزى)عن عمر فيقول أنه كان مسلمًا ورعًـا تقيًّا وآثر نصرة الإسلام على أي شيء آخر .

هذه نماذج لآراء المستشرقين، ذكرناها لنـرى أسـاليب معـالجتهم للتاريخ الإسلامي، ولنستطع الرد عليها . والحقيقة أن عمر بن عبد العزيـز كان يتبع تعاليم الإسلام وأحكامه حرفيًا وكان يساوي في المعاملة بين جميع رعاياه، من مسلمين وغير مسلمين فقد كتب إلى عامله بالكوفة "و أهل الذمة فإننا لا نريدهم لسنة أو لسنتين "[١٠٨] .

ولم يرض كثير من المسلمين عن سياسة بعض الأمويين في أخـذ الجزية ممن أسلم، وعبر أحدهم ، وهو يزيد بن حبيب عن رأيهم فقال :أعظم ما أتت هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، ثلاث خصال: قـتلهم عثمـان، وإحـراقهم الكعبة، وأخذهم الجزية من المسلمين[١٠٩] فرضت الجزية كما ذكرنا علـى القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يطالبون بأدائها لـو كانوا مسلمين، ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانـت تقـيم بجـوار أنطاكية، سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عونًا لهم وأن تقاتل معهم فـي مغازيهم، على شريطه أن تؤخذ بالجزية، وان تعطى نصيبها من الغنـائم. ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس في سنة٢٢ هجرية أبرم مثل هذا الحلف مع أحد القبائل التي تقيم على حدود هذه البلاد، وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية[١١٠] .

---

[١٠٨] ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٧

[١٠٩] أبو عبيد : الأموال ص ٤٩ .

[١١٠] أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٨٠ .

المجوس وأداء الجزية

اختلف المؤرخون والفقهاء الأقدمون في اعتبار المجوس من أهل الذمة فالماوردي [111] يذكر أن "أهل الكتاب هم اليهود والنصارى وكتابهم التوراة والإنجيل، ويجرى المجوس مجراهم في أخذ الجزية منهم وإن حرم أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم. وتؤخذ من الصائبة والسامرة إذا وافقوا اليهود والنصارى في أصل معتقدهم".ويؤكد البلاذرى[112]أن المجوس من أهل الكتاب، فيروى أن عمر بن الخطاب جلس إلى بعض صحابة الرسول فقال: ما أدرى كيف أصنع بالمجوس؟ فوثب عبد الرحمن بن عوف فقال: أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال : "سنوا بهم سنة أهل الكتاب " . أما الشهرستاني [113] فذكر أن المجوس لهم شبهة كتاب، ولكن الثابت تاريخيًا أن الرسول صالح مجوس أهل هجر على أن يأخذ منهم الجزية[114] فذكر أبو عبيد[115] :"كتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر، يدعوهم إلى الإسلام، فمن أسلم قبل منه ومن لا ضربت عليه الجزية، على أن لا تؤكل له ذبيحة ولا تنكح له امرأة. كما صالح الرسول أهل البحرين ومعظمهم من المجوس، وأمر عليهم العلاء بن الخضرمي، وبعث أبا عبيدة بن الجراح ليجمع الجزية منهم".

روى أبو يوسف: " عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر أخذوا الجزية من المجوس . قال علي كرم الله وجهه:

---

[111] الأحكام السلطانية ص ١٣٧ .

[112] فتوح البلدان ص ٢٧٦ .

[113] الملل والنحل جـ ١ ص ٨٤ .

[114] أبو يوسف: الخراج ص ٧٤ .

[115] الأموال ص ٢١ .

وأنا أعلم الناس بهم ، كانوا أهل كتاب يقرأونه، وعلم يدرسونه فنـــزع مـــن صدورهم[1] .

وكان أخذ الجزية من المجوس واعتبارهم من أهل الكتـــاب ســـببًا لإثارة كثير من الجدل والنقاش، فروى أبو يوسف (١١٦) : أن فروة بن نوفل الأشجعي قال: إن هذا لأمر عظيم، يؤخذ من المجوس الجزية وليسوا بأهـــل كتاب ؟ فقام إليه المستور بن الأحنف فقال، طعنت على رسول ﷺ، فتب وإلا قتلتك والله. وقال قد أخذ رسول الله ﷺ من مجوس أهل هجر الجزية، قـــال: فارتفعنا إلى علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، فقال ســـأحدثكما بحـــديث ترضيانه جميعًا عن المجوس: أن المجوس كانوا أمة لهم كتاب يقرأونه، وأن ملكًا لهم شرب حتى سكر فأخذ بيد أخته فأخرجهما من القرية واتبعه أربعة رهط فوقع عليها وهم ينظرون إليه، فلما أفاق من سكره قالت له أخته انـــك صنعت كذا وكذا وفلان وفلان ينظرون إليك. فقال: ما علمت بذلك. فقالت: فإنك مقتول و نجاة لك إلا أن تطيعني.قال: فإني أطيعك. قالت: فاجعل هـــذا دينا وقل هذا دين آدم، وقل حواء من آدم، وادع الناس إليه واعرضهم على السيف فمن تابعك فدعه ومن أبى فاقتله ففعل. فلم يتابعه أحد فقاتلهم يومئـــذ حتى الليل. فقالت له: إني أرى الناس قد اجترءوا على السيف وهـــم علـــى النار لكع فأوقد لهم نارًا ثم اعرضهم عليها. ففعل فهاب الناس النار فتابعوه. قال على بن أبى طالب رضي الله تعالى عنه: فأخذ رسول الله ﷺ الخـــراج لأجل كتابهم وحرم مناكحتهم وذبائحهم لشركهم).

---

١١٦ الخراج ص١٢٩ .

وكان هناك من المسلمين من يرى أن المجوس ليسوا من أهل الذمة فلا يجوز أخذ الجزية منهم. فروى أبو عبيد[١١٧] أن أبا موســى الأشــعرى قال: لولا أنى رأيت أصحابي يأخذون من المجوس الجزية ما أخذتها. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله: ما بال من مضى من الأئمــة قبلنــا أقروا للمجوس على نكاح الأمهات والبنات؟ وذكر أشياء مــن أمــرهم قــد سماها. فكتب إليه الحسن: أما بعد فإنما أنت متبع ولــست بمبتــدع وكتــب عمرو بن الحارث إلى ربيعة بن عبد الرحمن يسأله عن المجوس: وكيــف يثبت عليهم الجزية؟ وكيف تركوا مشركي العرب؟ فكتبْ ربيعة: قد كان لك في أمر من قد مضى ما يغنيك عن المسألة عن مثل هذا.

ظل الولاة الأمويون يجمعون الجزية من المجوس مثل سائر أهــل الذمة، وقد حفظ أبو يوسف [١١٨] لنا خبر أخذ عدي بن أرطأة عامل الخليفــة عمر بن عبد العزيز في العراق الجزية من المجوس .

تحدث ترتون [١١٩] عن معاملة المسلمين للمجــوس فقــال: كــان المسلمون في حيرة شديدة بشأن الطريقة التي يتبعونها في معاملة المجوس، رغم أن النبي ﷺ قد حسم الموضوع بما قال وبما رواه عنه عبد الرحمن بن عوف. والواقع أن المجوس كان عددهم كبيرا، وكــانوا يعــاملون معاملــة الشعوب المعاهدة، وذلك أن العهود التي أعطيت لهم أباحــت لهــم مطلــق الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية ، ولم يكن ذلك مجرد حبر على ورق. والواقع أن معابد المجوس لم تلق في بداية الأمر أكثر ممــا كانــت تلقــاه

[١١٧] الأموال ص٣٦ .

[١١٨] الخراج ص ١٣١ .

[١١٩] أهل الذمة في الإسلام ص ١٠٢ .

الكنائس، وإن نظر الناس إلى المجوس على أنهم دون بقية الذميين مكانــة، فكانت دية القتيل المجوسي النقدية أقل بكثير من دية سواه من الذميين، كما حرم على المسلم الزواج فيهم أو أكل لحم حيوان ذبحته أيديهم .

والحقيقة أن الدولة الإسلامية كانت في سياستها تخطط لأعوام كثيرة مديدة، وهى وإن تركت المجوس بعد الفتوحات الإسلامية على دينهم، فقــد كانت تعلم أن الجيل الثاني أو الثالث من المجوس ســيقبل علــى اعتنــاق الإسلام، وقد حدث هذا فعلاً، فقد تناقص عدد المجوس علــى مــر الــسنين تناقصًا ملحوظًا، واعتنقت الغالبية العظمى منهم العقيدة الإسلامية.

عهود عمر وأهل الذمة :

صالح عُمر بن الخطاب أهالي حمص على أن " يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنيستهم وأرجائهم، واستثنى عليهم ربــع كنيــسة يوحنا للمسجد، واشترط الخراج على من أقام منهم"[١٢٠] وجاء في عهد عمر لأهل القدس أنه "أعطاهم الأمان لأنفسهم وأمــوالهم ولكنائــسهم وصــلبانهم وسقيمهم وبريئهم : أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم، و لا ينتقص منها ولا من حيزها و لا من صليبهم و لا شيء من أموالهم، و لا يكرهــون علــى دينهم، و لا يضار أحد منهم،ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.. ومــن أحب من أهل إيلياء يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم .. ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شــيء حتــى يحــصد حصادهم " [١٢١]

١٢٠ البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٣١ .

١٢١ الطبري حـــ ٣ ص ٢١٠

دارت مفاوضات بين عمر بن الخطاب وقائده أبى عبيدة بن الجراح من جانب ، وبين البطريرك قسطنطين من جانب آخر، وتم الاتفاق على أن يدفع الميسر ثمانية و أربعين درهما، ويدفع متوسط الحال أربعة وعـــشرون درهما، ويدفع فقير الحال اثنى عشر درهما، واشترط عمر على المسيحيين " ألا يحدثوا كنيسة" و لا يرفعوا صليبًا بين ظهراني المسلمين ، و لا يضربوا ناقوسًا إلا في جوف الكنيسة ، وعلى أن تشاطرهم منـــازلهم فيـــسكن فيهـــا المسلمون، وعلى أن يقروا ضيوفهم ثلاثة أيام وثلاث ليال، وعلى أن يحملوا راجلهم من رستاق إلى رستاق، وعلى أن يناصحوهم و ألا يغشوهم ، وعلى أن لا يتمالوا مع عدو لهم ، وإلا استحللنا ســفك دمـــائهم وســـبي أبنـــائهم ونسائهم، لهم بذلك عهد الله وعقده وذمة المسلمين"

وبعث المسيحيون برسالة إلى عمر بن الخطاب يتعهدون فيها ببعض الأمور مقابل الأمان والحماية وأن يصبحوا في ذمة العرب المسلمين، وجاء في هذه الرسالة:" أنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وأهالينا وأموالنا وأهل ملتنا، على أن نؤدي الجزية عن يد ونحن صاغرون، وعلى ألا نمنع أحدا من المسلمين أن ينزل كنائسنا في الليل والنهار، وأن نضيفهم فيها ثلاثا، ونطعمهم الطعام، ونوسع لهم أبوابها، و لا نضرب فيها بالنواقيس إلا ضربا خفيفا، و لا نرفع فيها أصواتنا بالقراءة، و لا نؤدي فيها و لا شـــيء مـــن منازلنا جاسوسًا لعدوكم، و لا نحدث كنيسة و لا ديـــرًا و لا صـــومعة ولا قلاية، و لا نجدد ما خرب منها، و لا نقصد شركًا و لا نـــدعوا إليـــه، و لا نظهر صليبًا على كنائسنا و لا في شيء من طرق المسلمين و أســـواقهم ، ونتعلم القرآن، ولا نعلمه أولادنا، و لا نمنع أحدًا من ذوى قربانا من الدخول في الإسلام إذا أراد ذلك، وأن نجز مقادم رءوســـنا ونـــشد الزنـــانير فـــي أوساطنا، ونلزم ديننا، و لا نتشبه بالمسلمين في لباسهم و لا في هيئتهم و لا

في سلوكهم و لا في نقش خواتيمهم فننقشها نقشاً عربيًا، ولا نكتني بكنـــاهم، وعلينا أن نعظمهم ونوقرهم، ونقوم لهم من مجالسنا، ونرشدهم في ســـلبهم وطرقاتهم، و لا نطلع في منازلهم، و لا نتخذ سلاحًا ولا سيفًا، و لا نحملـــه في حضر و لا سفر في أرض المسلمين، و لا نرفع أصواتنا في جنائزهم، و لا نجاوز المسلمين بهم، و لا نضرب أحدًا من المسلمين، و نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهامهم، اشترطنا ذلك كله على أنفسنا وأهل ملتنا، فإن خالفنا فلا ذمة لنا ولا عهد . وقد حل لكم من ما يحل لكـــم مـــن أهـــل الـــشقاق والمعاندة" [١٢٢]

وحدد الخليفة عمر بن الخطاب الأمور التي تفقد أهل الذمة ما تعهد المسلمون به لهم من حرية وتسامح وحماية وأمان، فكتب عمر لأحد بطارق المسيحيين: " لك ولهم عليَّ وعلى جميع المـــسلمين الأمـــان مـــا اســـتقمت واستقاموا بجميع ما أخذنا عليكم، وذلك أن يجرى عليكم حكم الإسلام، و لا حكم خلافه بحال ما يلزمكم، و لا يكون لكم أن تمتنعوا منه في شيء رأيناه فنلزمكم به، وعلى أن أحدًا منكم إن ذكر محمدا ﷺ أو كتاب الله عز وجل أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به فقد برئت منه ذمة الله ثم ذمة أمير المـــؤمنين ماله ودمه كما تحل أموال الحرب ودماؤهم، وعلى أن أحدًا من رجـــالهم إن أصاب مسلمة بزنا، أو قطع الطريق على مسلم، أو فتن مسلما عن دينه، أو أعان المحاربين على المسلمين بقتال، أو بدلالة على عورة المسلمين وإيواء لعيونهم، فقد نقض عهده، وأحل دمه وماله، وإن نال مسلمًا بما دون هنا في ماله أو عرضه، أو نال به من مسلم فمنعه من كافر له عهد أو أمان لزمـــه فيه الحكم".

[١٢٢] ابن عساكر: تاريخ دمشق جـــ ١ ص ١٧٨ .

ومضى الخليفة عمر في تحديد الحقوق والواجبات، وأصبحت هــذه الرسالة دستورًا صريحًا واضحًا محددًا يتبعه كل من الولاة المسلمين وأهــل الذمة، فكتب عمر:" وعلى أن تتبع أفعالكم في كل ما جــرى بيــنكم وبــين المسلم، فما كان لا يحل لمسلم مما لكم فيه فعل رددناه وعاقبناكم عليه، وذلك أن تبيعوا مسلما بيعًا حرًا ما عندكم من خمر أو خنزير أو دم ميتة أو غيره. ونبطل البيع بينكم فيه، ونأخذ ثمنه منكم إن أعطاكموه. و لا نرده عليكم إن كان قائمًا، ونريقه إن كان خمرًا أو دما،ونحرقه إن كان ميتة، وان استهلكه لم نجعل عليه فيه شيئا ونعاقبكم عليه،وعلى ألا تسقوه أوْ تطعموه محرمًا، أو تزوجوه منكم أو بنكاح فاسد عندنا وما بايعتم به كافرًا منكم أو من غيركم لم نتتبعكم فيه ولم نسألكم عنه ما تراضيتم به، وإذا أراد البائع منكم أو البتاع نقض البيع وأتانا طالبًا له فإن كان منتقضًا عندنا نقضناه ، وان كان جــائزا أجزناه، إلا أنه إذا قبض المبيع لم يرده لأنه بيع من مشركين "

وبعد أن انتهى عمر في هــذه الرســالة مــن تحديــد المعــاملات الاقتصادية، تعرض للمسائل القضائية فقال:" ومن جاءنا منكم أو من غيركم من أهل الكفر ويحاكمكم أجريناكم على حكم الإسلام، ومن لم يأتنا لم نعرض لكم فيما بينكم وبينه، وإذا قتلتم مسلمًا أو معاهدًا منكم أو من غيــركم خطــأ فالدية علٰى عواتقكم كما تكون على عواتق المسلمين، وإن قتل منكم رجل بلا قرابة فالدية عليه في ماله، وإذا قتله عمدًا فعليــه القــصاص، إلا أن تــشاء ورثته دية فيأخذونها، و من سرق منكم فرفعه المسروق إلى الحاكم قطعــه، إذا سرق ما يجب فيه القطع وغرم، و من قذف وكان للمقذوف حد له، وان لم يكن له حد عزر، حتى تكون أحكام الإسلام جارية عليكم بهذه المعــاني فيما سمينا وما لم نسم " .

ثم انتقل عمر إلى تحديد المظاهر الاجتماعية وسلوك أهل الذمة في المجتمع، وأراد عمر أن يحتفظ العرب المسلمون بطابعهم الاجتماعي، كمـــا يكون لأهل الذمة صفتهم الاجتماعية، فكتب عمر: " ليس لكـــم أن تظهـــروا الصليب في شيء من أمصار المسلمين، و ألا تعلنوا الـــشرك، و لا تبنـــوا كنيسة و لا موضع مجتمع لصلاتكم، و لا تضربوا بناقوس، و لا تظهـــروا لأحد من المسلمين قولكم بالشرك في عيسى ابن مـــريم و لا فـــي غيـــره، وعليكم أن تلبسوا الزنانير من فوق جميع الثياب والأردية وغيرها حتـــى لا تخفي الزنانير، وتخالفوا المسلمين بسرجكم وركـــوبكم، وتبـــاينوا قلانـــسكم وقلانسهم بعلم تجعلونه بقلانسكم، و ألا تأخذوا علـــى المـــسلمين ســـروات الطريق و لا المجالس في الأسواق".

ثم تحدث عمر في رسالته عن الواجبات المادية، وما يدفعـــه أهـــل الذمة من جزية، كما ترك لأهل الذمة حريـــة التنقـــل بـــين مـــدن الدولـــة الإسلامية، عدا مكة باعتبارها المدينة المقدسة، ولهم أن يقيموا في أي مدينة إسلامية ،ما عدا مدن الحجاز فلا يقيموا فيها أكثر من ثلاث ليـــال، فكتـــب عمر:" وأن يؤدى كل بالغ من أحرار رجالكم غير مغلوب على عقله جزيـــة رأسه، دينارًا مثقالاً جيدًا في رأس كل سنة، و لا يكون له أن يغيب عن بلده حتى يؤديه أو يقيم به من يؤديه عنه، وان افتقر منكم فجزيته عليـــه حتـــى تؤدى، وليس الفقر بدافع عنكم شيئا، و لا ناقص لذمتكم عمـــا بهـــا، فمتـــى وجدنا عندكم شيئا أخذتم به، و لا شيء عليكم في أموالكم سوى جزيتكم مـــا أقمتم في بلادكم واختلفتم ببلاد المسلمين غير تجار. وليس لكم دخول مكـــة بحال ما، وان اختلفتم بتجارة- على أن تؤدوا من جميع تجارتكم العشر إلى المسلمين- فلكم دخول جميع بلاد المسلمين إلا مكة ، والمقام بجميـــع بـــلاد

المسلمين كما شئتم إلا الحجاز فليس لكم المقام ببلد منها إلا ثلاث ليال حتى تظعنوا منه ".

وحدد عمر في رسالته من يعفيهم المسلمون من دفع الجزية فقـــال:" ومن نبت الشعر منكم تحت ثيابه أو أحتلم أو استكمل خمس عشرة سنة قبل ذلك، فهذه الشروط لازمة إن رضيها، فإن لم يرضها في عقد له، و لا جزية على أبنائكم الصغار، و لا على صبى غير بالغ، ولا على مغلوب على عقله و لا مملوك، فإذا أفاق المغلوب على عقله وبلغ الصبي وعتق المملوك منكم فعليه مثل جزيتكم، والشرط عليكم وعلى من رضيه، ومن سخطه منكم نبذنا إليه".

ثم تحدث عُمر عن حقوق أهل الذمة، وما يتعهد به المسلمون مـــن نحوهم فقال:" ولكم أن نمنعكم – وما يحل ملكه عندنا لكم – ممن أرادكم من مسلم أو غيره بظلم بما نمنع به أنفسنا وأموالنا ونحكم فيه على مـــا جـــرى حكمنا عليه بما تحكم به في أموالنا، وما يلزم الحكم في أنفسكم فليس علينـــا أن نمنع لكم شيئًا ملكتموه محرمًا من دم و لا ميتة و لا خمر ولا خنزيـــر، كما نمنع ما يحل ملكه، ولا نعرض لكم فيه إلا أن لا ندعكم تظهرونه فـــي أمصار المسلمين، فما ناله منه مسلم أو غيره لم نغرمه ثمنه لأنه محرم و لا ثمن لمحرم، ونزجره عن العرض لكم فيه، فإن أعاد أُدب بغير غرامة فـــي شيء منه".

وختم عمر رسالته بقوله:" وعليكم الوفاء بجميع ما أخذناه علـــيكم، وألا تغشوا مسلمًا، ولا تظاهروا عدوكم عليهم بقول و لا فعل، ولكم عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمة المسلمين بالوفاء لكم، وعلى من بلغ مـــن أبنائكم: ما عليكم بما أعطيناكم ما وفيتم بجميع ما شرطنا عليكم، ومن غاب

عن كتابنا ممن أعطيناه ما فيه فرضيه إذا بلغه فهذه الشروط لازمة له ولنـــا فيه، ومن لم يرض نبذنا إليه" (١٢٣)

علق المؤرخ(ترتون) على هذه الشروط التي وردت في عهود عمر، ومدى وضعها موضع التنفيذ على مر العصور الإسلامية، فقال: مفــروض على الذمي- من الناحية النظرية- مراعاة جميـــع شـــروط العهــد إذا أراد الحماية، أما الواقع فثمة مسائل قليلة تصرف عنه حماية القانون الإســـلامي، وإن لم يتفق الفقهاء اتفاقًا تامًا على ماهية تلك المـــسائل وموضـــوعاتها.إذ يذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل للقول بأن امتناع الـــذمي عـــن دفــع الجزية بمنع المسئولين من حمايته، ويخالفهم في ذلك الــرأي أبـــو حنيفـــة، ويرى أحمد ومالك أن هناك أربعة أمور تجعل الذمي بريئا من ذمة الشرع، هي الكفر بالله وذكره بما لا يليق بجلاله، أو ذكر كتابه أو دينه أو رسوله بما لا ينبغي، وإذ ذاك ينتقض عهده، سواء اشترط ذلك أو لم يشترط،على حين أن ابن القاسم (١٢٤) قال ثمانية تنقض عهد الذميين هي أن يجمعوا على قتال المسلمين، أو يزني أحدهم بمسلمة، أو يصيبها باسم نكاح، أو يفتن مسلمًا عن دينه، أو يقطع على السلم الطريق، أو يؤوى للمشركين جاسوسا، أو يعـــين على المسلمين بدلالة فيكاتب المشركين بأخبار المسلمين، أو يقتل مـــسلمًا أو مسلمة عمدًا. وينصح أبو حنيفة بعدم المبالغة في القسوة على الذميين الـــذين ينالون من الرسول، ويقول الشافعي أن العفو جائز على النادم وحينذاك يرد له اعتباره، وإن يكن ابن تيمية قد ذهب إلى وجوب قتل مثل هذا الشخص.

---

١٢٣ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٨ .

١٢٤ انظر كتاب الميزان للشعراني جــ ٢ ص ١٦٢

ملابس أهل الذمة:

من المسائل التي تناولها المستشرقون بالنقد، ما فرضـــه كـل مـــن الخليفتين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز من قيود تتناول ملابـــس أهل الذمة وبعض المسائل الشكلية. وهم يعتمدون على ما ذكره مؤرخ واحد هو (أبو يوسف)فأشار المستشرقون إلى أن عمر بن الخطاب قد حدد أنـــواع الملابس وطريقة ركوب أهل الذمة، فاشترط عليهم لبس الزنار، ونهاهم عن التشبه بالمسلمين في ثيابهم وسروجهم ونعالهم، وأمـــرهم أن يجعلـــوا فـــي أوساطهم الزنارات، وأن تكون قلانسهم مضربة، وأمر عمر بمنع نساء أهل الذمة من ركوب الرحائل[١٢٥] .

ويتجاهل بعض المستشرقين- كعادتهم- علـــى الخليفـــة الأمـــوي عمر بن عبد العزيز، فيصفه (جولد تسهير) بالخليفة المتعـــصب، ويـــذهب (وليم ميور) [١٢٦] إلى أن غيرة عمر على الإسلام هي التـــي دفعتـــه إلـــى اضطهاد النصارى واليهود، فكتب عمر إلى عدي بن أرطأة عاملـــه علـــى العراق: " مُروا من كان على غير الإسلام أن يـــضعوا العمـــائم، ويلبـــسوا الأكسية، و لا يتشبهوا بشيء من الإسلام، و لا تتركوا أحـــدا مـــن الكفـــار يستخدم أحدا من المسلمين" . وكتب عمر رسالة أخرى جاء فيها: " لا يركب نصراني سرجًا، و لا يلبس قباء و لا طيلسانا ولا سراويل ذات خدمته، ولا يمشين بغير زنار من جلد، و يمشى إلا مفروق الناحية، و لا يوجد في بيت

---

[١٢٥] أبو يوسف: الخراج ص ٧٢-٧٣ .

[١٢٦] ابن عبد ربه: العقد الفريد حـــ ٤ ص ٤٣٦ .

نصراني سلاح إلا أخذ" [١٢٧]. وأمر عمر بعزل أهل الذمة مــن وظــائف الدولة. كما أمر عمر أهل الذمة بأن يفسحوا المجال للمسلمين في الطرقــات وأماكن الاجتماع، وحتم عليهم أن يحملوا شعارًا معينًا على أكتافهم، يكــون لونه أزرق للمسيحيين وأصفر لليهود، وأسود أو أحمر للمجوس، ويجب أن تكون بيوتهم أقل ارتفاعًا من بيوت المسلمين، كما كان عمر يــصر علــى التحاق الذميين بالجيوش الإسلامية .

هذه هي المسائل التي سلط المستشرقون الأضواء عليها للإساءة إلى الخليفتين العادلين اللذين اشتهرا بالعدل والتسامح، بل أن عمــر بــن عبــد العزيز يعتبره المؤرخون الخليفة الراشد الخامس وقد استند المستشرقون في هذه الأمور إلى كتاب واحد، هو كتاب (الخراج) لأبى يوسف، ولكننا لا نجد مثل هذه الأوامر والنواهي في كتب المؤرخين الأقدمين الموثوق بهم مثــل الطبري أو البلاذرى أو ابن الأثير واليعقوبي وغيرهم، نجد عهود عمر في كتب هؤلاء المؤرخين القدامى خلوا من هذه الشروط وهذا التحديد للملابس، مما يهدم كل ما ذهب إليه المستشرقون.

وقد ناقش المؤرخ(ترتون) [١٢٨] هذه المسألة فقال: من الشروط التي اشترطها عهد عمر على الذميين لبس الزنار والنهي عن التشبه بالمــسلمين في ثيابهم وسروجهم التي يستعملونها، وينسب أبو يوسف(المتوفى سنة ٢٥٧ هــ) هذه الأوامر إلى عمر بن الخطاب، على حين أن ابن الحكم المتــوفى سنة ٢٥٧هــ يقرر أن الخليفة أمر النصارى بلبس(المنطقة) وجــز مقــادم شعورهم. أما العهود الواردة في الطبري والبلاذرى فقد خلت من الإشـــارة

[١٢٧] ابن الجوزى: ساقب عمر بن عبد العزيز ص ٦٣ .

[١٢٨] أهل الذمة في الإسلام ص ١٢٢ .

إلى الملابس، وإذا ذهبنا إلى ما يذهب إليه المستشرق الإيطالي (كايتانى) من أن هذه العهود قد وضعت فيما بعد، كما هو الحال إزاء العهد لبيت المقدس، فإن خلو هذه العهود من الإشارة إلى الملابس يدفع الإنسان للشك القوي في حقيقة إصدار عمر لهذه الأوامر.

ونحن نرى أنه لو افترضنا جدلاً حقيقة هذه الأوامر الصادرة عن الخليفتين، فقد كان هذا لا غبار عليه، فهو نوع من تحديد للملابس في نطاق الحياة الاجتماعية، للتمييز بين أصحاب الأديان المختلفة، وخاصة أننا في وقت مبكر من التاريخ، ليس فيه بطاقات تثبت الشخصية، وما تحمله عادة مثل هذه البطاقات من تحديد الجنسية والدين والعمر وغير ذلك. فقد كانت الملابس المتميزة هي الوسيلة الوحيدة لإثبات دين كل من يرتديها، وكان للعرب المسلمين ملابسهم، كما للنصارى أو اليهود أو المجوس ملابسهم أيضًا، وإذا كان المستشرقون قد اعتبروا أن تحديد شكل ولون الثياب هو من مظاهر الاضطهاد، فنحن نقول لهم أن الاضطهاد في هذه الصورة يكون قد لحق بالمسلمين وأهل الذمة على السواء. وإذا كان الخلفاء ينصحون العرب والمسلمين بألا يتشبهوا بغيرهم، فمن المنطقي أن يأمروا غير العرب وغير المسلمين بألا يتشبهوا بالعرب المسلمين . وناقش المؤرخ (ترتون) [١٢٩] هذه المسألة أيضًا وأبدى رأيه فيها فقال: كان الغرض من القواعد المتعلقة بالملابس سهولة التمييز بين النصارى والعرب، وهذا أمر لا يرقى إليه الشك، بل نراه مقررًا تقريرًا أكيدًا عند كل من أبى يوسف [١٣٠] وابن عبد الحكم [١٣١] وهما من أقدم الكتاب الذين وصلت كتبهم إلينا، على أنه يجب

---

[١٢٩] المصدر السابق

[١٣٠] أبو يوسف: الخراج ص ٧٢.

[١٣١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥١ .

أن نلاحظ أنه لم تكن ثمة ضرورة وقت الفتح لإلزام النصارى بلبس نـــوع معين من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون، إذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة، وكان النصارى يفعلون ذلك من تلقاء أنفـــسهم دون جبـــر أو إلزام ، على أن الحاجة استلزمت هذه الفروض فيما بعد حين أخـــذ العـــرب بحظ من التمدن، إذ حمل الإغراء الشعوب الخاضعة لهم على الاقتداء بهـــم في ملابسهم والتشبه في ثيابهم.

ومهما كان الرأي، فإن كانت هذه الأوامر التي تحدد أنواع وأشـــكال الملابس حقيقية، فإنها لم توضع موضع التنفيذ في معظم العصور التاريخية وهناك فرق بين وجود القانون ومدى تطبيق هذا القانون، فقد انتهج معظـــم الخلفاء والولاة المسلمين سياسة تسامح وإخاء ومساواة، ولم يتدخلوا كثيـــرا في تحديد ملابس أهل الذمـــة، ولـــم ترتفـــع أصـــوات مطلقـــا بالـــشكوى أو الاحتجاج .

وهناك أدلة تاريخية تثبت هذه الحقائق التي ذكرناهـــا، فقـــد كـــان الأخطل الشاعر النصراني (المتوفى سنة ٩٥ هـــ) يدخل على الخليفة عبـــد الملك بن مروان وعليه جبة وحرز من الخز وفي عنقه سلسلة بها صـــليب من الذهب، وتنعض لحيته خمرا [١٣٢] - ويحسن الخليفة استقباله . كمـــا أن الاتفاقية التي وقعها المسلمون في سنة ٩٨ هـــ مع (الجراجمة) المـــسيحيين الذين يسكنون المناطق الجبلية من بلاد الشام تضمنت النص على أن يلـــبس الجراجمة لباس المسلمين [١٣٣] .

[١٣٢] الأصفهاني: الأغاني جـــ ٧ ص ١٦٩

[١٣٣] البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦١ .

تحدث أبو يوسف عن لباس أهل الذمة وزيهم فقال:" لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه و لا في هيئته" واعتمد أبو يوسف في تفسير ذلك على قول عمر بن الخطاب:" حتى يعرف زيهم من زى المسلمين " أي أن لا اضطهاد في الأمر، إنما هي وسيلة اجتماعية للتميز، مثلما نرى اليوم في كل مجتمع حديث من تعدد الأزياء، لكل طائفة أو أصحاب حرفة أو مهنة زي واحد يميزهم .

ويعلق المؤرخ (آدم متز) [١٣٤] على ما يعيبه بعض المستشرقين على المسلمين من أنهم كانوا يختمون على رقاب أهل الذمة عند دفع الجزية فيقول:" ويظهر أن هذا الأمر نادرًا ما كان يقع" كما يذكر (متز) أيضًا أن هذه العادة قديمة ترجع إلى عصر الأشوريين الذين كانوا يعلقون في رقاب العبيد قطعة من الفخار أسطوانية مكتوبًا عليها اسم العبد واسم سيده، وكان اليهود في عهد التلمود يعلمون عبيدهم بالختم على الرقبة أو الثوب .

قواعد فقهية في التزاوج والقضاء والارتداد والمواريث والتجارة :

لم يكن هناك تزاوج بين المسلمين والكتابيات على نطاق واسع، وذلك لأن القانون المسيحي لم يكن يجيز للمرأة النصرانية أن تتزوج بغير نصراني، لئلا تنتقل هي وأولادها إلى غير المذهب، و لا كان يجوز للنصراني بحسب قانون الكنيسة أن يتزوج بغير نصرانية إلا رجاء إدخالها هي وأولادها في النصرانية .

---

[١٣٤] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ ١ ص ٨١ .

أما زواج المسيحي من مسلمة محرمًا ومستحيلا. فكانت الدولة الإسلامية تضمن ككل ديانة من ديانات أهل الذمة كيانها الخاص. فكان لا يجوز للمسيحي أن يتهود، ولا لليهودي أن يتنصر، و لا يكون تغيير الدين إلا إذا كان ذلك دخولا في الإسلام، ولم يكن النصراني يرث اليهودي ولا العكس، كما لم يكن اليهودي أو النصراني يرث المسلم و لا المسلم غير المسلم يهوديًا كان أو نصرانيًا. وقد أصدر الخليفة العباسي المقتدر في سنة ٣١١ هـ (٩٢٣م) يخلف في المواريث أمر فيه بأن (ترد تركة من مات من أهل الذمة، ولم يخلف وارثًا على أهل ملته) على حين أن تركة المسلم كانت ترد إلى بيت المال [١٣٥].

يأمر الإسلام بالرفق بأهل الذمة، فقد روى عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال: " من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه"[١٣٦] وقال أبو بكر:" لا تقتلن أحدًا من أهل ذمة الله فيطلبك الله بذمته فيكبك الله على وجهك في النار[١٣٧]. وحينما توجهت الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام خطب أبو بكر في الجند فقال: لا تمثلوا و لا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة،ولا بعيرا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أملتم منها شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم الله".

---

[١٣٥] أدم متز: الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٥٩ .

[١٣٦] أبو يوسف: الخراج ص ٧١ .

[١٣٧] ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ١٢٧ .

يستحيل على المسلمة – كما ذكرنا– الزواج من غير المـــسلم، أمـــا الرجل فهناك موانع تمنع زواج المسلم من غير المسلمة، كأن تكون المـــرأة المراد الدخول بها مجوسية أو وثنية أو زنديقة لا تنسب إلى نبي و لا إلـــى كتاب. ويقول الغزالي أن المرأة المسلمة يجب ألا تكشف جسمها للذمية فـــي الحمام، وهو يرى أن ذلك قد يحدث في الحمـــام الـــذي يغـــشاه الـــذميون والمسلمون ، والرجال والنساء على السواء[١٣٨] .

خضع أهل الذمة لقضاتهم في المسائل التي تخصهم، أمـــا المـــسائل التي يشترك فيها أهل الذمة والمسلمون فقد كان القضاة المسلمون ينظـــرون فيها .

إذا أسلمت زوجة الذمي وهي ما تزال تحته وكانت حاملا في الوقت ذاته حقت لها النفقة حتى تضع حملها، فان أرضعته كان لها أجر الرضاع، وإذا أسلم أحد الوالدين أعتبر الأولاد الذين دون الحلم مسلمين. ولا يوافـــق الشافعي على ما يذهب إليه البعض من أن الأولاد الذين يولدون قبل إســـلام أبويهم يبقون على غير الإسلام حتى يقفوا على أسرار الدين فيعتنقونه مـــن تلقاء ذاتهم، وإذا أسلمت زوجة الذمي بعد دخوله بها فلها المهر كاملا غيـــر منقوص، أما إذا كان إسلامها قبل أن يدخل بها الذمي تقاسمته وإياه مناصفة. ويحتم الشافعي على الذمية التي تتزوج مسلما أن تراعـــى بعـــض شـــروط الإسلام كالوضوء وإلا جردت زوجها من حقوقه[١٣٩]

---

[١٣٨] إحياء علوم الدين جـــ ٢ ص ٢٣٥ .

[١٣٩] الشافعي : كتاب الام جـــ ٤ ص ١٨٣ .

وإذا طلق المسلم زوجته النصرانية ثـلاث مـرات، ثـم تزوجـت نصرانيا ثم طلقها ذلك النصراني حل للمسلم الزواج منها مرة أخـرى بعـد انقضاء عدتها، وإذا أسلمت جارية النصراني حيل بينها وبينه وأعتقت عنـد موته. أما إذا أسلمت زوجة النصراني وزوجها غائب في سفر طويل، فلهـا أن تنتظر عودته، لعله يسلم هو الأخر، أو تتزوج غيره إن أحبت [١٤٠].

ويرى الفقهاء أنه إذا اقترف المسلم الفحشاء أو زنا بامرأة ذمية وقع عليه الحد، أما المرأة فترد إلى أهل دينها فيحكمون عليها بمـا يـرون، ولا يحق للحاكم الإسلامي اتخاذ أي إجراء آخر، إذ أن ذلك يعد تدخلا في شئون أهل الذمة. أما إذا اقترف النصراني الفحشاء فانه لا يؤخذ بالشدة التي يؤخذ بها المسلم، فلا يطبق عليه الشرع من حيث الحد.

وإذا أقسم النصراني ألا يقرب زوجته أربعة أشهر ثم احتكمـا فـي نهاية المدة إلى القاضي المسلم أجرى القاضي حكم الشرع الإسلامي، ويكون له أن يقضى بالعودة إلى بيت الزوجية أو بالتفرقة بينهما بالطلاق، ويـشير الشرع على الزوج أن يدفع لزوجته تعويضًا، إلا أنه لا يملك من القوة مـا يرغمه على التزام الحكم بالتعويض . أما إذا قذف النصراني زوجته فرافعته وتحاكما إلى القاضي قضى لهما كما يقضى بين المسلمين، فإن رفض الزوج الخضوع للحكم عزر ولم يحد، إذ ليس ثَمَّ حد على قاذف النصرانية[١٤١] وإذا ارتكبت جارية الذمي جريمة عرض على صاحبها أن يعتقهـا بقيمتهـا إذا كانت الجناية أكثر من قيمتها، وان كانت أقل لم يكن عليـه إلا الـذي هـو أدنى ، فإن أبى أسلمها بجنايتها.

---

[١٤٠] ترتون: أهل الذمة في الإسلام ص ٢٠٣ .

[١٤١] الشافعي : كتاب الأم جـ٤ ص ١٨٤.

تحدث أبو يوسف عن " الحكم في المرتد عن الإسلام". فقال: " أمـــا المرتد عن الإسلام إلى الكفر فقد اختلفوا فيه، فمنهم من رأى استتابته ومنهم من لم ير ذلك، فقال: " وأحسن ما سمعناه في ذلك والله أعلم أن يـــستتابوا، فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم على ما جاء من الأحاديث المشهورة، وإمـــا كان عليه من أدركناه من الفقهاء" [١٤٢].

واتفق الأئمة على قتل المرتد عن الإسلام، بيد أنهم اختلفـــوا حـــول المدة التي ينفذ بعدها الحد فيه، فيقول أبو حنيفة أنه يجب قتله في الحال، ولا يتوقف على استتابته، وإن يكن بعض أتباعه يرون أن يمهل ثلاثـــة أيـــام، ويقول مالك: أن المرتد يجب أن يستتاب، فإن تاب في الحال قبلت توبته وإن لم يتب أمهل ثلاثة أيام لعله ينيب، فإن تاب كان بها وإلا قتل. أما أحمد بـــن حنبل فله رأيان في هذه المسألة يتفق أولهما مع مذهب الأمام مالك، وثانيهما يقول انه لا تجب الاستتابة، كذلك اختلفت الروايات عنه في وجوب الإمهال.

أما إذا ارتدت المرأة عن الإسلام فيرى أبو حنيفة حبسها و لا يجيز قتلها، ثم تدعى إلى الإسلام وتجبر عليه، على حين يرى غيره من الفقهـــاء وجوب معاملتها معاملة الرجل المرتد [١٤٣].

وإذا لحق المرتد- رجلاً كان أو امرأة - بدار الحرب أعتبـــر فـــي عداد الموتى، وقسم ما خلفه بين ورثته، وعتق عبيده وأمهات أولاده، ويفرق بينه وبين امرأته، ويحق لها الزواج بعد أن تعتد بثلاث حيضات منـــذ يـــوم

---

[١٤٢] أبو يوسف: الخراج ص ١٠٩ .

[١٤٣] الشعراني: الميزان جـــ ٢ ص ١٣١ .

ارتداده عن الإسلام وكل شيء يدخل به المرتد من ماله إلى دار الحرب فيصيبه المسلمون فهو غنيمة بمنزلة الغنيمة في الحرب [١٤٤].

ويقول المؤرخ (آدم متز) [١٤٥] حول ذلك : وكان تغيير الدين لا يجوز إلا إذا كان دخولاً في الإسلام، فكانت الطوائف الدينية منفصلة بعضها عن بعض، وكان المسلم إذا ارتد عن الإسلام عوقب بالقتل، كما أن قانون الدولة البيزنطية كان يقضي بقتل المسيحي إذا هو غير دينه.

وكان تعديل الدين حائلاً دون الوراثة، وتجد الرواية الأصل التاريخي لهذا الحكم في قرار أصدره عمر بن الخطاب، وذلك أن الأشعث طلب أن يرث أملاك عمته التي تزوجت يهوديا ثم ماتت بلا ولد، فرفض عمر بن الخطاب طلبه، ومن هنا جاء الحكم بحرمان ابن الذمي من أملاك أبيه إذا أسلم الابن، كما تسقط ولاية الذمي على ابنته المسلمة في الزواج.

قال عمر بن عبد العزيز: أيما ذمي أسلم فإن إسلامه يحرز له نفسه وماله، وما كان من أرض فإنها من فيء الله على المسلمين، وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن منهم أسلم كانت داره وأرضه لبقيتهم.

ومع أن فكرة استرقاق الذمي للمسلم مكروهة، إلا أن الفقهاء لم يستطيعوا أن ينكروا على الذمي حقه في شراء أي جنس من العبيد يقع عليه اختياره، فالبيع شرعي، لكن الشافعي يميل لحمل النصراني على بيع عبده المسلم لرجل مسلم، وعلى هذا فإن إسلام العبد الذمي يرغم مولاه النصراني

---

١٤٤ أبو يوسف: الخراج ص ١١١ .

١٤٥ الحضارة الإسلامية: جـ ١ ص ٥٧،٥٨ .

أو قسيمه على بيعه أو بيع نصيبه فيه[١٤٦] وإذا أسلم العبد الذمي وكان مولاه الذمي غائبًا باعه السلطان ولم ينتظر عودة صاحبه.

ولا يجوز للمسلم أن يوصى بأي شيء للذمي، ولكن يحق له أن يقبل ما يوصى به الذمي له، إن لم يكن فلا تركته خمر أو خنزير أو ما يخاف أن يلتزم به الجزية وإذا وهب الذمي مسلمًا هبة بعهد ثم حاول الرجوع في هبته حكم عليها بحكم المسلمين وقضى على الذمي بالدفع، أما إذا كانت الهبة من ذمي لذمي، وبدأ للموهب أن يرجع فيما وهب فلا يقضى بينهما. ولم يكـــن ينظر بعين الرضا لاستدانة المسلم مالاً من نصراني، وهذا تطبيـــق للـــرأي القائل بأنه لا ينبغي أن تكون للذمي سلطة على المسلم [١٤٧]-

ويسمح بالمشاركة بين ذمي ومسلم في التجـــارة، علـــى أن يكـــون المسلم حاضرًا جميع العمليات التي يقوم بها شريكه. ويرى مالك أن يستتجر المسلم عبده النصراني ولا يأمره ببيع شيء. ويرى مالك أيضًا أن ليس مـــن الصواب للمسلم أن يستأجر بستانا من نصراني على أساس المناصـــفة فـــي الربح، رغم أنه يرى لا بأس في أن يدفع المسلم إلى النصراني كرمِه مساقاة إذا لم يكن النصراني يعصر حصته خمرا. وإذا كان نصراني ومسلم يمتلكان دارا واحدة ورغب المسلم في بيع نصيبه كان للنصراني حق الـــشفعة[١٤٨]. ولا يجوز للذمي أن يجبى أرضًا بورًا، فإن أحياها لم تكن له بإحيائها بل أخذ منها عمارتها فقط، ولا يحل للمسلم أن يرتهن من الذمي خمرًا أو خنزيـــرًا. وينص عهد عمر بن الخطاب على أنه لا يجوز لذمي أن يبيع لمسلم خمـــرًا

---

١٤٦ الشافعي: كتاب الام جـــ ٤ ص ١٣٣ .

١٤٧ أهل الذمة في الإسلام ص٢٠٦- ٢٠٧ .

١٤٨ الشافعي : كتاب الام جـــ ٤ ص ١٨٨ .

أو يعرضها في السوق، ورأى الشافعي أنه إذا باع الذمي الخمر لمسلم فعلى الحكومة أن تبطل البيع ويبطل ثمنه إذا كان قد دفع، وتهرق السائل، وتعاقب البائع [١٤٩] .

كانت ضريبة عشور التجارة تختلف باختلاف أديان التجار، فكان يفرض على التاجر المسلم ربع العشر أي درهم عن كل أربعين درهما، وعلى من لا ذمة له العشر[١٥٠] بشرط أن تزيد قيمة التجارة على مائتي درهم[١٥١]. ولا تؤخذ الضريبة من كل تاجر إلا مرة واحدة كل سنة، ولو تكرر قدومه بالتجارة إلى البلدة، كما لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلاد أخرى، وهذا ما نسميه اليوم بالضرائب الجمركية .

* * * * * * *

[١٤٩] المصدر :السابق ج٤ ص١٣١ .

[١٥٠] أبو يوسف: الخراج ص ٤٨ .

[١٥١] المصدر السابق ص ٧٧ .

الفصل الخامس

أهل الذمة في ظل التسامح الإسلامي

التسامح في الإسلام :

نعني بالتسامح الديني أن يكون لكل فرد في الأمة حق في أن يعتقد ما يراه حقا، وأن تكون له الحرية في تأدية شعائر دينه كما يشاء، وأن يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء.

وينظر الإسلام إلى الأديان الأخرى نظرة تسامح، فقد سمى اليهود والنصارى أهل كتاب، وسماهم أهل ذمة، وهما تسميتان رقيقتان. والإسلام يعترف بنبوة الأنبياء السابقين، ونصح الإسلام المسلمين إذا دخلوا في جدال مع اليهود والنصارى بشأن الدين أن يجادلوهم بالحسنى، فقال الله عز وجل:(وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾). كما قال المولى سبحانه وتعالى أيضا: (قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾).

دعا الإسلام إلى التسامح غير الذليل، فهو يبني العلاقات الإنسانية سواء أكانت بين الأفراد وبين الجماعات على التسامح. وقد ذكر الله –

سبحانه وتعالى- ضرورة دفع العداوة بالتي هي أحـــسن، وأن هـــذا الـــدفع الكريم هو الذي يجلب المحبة. وأمر الرسول ﷺ، أن يصفح المسلم الـــصفح الجميل عمن يعاديه، وقد طبق الرسول مبدأ التسامح في علاقاته بالمشركين وغيرهم في معاهداته وفي حروبه.

والصفح الجميل أبرز ما يكون ظهوره عند الانتصار، فمـــا كانـــت الحروب للثأر و الانتقام، بل لإعلاء الحق ودفع عدوان الباطل.

وبذلك يتبين أن التسامح والصفح الجميل هو السياسة الإسلامية التي رسمتها النبوة في العلاقة بين الناس بعضهم مع البعض، وخـــصوصًا بـــين المسلمين وغيرهم. وهى السياسة المطلقة في حال السلم، والسياسة الـــشافية للقلوب المجروحة في أعقاب الحرب.

ويدعوا الإسلام إلى أنه لا إكراه في الدين، ويعترف الإسلام بما قبله من كتب سماوية صحيحة وينصح الناس بالتعايش الاجتماعي الـــسلمي، ولا ينال الإسلام من عقيدة الآخرين، بل ينظر دائمًا إلى أهل الذمة بعين الرعاية والتسامح. والإسلام هو آخر أدوار التطور الديني للتسامي والتكامل بالتطور الديني، وهو دين يتجاوب مع أرفع النظم وأسمى التقاليـــد، ويـــدعوا إلـــى الإنسانية. وهو حضارة عامة شاملة تنتظم كل من يعيش تحت سمائها مـــن أجناس مختلفة ومن أهل ذمة في حرية وصفاء.

والإسلام يدعوا أيضًا إلى تعاون أبناء المجتمع البشرى جميعًـــا دون تفرقة عنصرية أو عصبية دينية، ولا تفضيل أمة على أخرى، إلا بالتقوى، وما تحقق من منافع للبشرية، ويدعوا الإســـلام إلـــى الإنـــسانية والتعـــاون العالمي. وحارب الإسلام كل لون من ألوان العصبية، فالعصبية تدعوا إلـــى

الصراع الاجتماعي، وتفرق بين الناس، ويدعوا الإسلام إلى أن يعيش العالم كله بشعوبه وعناصره في مجتمع واحد، ويكفل الإسلام الأمــن والــسلام، والحرية .

ودعا الإسلام إلى السلم في كافة أحواله، واعتبر الحرب من إغراء الشيطان، ومن يسير فيها إنما يسير في خطوات الشيطان، وصرح بأن مــن يلقي السلام لابد من الامتناع عن قتاله، ولقد صرح فوق ذلك بأن من يلقــي السلام لا يصح أن يقاتل بدعوى أنه غير مؤمن .

أن الهدف الأسمى للإسلام هو خلق مجتمع بشرى صالح يعيش في أمن وسلام. وهذا الهدف ليس نظرية خيالية، ولكنه حقيقة عمليــة، يعمــل الإسلام على تحقيقه ويسوس الناس لإيجاده، والعنصر الهام لضمان صلاح المجتمع وتقدم الإنسانية هو طمأنينة الناس في معاشهم وحياتهم حتى يتفرغوا لعمران الإنسانية وتمدن العالم .

والإسلام دين يؤمن بالإنسانية العامة الشاملة. ولا يميل إلى استخدام القوة والعنف، وإنما يدعوا إلى سبيل ربه بالموعظة والحكمة ويجادل الناس بالتي هي أحسن. ولجأت الدولة الإسلامية في معظم فترات تاريخها إلى نشر المحبة والإخاء والتعاون والسلام، مما يؤدى إلى الإنسانية أن تكــون فــي أسمى صورها ومعانيها.

حقوق الإنسان في الإسلام:

فتح الإسلام صفحة جديدة في تاريخ البشرية، وكتب ســفرًا خالــدًا حافلا، بأروع جهاد عرفته الإنسانية، وبأعظم دعوة وصلت إلى الأرض من

السماء، وأكبر ثروة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً. ثورة على الجمود البشرى واضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان، مما اعترف به المفكـــرون والمؤرخـــون ودعاة الإصلاح.

لقد كانت رسالة محمد ﷺ، أول إعلان عالمي لحقوق الإنسان، واكبر حركة لتأييد كرامته وشخصيته في الحياة، وإصلاحا عاما شمل جميع ميادين الإصلاح . [١٥٢]

كانت حياة محمد مرحلة لها أثرها العميق في تاريخ البشرية جمعاء، فقد تكشفت عن دين رشيد، وشريعة غراء، وأمة مـــستعدة لحمـــل مـــشعل الحضارة، وفلسفة في الحياة تتميز بالنقاء والـــصفاء. واعتـــرف الإســـلام للإنسان بحريته واستقلاله الفكري والاجتماعي والمالي، ورفع من كرامـــة الإنسان ومعنويته، وجعله خليفة له في الأرض يعمرها، ويمحو منها الظلام والفوضى والجهل والجمود ، بما وهبه الله من عقل، وما حث عليه من العلم والعمران والإخاء، التي هي دعائم كل حضارة ومدنية .

والإسلام يصون حقوق الإنسان تماما، فهو يؤكـــد حريـــة الـــرأي، وحرية العقيدة، وحرية الفكر، ويحرر الإنسان من الخـــوف ومـــن العـــوز، ويضع شرائع تبطل الفروق بين الناس وتلغي الامتيازات الطبقية، وتنـــشر الإخاء والمساواة والمحبة بين الناس . ويصف الرسول عليه الصلاة والسلام الجماعة البشرية في حديث شريف، فيقول: (الخلق كلهم عيال الله، فـــأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله) ثم وصى الرسول الكريم البشر بالأخوة فيقول: (كونوا – عباد الله – إخوانا).

---

[١٥٢] خفاجى : الإسلام وحقوق الإنسان .

ضمن الإسلام حرية الإقامة لمن يستظلون برايته، وضـــمن حريـــة تقرير المصير لمن يخالفونه، فقرر أنه لا يجوز للمسلمين أن يعتدوا علـــى أحد، فالإسلام يدعوا إلى الحق والخير والعدل والمساواة والحريـــة، وإلـــى التعاون والاتحاد والشورى، وإلى الأخوة العامة، والزمالة البـــشرية، وإلـــى المدنية والحضارة والرقي والثقافة، وإلى روح الإنسانية في الفرد والجماعة والأمة، وإلى تطبيق المثل العليا التي دعا الإسلام إليها.

ويعتبر الإسلام الناس جميعًا أمة واحـــدة لا تفرقهـــا الألـــوان، ولا الأقاليم، ولا الجنسية، وإذا اختلفت الأديان فإن أهل كل دين لهم أن يـــدعوا إلى دينهم بالحكمة والموعظة، من غير تعصب أو إكراه. وإذا كان النـــاس أمة واحدة فإن أخوة الإنسانية ثابتة يجب وصلها، ولا يصح قطعها، وقد أمر الله تعالى بأن توصل القلوب والمودة، فالبر ثابت للمسلم وغير المسلم.

والإسلام دين يتجه إلى العقل، ويوافق الميول الطبيعية في الإنسان، وهو أول دعوة عالمية توفر المقومات لتعاون إنـــساني عـــالمي، وتحقيـــق الانسجام البشرى، والإسلام هو حمام الأمن والسلام لحياة الإنسان الروحية والمادية، ويجد الإنسان في الإسلام من المرونة ومجابهة الواقع، ومن الوعي الحقيقي الكامل للطباع البشرية ومطالب الحياة، مما لا يجده في غيره مـــن الأديان أو النظم الوضعية.

وأثبت النظام الإسلامي الاجتماعي أنه النظام العالمي الوحيد الثابت. وفي التعاليم الإسلامية نجد أسس علاج المشاكل الاجتماعيـــة والاقتـــصادية والسياسية التي تعانى البشرية منها في كل زمان ومكان. فالإسلام مؤســـس على قواعد عمرانية واجتماعية لا نظير لها في أي مـــذهب دنيـــوي مـــن المذاهب الحديثة. ومن مميزات الشريعة الإسلامية أن تعاليمها ونـــصوصها

تجمع بين البساطة والتعمق، يفهمها العامة والخاصة. وهذه الشريعة الغــراء تتمشى مع تطور الحياة الاجتماعية .

والتعاليم الإسلامية، وحضارتها ونظمها، تقوم على أساسين رئيسين، أساس روحي أو عاطفي، وأساس عقلي أو منطقي. وقد جعل الإسلام العقل حكمًا في كل شيء، والنظم الإسلامية تستند إلى العقــل. ويكفــل الإســلام للمسلمين وغير المسلمين السعادة فــي حيــاتهم، ويــضمن لهــم التكــافؤ الاجتماعي، والعدالة الاجتماعية.

تحدث (ماسينون) عن مبادئ المساواة في الإســلام فقــال: يمتــاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الــشعب بالعشر في موارد الجماعة. وللإسلام ماض بـديع مــن تعــاون الــشعوب وتفاهمها، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام، ماض كله التوفيق فــي جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات. ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى في افريقية والهند والهند الشرقية، والحماعات الإسلامية في الصين واليابان، على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها.

موقف أهل الذمة من الفتوحات الإسلامية

اختلف المستشرقون في العوامل التي أدت إلى سياسة الفــتح التــي اتبعها الخليفتان الأولان أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، فبعضهم يرى أن الرسول كان يسعى إلى إنشاء إمبراطورية إسلامية عالمية، وكانت حملة أسامة بن زيد التي أعدها قبل وفاته بقليل أول خطوة لتنفيذ هذه السياسة التي

أتمها أبو بكر وعمر.فيرى (دى غوية) أن هناك ثلاثة أسباب دفعت أبا بكر إلى الفتح، أولها رغبة محمد في نشر الإسلام بين كل العرب، داخل الجزيرة العربية وخارجها. و**ثانيهما** رغبـــة محمـــد ﷺ فـــي أن يـــسود الإســـلام العالم.و**ثالثهما** رفض كسرى الفرس وقيصر الروم قبول الإسلام لما دعاهما الرسول ﷺ إلى ذلك في كتبه التي بعثها إليهما. ويردد بعض المستشرقين أن العوامل الاقتصادية هي الأسباب المباشرة للفتوحات العربية الإسلامية .

من اليسير الرد على آراء هؤلاء المؤرخين المستـــشرقين، فهنـــاك نصوص صريحة في القرآن الكريم تدل على أن الله بعث رســـوله ﷺ إلـــى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا، وفي الحديث ما يدل على ذلك أيضًا، ولو مـــد الله في عمر رسوله لكان الرسول أول من جهز الجيوش لفتح الأمـــصار التـــي حوله.ويؤيد (أرنولد) [١٥٣] حقيقة عالمية الدين الإسلامي، فيقول : لم تكـــن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل أن للعالم أجمع نـــصيبًا فيـــه، ولما لم يكن هناك غير إله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة .

قال الله تعالى : (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾) [١٥٤] كما قال عز وجل: (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾) [١٥٥] وقال سبحانه وتعالى أيضًا:

---

[١٥٣] الدعوة إلى الإسلام ص ٤٨- ٥٠.

[١٥٤] سورة ص آية ٨٧-٨٨

[١٥٥] سورة يس آية ٦٩-٧٠

(وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾) (١٥٦).

من مميزات الإسلام ملاءمته لجميع الأجناس البشرية، فلـم يكـن العرب هم الذين اتبعوا الإسلام، فقد أكد الإسلام منذ الساعة الأولى لظهوره أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان، وإذا كان صالحًا بالضرورة لكل جنس كان صالحًا بالضرورة لكل عقل، إذ هو دين الفطرة والفطرة لا تختلف فـي إنسان عن آخر وهو لكل ذلك صالح لكل درجة من درجات الحضارة (١٥٧).

يزعم المستشرق المتعصب (وليم ميور) أن الدين الإسلامي لم يهيأ إلا لبلاد العرب، ولكن هذا يتنافي مع ما نعلمه من أن الرسول كان يهدف إلى نشر الإسلام بين جميع الناس على اختلاف أجناسهم، فهو مؤمن تماما أن الإسلام يصلح لجميع البشر، فقد تكفل القرآن الكريم بتبيان كل شيء، فقد قال الله عز وجل لرسوله: (وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾) (١٥٨) .كما قال سبحانه وتعالى (مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ) (١٥٩).

لم تكن العوامل الاقتصادية، كما يزعم بعض المستشرقين، إذا هـي دوافع الفتوحات الإسلامية، فلا شك أن الدافع الأول للفتح هو نشر الإسلام. كما كان غرضها دفاعيًا أو لصد هجوم متوقع، لينفسح الطريق أمام الدعوة.

---

١٥٦ سورة سبأ آية ٢٨.

١٥٧ ايتين دينية : محمد رسول الله ص ٣٤٥.

١٥٨ سورة النحل اية ٨٩ .

١٥٩ سورة الأنعام اية ٣٨ .

دخل الفاتحون العرب إلى بلاد الشام فوجدوا قوميات مختلفة، فقد تعاقبت على هذه البلاد مدنيات مختلفة فأورثتها علمها وحضارتها وقوميتها، وأمن العرب الفاتحون أهالي الشام، على اختلاف قومياتهم، على أنفسهم وأموالهم، وكانت كتب الصلح العديدة توضح تمامًا هذه السياسة. بل أن العرب المسلمين لم يكونوا قساة مع الروم، وهم الذين جابهوهم بالحرب. وقابلوهم بالقوة، فإنهم لا يريدون عداوتهم ما دام غرضهم البعيد أن يتألفهم في دعوتهم ، وأن يضموهم إلى قوميتهم، وأن يطووهم في دينهم بقدر الإمكان، فلذا فهم لم يخرجوا من الشام أسرى مقيدين (١٦٠) . ولا شك أن هذا اليسر والتسامح قام بدور كبير في التقريب بين الفاتحين والأهالي، فلم يشعر السكان أن هناك طبقة من فوقهم، مما أدى إلى اقتراب القوميات ثم امتزاجها، كما مهد الطريق أمام انتشار الإسلام، والتقريب الجنسي واللغوي.

وكان للفتح الإسلامي لبلاد العراق أثر كبير في أهالي هذه البلاد، فقد رحبوا بالعرب المسلمين كل الترحيب، ووجدوا فيهم المنقذ المنشود الذي يخلصهم من ظلم الأكاسرة الساسانين (١٦١) . وأن كان بعض الفرس قد وقفوا إلى جانب كسرى في قتاله للعرب، إلا أن غالبية الفرس كانوا زاهدين في المظاهر القومية، إذ قد ضعفت معاني الاستقلال في نفوسهم، وهم بما صاروا إليه من سوء الحال يحاولون أن يضعوا أيديهم في يد كل من يعمل على تيسير سبل المعيشة لهم (١٦٢) .كما وجدوا في الفتح العربي خلاصًا من الخدمة العسكرية، وأملا في تمتعهم بالحرية الدينية، هذا بجانب المميزات الأخلاقية التي تمتع بها العرب الفاتحون.

---

[١٦٠] انظر عهد عمر لأهل بيت المقدس في تاريخ الطبرى حـ ٣ ص ١٠٥ .

[١٦١] جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ١٦٩ .

[١٦٢] كرد على : الإسلام والحضارة العربية حـ ١ ص ٢٠٢ .

رحب أهالي مصر بالفتح الإسلامي، واتبع الفاتحون العرب سياســة التسامح حتى يحببوا سكان مصر في الحكم العربي الإسلامي الجديد، وكان هؤلاء السكان طبقتين: الأقباط والروم. أما الأقباط فقد أتــاح لهــم العــرب المسلمون الحرية والأمان، بل إن الإسكندرية رغم أنها نقضت الصلح مــع المسلمين، ورغب الجند العرب في جعلها فيئاً للمسلمين لأنهم فتحوها عنوة، لكن عمر بن الخطاب أبى ذلك وأمر عمرو بن العاص ألا يجعل فيئًــا ولا عبيدًا [١٦٣] أما الروم الذين قاتلوا المسلمين فقد خيرهم المــسلمون بــين أن يدخلوا في ذمتهم وبين أن يؤمنوهم حتى ينصرفوا عن أرض مــصر فــلا يعودوا إليها[١٦٤] . أما طبقة الروم المسالمة، فقد عوملوا معاملــة الأقبــاط. وهناك طبقة ثالثة من الروم كان لها النفوذ قبل الفتح، وعلى رأسهم المقوقس الذي كان يطمع في حكم مصر باسم المسلمين كما حكمها من قبـل باســم القسطنطينية، ومنهم القائد كلاجى والقائد ســبنديس اللــذان انــضما إلــى المسلمين، وقد استعان العرب بهذه الطبقة في الحكم والإدارة [١٦٥] .

لما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن، كتب الأهالي المسيحيون إلى المسلمون يقولون:" يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا" . وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعداهم أحب إليهم من ظلــم الروم وتعسفهم .

---

[١٦٣] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٧٥ .

[١٦٤] الطبرى جـــ ٣ ص ٩ .

[١٦٥] بتلر: فتح العرب لمصر ص ٢٣٥ و ٣١٤ .

ولما عقدت دمشق الصلح مع العرب المسلمين، ولمست سائر مـدن الشام تسامحهم وعدلهم، أسرع أهالي هذه المدن إلى طلب الصلح مع العرب، وكان خوف هؤلاء الأهالي من أن يكرههم الإمبراطور الروماني على إتباع مذهبه، ووعد المسلمين لهم بمنحهم الحرية الدينية من عوامل ترحيبهم بالفتح الإسلامي وعدم الارتباط بالدولة الرومانية وبأية حكومة مسيحية [١٦٦] .

تحدث المستشرق (كايتاني) عن موقـف المـسيحيين مـن الفـتح الإسلامي، فقال : قبل السكان غن ارتياح واضح بتغير الحكومـة، وذلـك بمجرد أن علموا أن العرب و المسلمين سيحترمون حقـوقهم الشخـصية وسيتركون لهم الحرية العامة في إقامة شعائرهم الدينية . وفي الشام أسرعت مدن ومقاطعات بأكملها إلى التفاهم مع العرب حتى قبل أن تقـع هزيمـة الروم النهائية . وفي العراق قبل أهلها الحكم الإسلامي دون قيد أو شرط.

مظاهر التسامح الإسلامي مع أهل الذمة

تمتع أهل الذمة بالحرية و التسامح و العدل، مقابل أداء جزية عادلة معقولة، و ارتبطت بالفعل قضاياهم في الأمور المدنية و الجنائية برؤسائهم الروحيين مادامت القضية لا تمس المسلمين، أما الشريعة الإسـلامية فلـم تطبق عليهم لأنها لم توضع لهم .وتعهد المسلمون لأهل الذمـة بحمـايتهم وتوفير العدل والسلام لهم، وأمنهم على أنفسهم

وأموالهم، فكانوا لا يدفعون سوى عشر التجارة والجزية، بينما هـم معفون من الذكاة والصدقات . وكانت الجزية تساوى ما يدفعه المسلم مـن

---

[١٦٦] المصدر السابق ص ٧٧ .

صدقة، وأعفي من الجزية الصبيان والنــساء والمــساكين وذوي العاهــات والرهبان.

كتب ميخائيل الأكبر بطريق بطريقية أنطاكيـــة اليعقــوبي فـــي النصف الثاني من القرن الثاني عشر يشيد بمعاملة المــسلمين للمــسيحيين وقت الفتوحات الإسلامية، فتحدث عن اضطهاد هرقل لأهالي الشام ثم قال:

".. وهذا هو السبب في أن آلة الانتقام الذي تفرد بالقوة وبالجبروت والذي يدير دولة الشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء لما رأى شــرور الــروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا ديارنا فـــي كافـــة ممتلكـــاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل من بـــلاد الجنوب ليخلصنا من قبضة الروم وآذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضـــدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام".

وقد حوى تاريخ الخلفاء الراشدين أمثلة كثيرة للتسامح الديني نحـــو أهل الذمة، وكثيرا ما كان هؤلاء الخلفاء يوصون الجند الفـــاتحين بالتعـــاليم الحكيمة. وهم في ذلك يحتذون حذو الرسول الكريم ﷺ، فقد مـــنح الرســـول أهالي نجران من النصارى عهدًا حوى احترام منشآت النصارى، ثـــم قـــال لمعاذ بن جبل عند توجهه إلى بلاد اليمن : "لا يزعج يهودي في يهوديته " .

ويدخل في نطاق التسامح، عهود الصلح التي أعطيـــت للنـــصارى الخاضعين للدولة البيزنطية التي اندمجت في الإسلام، وبموجبها كانوا- في مقابل دفع الجزية- يستطيعون مباشرة شئونهم الدينية في حرية تامة وتسامح كبير. كما أبدى المسلمون تساهلاً كبيرًا في المعاملات المدنية والاقتـــصادية بالنسبة لأهل الذمة.

وضرب المؤرخ (أرنولد) كثيرًا من الأمثلة التـي تثبـت تـسامح المسلمين، ثم قال: ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفًا عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين فـي القـرن الأول مـن الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هـذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عـن اختيـار وإرادة حرة وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح.

ويصف (أرنولد) موقف المجتمع الإسلامي من المسيحيين فيقـول: ولما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكـاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني، تمتعوا بحالة من الرفاهية والرخاء.

كانت أهداف الدولة الإسلامية تخالف أهداف غيرها مـن الـدول، فالدول كانت ولا تزال تهدف إلى سيادة شعبها على غيره من الشعوب، مما يؤدى إلى الحروب والصراع. أما الدولة الإسلامية فكانـت لا ترمـي فـي أهدافها إلا إلى تبليغ الدعوة الإسلامية، ولم يكن يقصد من هذه الدعوة سيادة شعب على شعب، ولا طمع في ملك أو إمارة، وإنما كان يقصد منها الدعوة إلى توحيد الله، وإلى الحكم بالعدل بين الناس، وهما غايتـان مـن أشـرف الغايات.

ونصح الإسلام المسلمين بأنهم إذا دخلوا فـي جـدال مـع اليهـود والنصارى بشأن الدين بأن يجادلوهم بالحسنى فقال الله عز وجل(وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ

﴿٤٦﴾) . ونرى في العهد المدني في أول الأمر مثل قوله ســبحانه وتعــالى:(فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾) . كما قال الله عز وجــل(قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًۭٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًۭا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾)

اعتراف المستشرقين بتسامح المسلمين :

الحقيقة التاريخية هي أن أهل الذمة تمتعوا بالحرية الدينيــة تمامًــا، فضلاً عن حسن المعاملة، فقد كان التسامح هو شعار الإسلام، ولم يكن الفتح العربي حربًا صليبية مثل الحروب الصليبية التي شهدتها بلاد الشام وبعض بلدان الشرق العربي ويدلل (توماس أرنولد) (١٦٧) على تسامح المسلمين برسالة لأحد رجال الكنيسة، وهو البطريق النسطورى (يشوع ياف الثالث) كان قد بعث بها إلى رئيس أساقفة الفرس، وقد تضمنت هذه الرسالة الدليل القاطع على طابع الهدوء والمسالمة التي اتبعها العرب في نشر الإسلام، فقد احترم المسلمون عقائد أهل الذمة وعاداتهم وعرفهم مقابل جزية زهيدة تقل عما كانوا يدفعونه إلــى ســاداتهم الــسابقين مــن الفــرس والــروم مــن الضرائب(١٦٨) ولم يطبق العرب على أهل الذمة ما كانوا يوقعونــه علــى المسلمين من عقوبات لشرب الخمر (١٦٩) .

---

١٦٧ الدعوة إلى الإسلام ص ٧٥

١٦٨ لوبون : حضارة العرب ص ١٦٩ .

١٦٩ ديمومبين: النظم الإسلامية ص ١٦٦

اعترف معظم المفكرين المسيحيين بأن العرب المسلمين عاملوا دائمًا غير المسلمين معاملة تنطوي على التسامح، وقد عاش المسلمون والـذميون جنبًا إلى جنب في مجتمع واحد تربطه صلات المودة والمحبة والتعاون ومن هؤلاء المفكرين(جولد تسيهر) الذي قال: أن ما يشاهد اليوم من تسامح الحكومات الإسلامية يرجع إلى ما كان في النصف الأول من القرن السابع الميلادي من مبادئ الحرية الدينية، التي منحت لأهل الكتاب في مباشرة أعمالهم الدينية. وروح التسامح في الإسلام قديما، هي تلك الروح التي اعترف بها المسيحيون المعاصرون أيضا، كان لها أصلها في القرآن : (لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ).

أشاد معظم المستشرقين بحسن معاملة المسلمين لأهل الذمة، فيقول (أرنولد) [١٧٠] أن المسلمين لم يألوا جهدًا في معاملة رعاياهم من المسيحيين كما أكد (باروتولد) [١٧١] أن النصارى كانوا أحسن حالاً تحت حكم المسلمين، اذ أن المسلمين- كما يذكر جولد تسيهر- اتبعوا في معاملاتهم المدنية والاقتصادية لأهل الذمة مبدأ الرعاية والتساهل. ويذكر (شد) أن العرب عاملوا النصارى واليهود معاملة تمتاز بالتسامح. ويمتدح (جوزى) [١٧٢] بني أمية لأنهم ساووا بين طبقات الفرس وعاملوا أهل الذمة معاملة حسنة.

لم يكن النظام المالي الذي عومل به أهل الذمة في العصر العربي الإسلامي قاسيًا أو ظالمًا فذكر(فون كريمر) [١٧٣] أنه لم يلحظ في نظام

---

١٧٠ الحضارة الإسلامية ص ١٩-٢٠ .

١٧١ من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص ٤٥ .

١٧٢ الحضارة الإسلامية ص ٨٢ .

١٧٣ السيادة العربية ص ٢٠ .

الضرائب شيئًا مجمعًا، و يرى (فان فلوتن) [١٧٤] أن الضرائب ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومة العربية من بناء الطرق وحفر الترع وتوطيد الأمن وما إلى ذلك من ضروب الإصلاح، والحقيقة أن الجزية لم تكن عقابًا لأهل الذمة، فهي نظير إعفائهم من الجندية ومقابل حماية المسلمين لهم، وقد فرض الإسلام على المسلم الزكاة حتى يتكافأ الذمي والمسلم في الواجبات، وكان نظام الجزية عادلاً كان حسب مقدرة الفرد المالية، ففرق بين الغنى والفقير ومتوسط الحال، كما أعفي النساء والصبيان وذوى العاهات والرهبان، وكان لأهل الذمة نصيب من العطاء.

قال (جان مليا) : الإسلام دين سماوي، وهو دين حب وعاطفة وشرف، وأكثر الأديان تساهلاً. وتحدث الكاتب الإنجليزي(برنادشو) عن الإسلام فقال:أن أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد، وبدأت تعشق دينه، كما أنها ستبرئ العقيدة الإسلامية مما اتهمت به من الأراجيف رجال أوروبا في العصور الوسطى وسيكون دين محمد هو النظام الذي يؤسس عليه دعائم السلام والسعادة، ويستند على فلسفته في حل المعضلات والمشكلات، وأن كثيرين من الأوربيين الآخرين يقدسون تعاليم الإسلام، ولذلك يمكنني أن أؤكد نبوءتي فأقول أن بوادر العصر الإسلامي الأوروبى قريبة لا محالة .

وخلاصة القول: نادى الإسلام بالحرية والإخاء والمساواة، ورسم وسائل تحقيقها، وأقام موازين الحق والعدل والإنصاف ودعا إلى التعاون على البر والخير والإصلاح، كل ذلك في ظل المحبة والوئام والسلام العام.

* * * * * * *

---

[١٧٤] السيادة العربية ص ٢٠.

الفصل السادس

أهل الذمة في مجتمع صدر الإسلام

إقبال أهل الذمة على اعتناق الإسلام :

أدى الإسلام إلى امتزاج واندماج العرب بالعناصر الأخــرى فــي الأمصار المفتوحة. فقد منح الإسلام العناصر المختلفة التي كانــت تــسكن الأمصار ما تحتاجه من المثل العليا التي اكتسبوا بها من الحمية ما استعدوا به للتضحية بأنفسهم في سبيله. وقد منحت هذه المثل العليا أهالي الأمــصار مشاعر مشتركة وآمالاً مشتركة وإيمانًا يندفع به كل واحد من أبنائهــا فــي التضحية بنفسه في سبيل نصرة. وكانت الدولة التي أسسها العرب هي الدولة العظمى الوحيدة التي قامت باسم الدين والتي اشتقت منــه جميــع نظمهــا السياسية والاجتماعية (١٧٥) .

هل نشر العرب الإسلام بالقوة وحد الــسيف ؟ والجــواب بــالنفي، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي لم يفرض بالقوة، بل أقبل الناس على اعتناقه بإرادتهم واختيارهم(١٧٦) فإنه من المستحيل أن يفوز الإسلام بقلوب النــاس بالسيف. ويعترف(جوستاف لوبون) (١٧٧) بذلك فيقول: " والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل ديــنهم" . ولم يعمل العرب لنشر الإسلام ولم يكن عندهم مبشرون، ولا كانوا يحسنون

---

[١٧٥] لوبون: حضارة العرب ص ٧١٨- ٧١٩.

[١٧٦] أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ١٨٢.

[١٧٧] حضارة العرب ص ٧٢٠.

التبشير، والذين كانوا يحسنون التبشير منهم هم المسيحيون الـــذين أســـلموا والذين تعلموا التبشير من المسيحية.

ما أسباب الانتشار السريع الذي صادف الإسلام .

يعلل (جوستاف لوبون) [١٧٨] هذا الانتشار السريع بسهولة للإســـلام التي كانت سر قوته، فهو يخلو مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الـــذوق السليم من المتناقضات والغوامض، وكل مسلم يستطيع أن يعـــرف أصـــول الإسلام في بضع كلمات سهلة، على عكس المسيحي الذي لا يستطيع حديثا عن التثليث وغيره من الغوامض التي لا يعرفها غير علماء اللاهوت.

أما المؤرخ(ستانلى لينبول) فهو يتساءل عن سبب سرعة انتـــشار الإسلام بين أهل الذمة : هل هو القانون الأخلاقى الذي تحويه العقيدة، ومـــا يعد الإسلام المؤمنين به من جنات. ولكن (لينبول) يعـــود فيقـــول أن هـــذه الأسباب كلها كافية لتخلق عدوًا قويًا، فلم تكن ولكن العامل الأول في سرعة الانتشار هو أن الإسلام لم يقابل عدوًا قويًا فلم تكن اليهوديـــة أو المـــسيحية بالقوة التي حول دون انتشاره، بل لم يكن هناك ما يمنع هذا الانتشار، وكان هذا سبب انتصار الإسلام، هذا بجانب ما حواه الإسلام من مبادئ وتعـــاليم سامية.

ويعلل المورخ (دوذى) [١٧٩] إقبال أهل الذمة على الإسلام بأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة، مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة.

---

[١٧٨] حضارة العرب ص ٥٨.

[١٧٩] نظرات في تاريخ الإسلام ص ٤١١- ٤١٢.

أما (توماس أرنولد) [١٨٠] فيرجع سبب انتشار الإسلام إلى عـــاملين: أولهما نجاح العرب الواسع الذي زعزع عقيدة المسيحيين، فقد رأى أن هذه الفتوح قد تمت بعون الله، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الإلهي. أما العامل الثاني، فهو ما كان ينادي به الإسلام من مُثُل عُليا ترمي إلى أخوة المؤمنين كافة في الإسلام.

وينفي (أرنولد) [١٨١] تمامًا أن يكون الاضطهاد هو الدافع لأهل الذمة على اعتناق الإسلام، فيقول: " وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هــذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهــر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق" وينسب (أرنولد) إقبال أهل الذمة على اعتناق الإســـلام، إلى عاملين أولهما تدهور الكنيسة وثانيهما إعجاب أهــل الذمـــة بالعقيــدة الإسلامية، فيقول: " ويرى كثير من علماء اللاهوت المــسيحيين أن حالـــة الكنيسة الشرقية التي تدهورت في ذلك الوقت – مـــن النـــاحيتين الخلقيـــة والروحية – لابد أن تكون قد دفعت كثيرين إلى أن يلتمسوا جوًا روحيًا أسلم وأصح في ذلك الدين الإسلامي الذي جاءهم وهو في أشد ما تكون الحماسة الغضة قوة وعنفًا".

ويرى المستشرق الإيطالى (كايتانى) أن إقبال أهل الذمة على اعتناق الإسلام كان بسبب أحوال الكنيسة الشرقية، وتعقيد التعاليم المسيحية، فيقول :" أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شـــعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهيلينيـــة إلـــى اللاهــوت

---

١٨٠ الدعوة إلى الإسلام ص ٧٠.

١٨١ الدعوة إلى الإسلام ص ٨٨.

المسيحي. أما الشرق الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالأغلبية من الوجهة الدينية، لأنها أحالت تعـاليم المـسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمـذاهب عويـصة، مليئـة بالـشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس بل زعزع أصول العقيـدة الدينية ذاتها فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التـي تمزقـت بفعـل الانقـسامات الداخليـة، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هـذا الـدين الجديد – أي الإسلام – الذي بدد كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب" (١٨٢).

وأوضح المؤرخ (كانون تايلور) (١٨٣) فساد العقائد المسيحية، وبين كيف نجح الإسلام في الخلاص من هذا الفساد فقال : "كان أئمة اللاهوت في افريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة، ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة في السماء وسمو البكورية إلى مرتبة الملائكة. فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والقذارة صفة لطهارة الرهبنة. وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقـات العليـا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولـم يكـن للعبيد أمل في حاضرهم ولا مستقبلهم . فأزال الإسلام، بعون من الله ، هذه

---

١٨٢ الدعوة إلى الإسلام ص ٨٩– ٩٠.

١٨٣ ألقى (كانون تايلور) هذا البحث في مؤتمر الكنائس في (ولفير هامبتون) في ٧ أكتوبر سنة ١٨٨٧ .

المجموعة من الفساد والخرافات. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين الإسلام أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعوا الناس إلى امتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه. وأعلن الإسلام أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويومًا للحساب، وأعد للأشرار عقابًا أليمًا، وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير، ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني والنزهات والنزعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المتنازعين في الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية، التي تقوم عليها الطبيعة البشرية " [١٨٤].

ويؤكد المؤرخ (توماس أرنولد) [١٨٥] أنه لم تحدث محاولة واحدة لإرغام أي ذمي على اعتناق الإسلام، فيقول صراحة:" لم نسمع عن أية محاولة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وايزابلا دين الإسلام من أسبانيا، أو الذي جعل به لويس الرابع عشر المذهب البروتستنتي مذهبًا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مُبعدين عن انجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة. وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالاً تامًا عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين. ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في

[١٨٤] الدعوة إلى الإسلام ص ٩٨.

[١٨٥] الدعوة إلى الإسلام ص ٩٨ – ٩٩ .

طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإســلامية بوجــه عام من تسامح نحوهم".

اعتنق من أهل الذمة في صدر الإسلام العقيدة الإسلامية، ويمكننا أن نكون فكرة عن تحول جموع كثيرة من أهل الذمة إلى الإسلام، إذا علمنا أن إيراد الضرائب في عهد عمر بن الخطاب كان يتراوح بين مائة مليون ومائة وعشرين مليون درهم، بينما هبط في عهد الخليفة الأموي عبد الملــك بــن مروان، أي بعد حوالي خمسين عامًا إلى أربعين مليون درهم.

تعلم أهل الذمة اللغة العربية:

أقبل معظم أهل الذمة على تعلم اللغة العربية، مما أدى إلى التقارب بينهم وبين العرب المسلمين وسائر أهالي الأمصار المفتوحة. واللغة ليــست كلمات أو حروف، بل هي تعبير وشعور، ووحدة اللغة تؤدى إلــى وحــدة الثقافة، وإلى الوحدة العقلية والنفسية، مما يحقق شخصية عربيــة واحــدة. وأدى تعميم استخدام اللغة العربية في هذه الأمــصار إلــى انــدماج ســائر الأجناس على اختلافها اندماجًا قويًا في الحياة القومية التــي كــان يحياهــا العنصر العربي الحاكم (١٨٦) . إذ ربطت اللغة العربية جميع الــبلاد بربــاط معنوي (١٨٧) كما أن أهل الأمصار وقد أصبحوا شعبًا إسلاميًا فــإنهم كــانوا يزدادون إسلامية كلما اقتربت لغتهم من لغة القرآن (١٨٨) .

---

[١٨٦] جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص ٥٠.

[١٨٧] ديموميين: النظم الإسلامية ص ١١..

[١٨٨] متى: تاريخ العرب ص جــ١ ص ٩.

أقبل أهل الذمة على تعلم اللغة العربية وإتقانها. فقد كانت رغبة هذه العناصر في قراءة القرآن الكريم، دستور الدولة العربية الإسلامية وتــولي المناصب من العوامل التي دفعتهم إلى إجادة اللغة العربية [١٨٩] كما كانــت رحمة العرب الفاتحين بأهل الذمة وتسامحهم من العوامل التي شجعتهم على إتقان اللغة العربية والتمسك بالنظم العربية [١٩٠].

كان قيام إمارة الحيرة العربية على حدود الدولة الفارسية، وإمــارة الغساسنة العربية على حدود الدولة الرومانية، عاملاً هامًا على بقاء العروبة واللغة العربية والتمكين لها، وكانت الإمارتان قبل الفتوحات الإسلامية على صلة دائمة بالجزيرة العربية .

هل انتشرت اللغة العربية بالقوة وحد السيف ؟

والإجابة على هذا السؤال بالنفي، بل سار العرب في نــشر لغــتهم على نفس المنهاج الذي ساروا عليه في نشر دينهم فلم يحارب العرب لغات البلاد الأصلية على رسوخها فيها، بل ساروا في نشر لغتهم بتعقل ورويــة، وراعى المسلمون سنن الطبيعة والنشوء، وعملت قاعدة الانتخاب الطبيعــي عملها في اللغة، كما عملت في العناصر، فبقي ما هــو مفيــد للنــاس فــي مصالحهم على اختلاف نحلهم ومللهم [١٩١].

---

[١٨٩] لوبون: حضارة العرب ص ٧٢٠.

[١٩٠] كرد علي : الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ١٨٠.

كرد علي : الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ١٨٠

[١٩١] بارتولد: الحضارة الإسلامية ص ٣٠ .

ويرى المؤرخ (بارتولد) [١٩٢] أن غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة، ويذكر أن تسامح العرب أدى إلى انتشار اللغة العربية إذ أن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح كالجرمان والمغول والفرس.

وكان أهل الذمة مضطرين إلى تعلم اللغة العربية، فقد كانوا يتصلون بالعرب المسلمين في شئون الزراعة أو الصناعة أو التجارة، كما أدى تعرب الدواوين في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلى انتشار العربيـــة على نطاق واسع بين أهل الذمة، فقد كان عليهم إتقـــان هـــذه اللغـــة حتـــى يحتفظوا بوظائفهم.

تحدث(توماس أرنولد) [١٩٣] عن نتائج انتشار اللغة العربية بين أهل الذمة فقال:" كان لتعميم استعمال اللغة العربية فـــي كافـــة أرجـــاء الـــبلاد الخاضعة للخلافة الإسلامية، وبخاصة المدن والمراكـــز الكبـــرى الاهلـــة بالسكان، كما كان للتماثل الذي تم تدريجيًا في الأخلاق والعادات، والذي أدى في خلال ما يقرب من قرنين إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافهـــا اندماجا قويًا في الحياة القومية التي كان يحياها العنصر العربي الحـــاكم – كان لهذا كله من غير شك صدى في الحياة الدينية والفكرية لدى كثير مـــن من أفراد الديانات التي دخلت في حماية العرب الفاتحين. ومن المحتمل جدًا أن تكون الحركة الفكرية التي أثرت في العقيدة الإسلامية تأثيرا بالغًا، ابتداء من القرن الثاني حتى القرن الخامس للهجرة، فقد أثـــرت فـــي المفكـــرين المسيحيين وصرفتهم عن ديانة كانت روح عقيدتها السائدة تلوح فـــي ذلـــك الوقت أنها عقيدة مستحيلة من الناحية العملية ".

---

[١٩٢] الدعوة إلى الإسلام ص ٩٢.

[١٩٣] .

فرضت اللغة العربية كتابتها على الفرس وغيرهم، وقضت نهائيًا على الألف باء القديمة لهذه اللغات القديمة. فقد اقتبست اللغة الفارسية ثلث ألفاظها من اللغة العربية وأضافتها إلى مجموعة كلماتها الهندو-أوروبية [١٩٤] وكان الزرادشت هم أول من اتخذوا الحروف العربية، وأوجدوا لغة فارسية حديثة محتوية على كثير من الكلمات العربية [١٩٥].

أدت إقامة العرب في المدن الإسلامية الجديدة في الأمصار المفتوحة إلى امتزاجهم بأهالي البلاد وأهل الذمة، فقد تعاونوا جميعًا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولم تكن عناصر الأمصار المفتوحة غريبة على العرب الفاتحين، كما أن فروقهم الدينية لم تقف حائلاً في سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلم اللغة العربية واعتنق الإسلام [١٩٦].

إقبال أهل الذمة على الحضارة الإسلامية :

ترتبط الحضارة البشرية بالدين، بل هي من خلقه ومن نتائجه، فالأديان ليست نظرية فلسفية أو مجرد عقائد أو أعمالاً يختص بمعرفتها فريق من البشر دون فريق آخر، بل هو وجود اجتماعي واضح يقوم على أقدار مشتركة من العلم والعمل والعقائد، يشارك الأفراد فيها جميعًا.

وكان ظهور الإسلام إيذانا بظهور حضارة إسلامية عريقة، فقد عمل الإسلام على تخليص البشر من شوائب ورذائل الجاهلية، ومنح الناس مُثلاً

---

١٩٤ ديمومبين : النظم الإسلامية ص ١٢-١٣.

١٩٥ بارتولد: الحضارة الإسلامية ص ٦٨.

١٩٦ ديمومبين : النظم الإسلامية ص ٩.

عُليا في السياسة والاجتماع والاقتصاد، وأنار أمامهم السبيل ليـصلوا إلـى الرخاء وإلى السعادة والرفاهية. وانتشرت مراكز الحـضارة فـي العـالم الإسلامي، فكانت هناك دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة، وانتقلت الحـضارة من الشرق الإسلامي إلى القارة الأوروبية بطريق بلاد الأنـدلس وجزيـرة صقلية، ونتيجة اختلاط الشرقيين بالأوروبيين خلال الحروب الصليبية وفي التجارة. وحرصت الحضارة الإسلامية على التجديد والابتكـار، وتجنبـت التقليد والمحاكاة، وأصبح الشرق الإسلامي أستاذاً لأهالي أوروبا، واعترف المفكرون الأوربيون بذلك.

أصبح الطابع البارز للحضارة الإسلامية هو تقديس حريـة الفكـر، وإعزاز حرية الإنسان وكرامته، وتشجيع العلم والمعرفة والنظام، والمساواة بين الناس جميعًا في ظلال إخاء شامل وعدل تـام، وروحانيـة صـافية، واعتزاز بالمُثل العُليا والقيم الأخلاقية السامية.

كانت الحضارات زمن الفتح العربي الإسلامي متقاربة في مختلـف المواطن، فالحضارة الإغريقية غلبت الحضارة الرومانية في القـسطنطينية وهذه أخذت الكثير من الحضارة الفارسية لاتصالهما السياسي والحربي، كما أخذ الفرس عن اليونان من قبل [١٩٧].

وكان الطريق ممهدًا أمام امتزاج الحضارات، ولما كـان العـرب المسلمون وقت الفتوحات أميين فقد اعتمدوا على أهـل الذمـة فـي الإدارة والكتابة والشئون المالية، مما أدى إلى احتكاك واتصال أهل الذمة بالحضارة العربية الإسلامية .

[١٩٧] عمر أبو النصر : الحضارة الاموية ص ١٩٤.

وتميزت الفتوح العربية بطابع خاص، لا نجد مثله لـــدى الفـــاتحين الذين جاءوا بعد العرب، فالبرارة الذين استولوا على العالم الروماني والترك وغيرهم، وإن استطاعوا أن يقيموا دولاً عظيمـــة، إلا أنهـــم لـــم يؤســـسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التـــي قهروها. ولكن العرب أنشأوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عـــن الحضارات التي ظهرت قبلها، وتمكنوا من حمل العناصر المختلفة الموجودة في الأمصار على اعتناق دينهم وتعلم لغتهم فضلا عن حضارتهم الجديـــدة، ولذا ظل نفوذ العرب بها ثابتا [١٩٨].

كانت حضارة العرب بعد الفتوحات العربيـــة الإســـلامية حـــضارة عظيمة، ويرجع سبب عظمتها إلى عاملين: أولهما بيئة العرب الحديثة التي تتيح للعرب فرصة التحضر و التمدن، وشتان بين الهلال الخـــصيب فـــي العراق والشام ووادي النيل وبين صحراء الجزيرة العربية. و العامل الثاني ذكاء العرب وحضارتهم الإسلامية وثقافتهم الأولى، فقد اســـتطاعوا أن يهضموا ويتمثلوا الحضارات التي وجدوها في الأمصار المفتوحة، في حين فشل غيرهم من الفاتحين، كالبرابرة مثلا، في هضم ما بقي من الحـــضارة اللاتينية[١٩٩].

يرجع إلى العرب الفضل في إنهاء نظام الطبقات البغيض الذي كان موجوذا في معظم الأمصار المفتوحة، وخاصة في الدولـــة الفارسية،فـــضلا عن إخراج الفرس من ظلمات المجوسية إلى نور الإسلام [٢٠٠].

---

[١٩٨] لوبون : حضارة العرب ص ١٧١ – ١٧٢.

[١٩٩] لوبون : حضارة العرب ص ٧٢١.

[٢٠٠] بارنولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٤

وصف المؤرخ العربي المسيحي المعاصر (الدكتور فيليب متى)[٢٠١] .

الإسلام بأنه حضارة عامة شاملة، تجعل كل من يعيش تحت سمائها في حرية وصفاء، وعيش غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة، وتربطهم بروابط المحبة و الأخوة، وقال أن المسيحيين قد استأذنوا السلطات الدينية في أن تكون المواريث في الشرق العربي هي نفس المواريث التي قرها الإسلام، فأذنت السلطات العربية بهذا .

تحدث (لوثرب ستودارد) في كتابه (حاضر العالم الإسلامي)عن الحضارة العربية الإسلامية وازدهارها، وقارن بينها وبين حضارة الغرب، فقال: ما كان العرب قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب في الاستلاب و التدمير، بل كانوا على الضد من ذلك، أمة موهوبة عظيمة الأخلاق و السجايا، فوافقت إلى ارتشاف العلوم محسنة في اعتبار نعم التهذيب، تلك النعم التي قد انتهت إليها من الحضارات السالفة، وكان اختلاط بعضهم ببعض سريعًا، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة وهي الحضارة العربية، ونفخ العرب فيها روحا جديدة فازدهرت وأينعت، مما أدى إلى اتحادها وتماسكها .وقد سارت الممالك الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠-١٠٠٠م) أحسن سير، فكانت أكثر أصقاع العالم حضارة ورقيًا وتقدمًا وعمرانًا، وما انفك الشرق الإسلامي خلال هذه القرون الثلاثة يرسل على الغرب النصراني نورًا.

وأوضح (جوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب أثر الفتح الإسلامي في بلاد الشام، فقال :استردت سورية أيام الحكم العربي ما أضاعته من الرخاء منذ زمن طويل، وبلغت درجة رفيعة من الرقي في

---

[٢٠١] فيليب متى : تاريخ العرب .

العهد الأموي والصدر الأول من العهد العباسي، وكان العدل بين الرعية دستور العربي السياسي ، وترك العرب الناس أحرارًا في أمور دينهم، وأظل العرب أساقفة الروم ومطرانه اللاتين بحمايتهم، فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقًا من الدعة والطمأنينة، وبلغت الصناعة والزراعة درجة رفيعة في سورية، وازدهرت بسرعة كبريات المدن السورية كالقدس وصور وصيدا ودمشق.

وتحت عنوان (طابع السيادة في الحضارة الإسلامية) ، كتب المؤرخ (توماس أرنولد) [٢٠٢] : أن ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح واسع النطاق، قد زعزع عقيدة الشعوب المسيحية التي أصبحت تحت حكمهم، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله ، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الإلهي، وأن إله الحرب لم يجعل النصر إلا في أيدي عباده المختارين، وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلاً على صدق دينهم.

أهل الذمة يساهمون في الحياة الاجتماعية:

العاطفة الاجتماعية هي العنصر الدائم في الشعوب الدينية ، حتى ليمكن أن نعرف الكائن المتدين بأنه كائن محب للاجتماع، ويرى (جان ماري جويو)[٢٠٣] أن اختلاف الأديان أنما يرجع خاصة إلى اختلاف النماذج الاجتماعية.

---

[٢٠٢]) الدعوة إلى الإسلام ص ٩٤.

[٢٠٣]) الدعوة إلى الإسلام ص ٩٤.

أتبع المسلمون سياسة التعايش الديني مما أدى إلى السلام والأمـــن، وقد نص القرآن الكريم على وجوب الحرص على هذا التعـــايش وحـــرص الخلفاء على هذه الروح الطيبة وقد حدثنا تاريخ عمر بن الخطاب بأنـــه قـــد أوصى رجاله بأن يعيشوا وأبناء الديانات الأخرى في وئـــام وســـلام ، وأن ينظروا إلي الإنسانية نظرة مشاركة، وأنها ميراث لكل فرد يعـــيش علـــى الأرض نصيبه منها. كما أعطي عمر أهل بيت المقدس الأمان العام للأرواح والأموال وسائر الملة والكنائس، فأصدر أمرًا مشددًا بألا تسكن الكنـــائس ، وألا ينقص منها، وألا يكره المسيحيون على دينهم، ولا يضار أحد منهم. كما أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج بغير المسلمة من أهل الذمة، وجعل لها مـــن الحقوق ما للزوجة المسلمة، فرخص لها بالبقاء على دينها،وعلى معتقداتها، بل وحرم على الزوج أن يكرهها على ترك دينها أو يمنعها من الذهاب إلى معبدها أو كنيستها، ولها الحرية في القيام بشعائر دينها[٢٠٤] .

احتفل أهل الذمة بأعيادهم في جو من الحرية والتـــسامح ، وكـــان المسلمون يشاركون في أعيادهم وخاصة النصارى منهم، فقد كانـــت هـــذه الأعياد فرصة طيبة لنزهة المسلمين، وخاصة أن الأديـــرة كانـــت تحفـــل بالحدائق الغناء والبساتين اليانعة[٢٠٥] ومزج المسلمون بين أعياد المسيحيين وأعياد الفرس، وبين الأعياد المسيحية والفصول، فقالوا أن الفـــصح وقـــت النيروز، والعنصرة وقت الحر، واميلاد وقت البرد، وعيد بزيـــادة وقـــت الأمطار، وعيد الصليب وقت قطاف العنب. ومن أمثال الناس في ذلك :(إذا

[٢٠٤]) التعايش الديني في الإسلام ص٣٧.

[٢٠٥]) الشابشتي: الديارات ص٦٠ .

جاء عيد بزيادة فليتخذ البناء زمارة) أي ليمكث كل فرد في بيته، (إذا جــاء القلندس فتدفأ واحتبس)

عن أبي حنيفة أنه قال: "أما نساؤهم فهن بمنزلة رجالهم في كل شيء، وأما صبيانهم فإنما يكونون مثلهم فيما يجب علــى الأرض خاصــة، فأمــا المواشي وما يمرون به من أموالهم على العاشر فلا شيء فيه عليهم إن أسلم التغلبي أو اشترى مسلم أرضه فإن العشر عليه مضاعفا. على الحال أولى.

ويعلق (ترتون) [٢٠٦] علي ذلك فيقول: والظاهر أن عمر بن الخطاب رأى أنه مما يعيب العرب أن تبقي جماعة منهم على غير الإســلام، فقــد أمــر زياد بن جرير الأسدي متولي الخراج أن يشتد في معاملة التغالبة لأنهم قوم من العرب وليسوا من أهل الكتاب. ولم يكن معنى ذلــك عــدم معــاملتهم بالعدل، بل أن العدالة كانت ملموسة موفورة.

****

[٢٠٦]) أهل الذمة في الإسلام، ص٩٤.

الفصل السابع

أهل الذمة في العصرين

العباسي والعثماني

تسامح الخلفاء العباسيين مع أهل الذمة:

تمتع أهل الذمة بالتسامح والحرية في العصر العباسي، وامتلأت بغـــداد بكثير من الأديرة أشهرها دير العذارى، وكان في قطيعة النصارى على نهر الدجاج، ودير درمايس الذي وصفه الشابشتي في كتابه (الديارات)، وكان به البساتين الكثيفة الأشجار، ويقصده الناس للنزهة، ودير الروم شرقي بغـــداد، الذي أشار أحد رهبانه على أبي جعفر المنصور ببنـــاء مدينتـــه فـــي هـــذا الموضع، وكان بالنسطوريين. وكان النصاري واليهود يقيمـــون شـــعائرهم الدينية في أديارهم وبيعهم في بغداد وخارجها في أمن وسلام، مما يدل علي أن الخلفاء العباسيين كانوا على جانب عظيم من التسامح الديني مـــع أهـــل الذمة.

وقد أوجدت الحاجة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق بـــين المسلمين واليهود والنصارى نوعًا من التـــسامح، ولـــم تتـــدخل الحكومـــة الإسلامية كذلك في شعائر أهل الذمة، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بحمايتهم[٢٠٧].

---

[٢٠٧]) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٢٩١.

تولى كثير من المسيحيين المناصب الكبرى في العصر العباسي، فتولى أبو إسحاق الصابي منصب (الكاتب) وكان من أسمى المناصب، كما كـان نصر بن هارون وزير عضد الدولة مسيحيًا. وبرز رجال مـسيحيون فـي بلاط الخلفاء العباسيين، أمثال: جبريل، سلامية، حنين بن اسحق، يوحنا بن ماسويه. أما الخليفة المعتضد الذي لم يكن يسمح لأحد، مهما كانت منزلتـه، بأن يجلس في حضرته، فقد أعطى هذا الحق لوزيره الذمي ثابت بن قرة.

كان المتوكل حقيقة أول خليفة عباسي يفرض على المسيحيين واليهـود أن يرتدوا أزياء تختلف عن أزياء المسلمين- ويعلق المؤرخ الهندي المسلم (خودانجش) على هذه السياسة فيقول: ولكن يجب ألا ننسي أن ذلك الخليفـة هو الرجل الذي اعتدى علي قبر الحسين وخالف أبرز تعاليم الإسلام، فهـل يمكن أن نعتبره نموذجًا لمعاملة قادة المسلمين؟ فقد أدت أعماله الـشيطانية إلي اشتهاره بأنه رجل فاسد. وفيما يتعلق بهذا الموضوع، يجدر بنا أن نتذكر أن المسلمين تعلموا من الشعوب المغلوبة كل ما استطاعوا أن يتعلموه، عدا محاكماتهم في عاداتهم وملابسهم، وإن كان هناك بعض الخلفاء قد اقتبـسوا بعض أزيائهم، وخير مثال على ذلك المأمون والمعتصم بالله.

ولكن المتوكل لم يكن متعصبًا، بل استعان ببعض الموظفين المسيحيين مثل دليل بن يعقوب النصراني. وكان للخليفة المقتدر أربعـة كتـاب مـن المسيحيين. وكان الكتاب المسيحيون منتشرين في كـل مكـان، حتـي أن محمد بن عبد الله بن طاهر في القرن الثالث الهجري اتخـذ لـه قهرمانيًـا نصرانيًا. وكان الحسين بن قاسم وزير الخليفة المقتدر (٣١٩هـ) يتقرب إلى النصارى الكُتّاب ويحسن معـاملتهم(٢٠٨) وكـان للخليفـة الطـائع (٣٦٣-

---

(٢٠٨) متز: الحضارة الإسلامية في القرن ٤هـ، ج١، ص٨٩.

٣٨١هـ) كاتب نصراني. وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري اتخذ كل من عضد الدولة (المتوفي سنة ٣٧٣هـ) في بغداد، والخليفة العزيز في القاهرة وزيرًا نصرانيًا. وقد استأذن نصر بن هارون وزير عضد الدولة سيده في عمارة البيع والأديرة وفي إطلاق المال لفقراء النصارى ، فأذن له.

وقد أفتى بعض فقهاء الإسلام بأنه يجوز أن يكون وزير التنفيذ، لا وزير التفويض، من أهل الذمة- فقد كان وزير التنفيذ لا يباشر الحكم ولا يقلد العمال ولا يدبر الجيش. أما وزير التفويض فهو الذي يفوض الخليفة إليه تدبير المملكة برأيه، ولم يكن وزير التنفيذ إلا سفيرا بين الخليفة والرعية.

اعترف المؤرخ (ترتون)[٢٠٩] بحسن معاملة أهل الذمة في العصر العباسي، فقال: " أن ذمية المرء لم تكن تحول قط بينه وبين تولي المناصب الدينية الرفيعة بين المسلمين، ولنسق دليلين على ذلك أحدهما هو الصوفي صاحب الكرامات معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠هـ، فقد خرج من صلب أب نصراني، وأما الأخر فهو الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي القاضي المجوسي الأب، وقد توفى الحسن سنة ٣٦٨هـ. وعلى أية حال، فقد كان النصارى في بعض الأحايين يؤثرون العيش في ظل الحكم الإسلامي على العيش في ظل إخوانهم المسيحيين".

---

[٢٠٩]) الشابشتي: الديارات ص٦٠ .

أهل الذمة والمناصب الكبرى:

اشتهر من بين أهل الذمة في العصر العباسي كثير من العظماء، مثل جرجيس بن بختيشوع طبيب الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وقد وثق الخليفة فيه وأكرمه. ومن هؤلاء جبرائيل بن بختيشوع طبيب هارون الرشيد، الذي قال الرشيد عنه: كل من كانت له حاجة إلي فليخاطب بها جبريل لأني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني- وكان مرتب الطبيب عشرة آلاف درهم شهرياً. ومن هؤلاء أيضًا (ماسويه) الذي كان الرشيد يجري عليه ألف درهم سنوياً، ويصله كل سنة بعشرين ألفاً. وأشاد (ترتون)[٢١٠] بتسامح المسلمين فقال: والكُتّاب المسلمون كريمون في تقدير فضائل هؤلاء من على غبر ملتهم حتي ليسمون حنين بن اسحق برأس أطباء عصره، وهبة الله بن تلميذ بأبو قراط عصره وجالينوس دهره.

وكان بختيشوع بن جبرائيل ينعم بعطف الخليفة المتوكل حتى أنه كان يضاهيه في ملابسه وفي "حسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة ومباراته في الطيب والجواري والعبيد". ولما مرض (سلموية) بعث المعتصم ابنه لزيارته، ولما مات أمر بأن تحضر جنازته إلى القصر، وأن يصلي عليه بالشموع والبخور جريا على عادة النصارى، وامتنع المعتصم، يوم موته، عن أكل الطعام.

أما يوحنا بن ماسويه، فقد خدم الخلفاء العباسيين منذ الرشيد إلى المتوكل، وكان لا يغيب قط عن طعامهم، فكانوا لا يتناولون شيئا من

[٢١٠]) الشابشتي: الديارات ص٦٠ .

أطعمتهم إلا بحضرته، ومن ثم لم تكن هناك أدنى كلفة بينه وبــين الخليفــة المتوكل، فكان الخليفة يداعبه في رفق ولين .

واشتهر من بين أهل الذمة كثير في ميــدان الآداب والفنــون، فيقــول (ترتون) : ظلت علاقات العرب برعاياهم في ميدان الآداب والفنون علاقات طيبة قائمة على المودة خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، بل إن كثيرا من هذه الفترة، وقد اصطنعت الحكومة مهندسين وعمالاً من غير المسلمين .

درس كثير من الذميين على أيدي مدرسين وفقهاء مسلمين. من ذلك أن حنين بن أسحق درس على يد الخليل بن أحمد وسيبوية حتى أصبح حجة في العربية [٢١١]. وتتلمذ يحيي بن عدي بن حميد- أفقه رجــال عــصره فــي المنطق- على بد الفارابي. ودرس ثابت بن قرة على محمد بن موسي الذي قدمه إلى الخليفة المعتضد العباسي. وتلقى ابن جزلة علومه على يد على بن الوليد من رجال المعتزلة، وكان حسن الخط متمكنا من الأدب، وتدل مؤلفاته وكتبه على عمق تفكيره وقوة معرفته، وما لبث أن اعتنق الإسلام[٢١٢].

ويضرب المؤرخ (ترتون) [٢١٣] لتسامح العباسيين مع أهل الذمة مــثلا فيقول: يمكن اتخاذ إبراهيم بن هلال مثالاً لما قد يصير إليه الذمي من بلوغ أرفع المناصب في الدولة، فقد تقلد إبراهيم الأعمال الجليلة فامتدحه الشعراء، وعرض عليه عز الدولة باختيار بن معز الدولة البويهي أن يوليه الــوزارة إن أسلم فامتنع، وكان إبراهيم بن هلال حسن العشرة مع المسلمين عفيفًا في

---

[٢١١]) الأصفهاني: الأغاني، ج٨، ص١٣٦، في الحاشية.

[٢١٢]) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج١، ص١٨٥.

[٢١٣]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٥٦.

مذهبه، وكان بينه وبين الصاحب إسماعيل بن عبـــاد والـــشريف الرضـــي مراسلات ومواصلات، رغم اختلاف الملل، وكان إبراهيم حافظًا للقرآن.

واهتم الكتاب المسلمون بالأديان والمذاهب، فكان ابن حـــزم الأندلـــسي (٤٥٦هـــ=١٠٦٤) مُلمًا بالإنجيل واللاهوت المسيحي إلمامًا تامًا. وألمَّ ابـــن خلدون بالإنجيل والتنظيمات الكنسية، وتحدث عن بعضها في مقدمته. وكان القلقشندي يرى ضرورة معرفة الكاتب بأعيـــاد الـــذميين الدينيـــة. وذكـــر المقريزي كثيرًا من التفاصيل عن أعياد النصارى واليهود، وتحـــدث عـــن فرقهم المختلفة، وذكر أسماء بطارقة الإسكندرية. وتحدث كل من القزويني والمسعودي عن طوائف أهل الذمة، نرى هذا واضحا في كتـــاب (التنبيـــه والأشراف للسعودي).

واعترف (ترتون) [٢١٤] بتسامح الحكام المسلمين فقـــال" كـــان ســـلوك الحكام المسلمين في الغالب أحسن من القانون المفروض عليهم تنفيذه علـــى الذميين، وليس أدل على ذلك من كثرة استحداث الكنائس وبيوت العبادة في المدن العربية الخالصة، ولم تخل دواوين الدولة قط من العمـــال النـــصارى واليهود، بل إنهم كانوا يتولون في بعض الأحيان أرفع المناصب وأخطرها، فاكتنزوا الثروات الضخمة وتكاثرت لديهم الأموال الطائلـــة، كمـــا اعتـــاد المسلمون المساهمة في الأعياد المسيحية.

---

[٢١٤]) أهل الذمة في الإسلام، ص٢٥٦.

إقبال أهل الذمة على الإسلام في عهد المأمون العباسي:

من الوثائق التاريخية، وثيقة إسلامية تعود إلى عصر المأمون العباسي (١٩٨- ٢١٨هـ)، وهي رسالة كتبها عبد الله بن إسماعيل الهاشمي، وهو ابن عم الخليفة، إلى عربي مسيحي كريم المحتد، هو المسيح بن إسحاق الكندي، وكان له منزلة كبيرة في البلاط، وموضع احترام وتقدير الخليفة. وهذه الوثيقة هي صورة واضحة من صور الدعوة إلى الإسلام، وقد تحدث المؤرخ (توماس أرنولد)[٢١٥] عن هذه الوثيقة فقال: "وفي هذه الرسالة يرجو ابن عم الخليفة من صديقه المسيحي أن يدخل في الإسلام، وكان رجاؤه في لهجة تنم عن الود، وفي لغة تصور بوضوح مسلك المسلمين السمح تجاه الكنيسة المسيحية في ذلك العصر".

وإن كان الخليفة المأمون يرغب غير المسلمين في اعتناق الإسلام، إلا أنه لم يكن يرضى أن يعتنقه أحدهم إلا عن اقتناع تام وقبول حقيقي ، وكثيرًا ما هاجم المأمون في مجالسه هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام لغرض دنيوي، وكان يشبههم بالمنافقين في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. ويعلق (أرنولد) على موقف المأمون هذا فيقول: "وهذا يدلنا على أن المسلمين كانوا ينتظرون ويرجون ممن دخلوا الإسلام حديثاً، اقتناعا بريئًا خالصًا، كما تدلنا على أن اكتشاف الأنانية والبواعث الدنيئة في اعتناقه للدين قد جرت عليهم أشد ألوان اللوم والتقريع".

---

[٢١٥] الدعوة إلى الإسلام ص١٠٤.

ووجه المأمون اهتمامه إلى الشعوب التي كانت تسكن في الأطراف الشرقية من الدول العباسية وخاصة بلاد ما وراء النهر فقد ترك الحرية الدينية التامة في اعتناق الإسلام، وكانت لهذه السياسة الرشيدة الحرة أثرها في إقبال كثير من الذميين على الإسلام في حرية تامة.

وتحدث المؤرخ (ترتون) [٢١٦] عن التسامح في عهد المأمون العباسي وضرب لهذا التسامح مثلا فقال: وفي زمن خلافة المأمون، كان هناك نصراني يدعى (بكام) من أثرياء بورة من أعمال مصر، فإذا كان يوم الجمعة لبس السواد – وهو شعار العباسيين – وتقلد السيف، وامتطى حصانه ومضي إلى الجامع وبين يديه رجاله، حتى إذا بلغ باب المسجد وقف وأنفذ رسولاً مسلمًا من قبله دخل الجامع وصلى بالناس. ويضرب المؤرخ (ترتون) [٢١٧] أيضاً مثلا آخر، فيقول: وفي عهد المأمون أعيد ترميم الديارات في وادي النطرون، وقام بعض حجاب المأمون بإعادة بناء كنيسة العذراء بناحية القنطرة، واستطاع مسيحيان الحصول على إذن يخول لهما بناء كنيسة على جبل المقطم، لأن الكنائس الموجودة بالقلعة كانت شديدة البعد، وفي هذه الحقبة شيد(بكام)أحد أثرياء نصارى بوره) عدة كنائس رائعة في بلدته.

---

(٢١٦) أهل الذمة في الإسلام ص١٢٥.

(٢١٧) المصدر السابق ص٥١.

المجوس في العصر العباسي وإقبالهم على الإسلام:

تناقص عدد المجوس في العصر العباسـي، وأقبـل كثيـر منهم على الإسلام. وإن بقاء طائفة المجوس طـوال العـصر الأمـوي وفتـرة من العصر العباسي لدليل واضح دامـغ علـى تـسامح المـسلمين وعـدم لجوئهم إلى القوة في نشر الإسـلام. وقـد شـهد أواخـر القـرن الثالـث الهجري (نهاية القـرن الثـامن المـيلادي) دخـول أعـداد كبيـرة مـن المجوس في الإسلام. فقـد أسـلم سـامان أميـر بلـخ، وكـان مجوسـياً زرادشتيا، وأسس مملكة إسـلامية هـي الدولـة الـسامانية. وفـي سـنة ٨٧٣ دخل جمع كبير من أهل الديلم الزرادشتيين في الإسـلام علـى يـد ناصر الحق أبي محمد. وفي سنة ٩١٢م دعا الحـسن بـن علـي – مـن الأسرة العلوية التي كانت تحكم الشاطئ الجنوبي لبحـر قـزوين – أهـل الديلم وطبرستان إلـى الإسـلام، فاسـتجاب معظمهـم، وكـان بعـضهم وثنيين والبعض الأخـر زرادشـتيين. وفـي سـنة ٣٩٤هـــ (١٠٠٣م) أعتنق الشاعر المشهور مهيـار الـديلمي الإسـلام علـى يـد الـشريف الرضـي، وكان من عبدة النار. وقبله وفي أوائـل القـرن الثـاني للهجـرة خرج من الزرادشتيين إلى الإسلام عبد الله بن المقنع.

تحدث المؤرخ (توماس أرنولد) [٢١٨] عن تحـول المجـوس إلـى الإسلام فقال على الرغم من قلة المعلومـات التـي وصـلت إلينـا عـن تحول المجوس إلى الإسلام فيبدو أن إنتحالهم لهـذا الـدين كـان بمحـض إرادتهم كما يظهر، أن إتباع ديانـة ذرادشـت قـد تمتعـوا بوجـه عـام بالحرية الدينية إلى نهايـة العـصر العباسـي، وعومـل المجوسـي فـي

---

[٢١٨] الدعوة إلى الإسلام ص٣٤٠.

القرن الرابع الهجري كأهل ذمة فكان لهم كاليهود والنصارى رئيس يمثلهم.

في قصر الخلافة وعند الحكومة. وعاش المجوس في هذا القرن في ظل التسامح الإسلامي، وذكر الرحالة (المقدسي) أنه لم ير في مدينة شيراز مجوسياً يرتدي رداء يميزه عن غيره، وكانت الأسواق تزين في أعياد المجوس.

صداقة الدولة العباسية لدولة الفرنجة:

كانت الدولة العباسية أحسن دول العالم وأكثرها هيبة وحضارة وأوسعها رقعة، وقد أخذت بفكرة الدبلوماسية الإسلامية التي تربط الأمم والحكومات بعضها ببعض، فتبادل الخلفاء مع ملوك هذه الدول الهدايا والرسائل، كما ظهر تبادل ثقافي ظهر واضحاً في حركة ترجمة واسعة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، ونقل أمهات المؤلفات العربية إلى لغات أجنبية، ووقف الملوك الأجانب على حقيقة روح الإسلام القائمة على التسامح والمودة والحرص على السلام.

تقرب (شارل مارتل) ملك الفرنجة إلى الخليفة العباسي المهدي ليكتسب شيئًا من النفوذ في بلاده، وجنى (شارلمان) ثمار هذه السياسة، فاكتسب محبة هارون الرشيد. وخطب شارلمان ود الرشيد فأرسل إليه وفدًا مؤلفًا من رجلين من النصارى ورجلاً من اليهود، لتسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس، ونشر التجارة بين البلدين، والحصول على علوم الشرق. وأدت هذه السفارة إلى إرسال مفاتيح

كنيسة بيت المقدس إلى شارلمان، وتبادل الهدايا بينه وبين الرشيد. وكان من الهدايا التي أرسلها الرشيد إلى شارلمان تلك الساعة المائية الدقاقة التي ظنوا أنها آلة سحرية، وغيرها من هدايا الشرق النادرة.

ورغم أنه كثيرًا ما كانت الدولة العباسية تصطدم بالدولة البيزنطية، إلا أنه أحياناً تسود فترات هدوء ومهادنة. ومن أمثلة ذلك الرسالة التي بعث الإمبراطور (ثيوفيل) إلى الخليفة المأمون العباسي بصدد تبادل الأسرى، وقد قال فيها: "وقد كبت إليك داعيا إلى المسألة، راغباً في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ويكون كل واحد لكل واحد وليًا وحزبًا، مع اتصال المرافق والفسيح في المتاجر وفك الأسرى وأمن الطريق".

ومن أمثلة المودة الطيبة بين المسلمين والمسيحيين، كتاب بطريق القسطنطينية إلى أمير كريت المسلم إبان تبعيتها للدولة الإسلامية وقد جاء فيه: "... إلى الأمجد الأغر الأشرق أمير جزيرة كريت: إن أعظم قوتي العالم أجمع، قوة العرب، وقوة الروم، تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر في السماء، وبهذا وحده يجب أن نعيش أخوة، على الرغم من اختلافنا في الطبائع والعادات والدين".

المسيحيون في ظل الحكم العثماني الإسلامي:

تحت عنوان (علاقات الأتراك برعاياهم المسيحيين قائمة على التسامح) كتب المؤرخ (توماس أرنولد) [٢١٩]: باشر العثمانيون

[٢١٩] الدعوة إلى الإسلام ص١٧٠.

السلطة على الرعايا المسيحيين منـذ الأيـام الأولـى التـي قـاموا فيهـا بتوسيع مملكتهم في آسيا الـصغرى. ولـم تكـد حاضـرة الإمبراطوريـة الشرقية القديمة تسقط في أيدي العثمانيين سـنة ١٤٥٣م، حتـى توطـدت العلاقات بين الحكومة الإسـلامية والكنيـسة المـسيحية بـصفة قاطعـة وعلى أساس ثابت. ومن أولى الخطـوات التـي اتخـذها محمـد الثـاني بعـد سـقوط القـسطنطينية وإعـادة النظـام فيهـا، أن يـضمن ولاء المسيحيين، بأن أعلن نفسه حامي الكنيـسة الأفريقيـة، فحـرم اضـطهاد المسيحيين تحريماً قاطعاً، ومنح البطريق الجديـد مرسـوماً يـضمن لـه ولأتباعه ولمرءوسيه مـن الأسـاقفة حـق التمتـع بالامتيـازات القديمـة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق.

ولم يقتصر المسلمون في معاملة رئيس الكنيسة علـى مـا تعـود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من تـوقير وتعظـيم، بـل كـان متمتعـاً أيضاً بسلطة أهلية واسعة، فكان من عمـل البطريركيـة أن تفـصل فـي القضايا التي تتعلـق بـالإغريق بعـضهم مـع بعـض. بينمـا صـدرت الأوامر إلى الوزراء وموظفي الحكومـة بتنفيـذ هـذه الأحكـام وكانـت المراقبة التامة على الشئون الروحية والكنيسة (وهـي التـي لـم تتـدخل فيها الحكومة التركية مطلقاً بعكس السلطة المدنيـة التـي كانـت مخولـة للدولة البيزنطية) متروكة كلها فـي أيـدي البطريـق وأعـضاء المجمـع الأعظم، وكان في استطاعة البطريـق أن يـدعوهم متـى شـاء. كـذلك كان في استطاعته أن يفصل في كل شئون العقيدة والـشريعة مـن غيـر أن يخشى تدخلاً من جانب الحكومة. ولما كـان هـذا البطريـق معترفـا به موظفاً من موظفي الحكومة السلطانية، كان يـستطيع أن يقـوم بعمـل

كبير في رفع الظلم عن المظلومين بــأن يوجــه أنظــار الــسلطان إلــى أعمال الحكام الظالمين.

كذلك عومل الأســاقفة مــن الإغريــق فــي الولايــات معاملــة تنطوي على رعاية بالغة، وعهــد إلــيهم كثيــراً مــن القــضايا المتعلقــة بشئونهم المدنية، إلى حد أنهم ظلوا حتى عــصور حديثــة يعملــون فــي أسقفياتهم كما لو كانوا عمالاً مــن الأتــراك الأرثــوذكس، وبــذلك حلــوا محل الأرستقراطية المسيحية القديمة، التي استأصل الغزاة شأفتها.

كان من أثــر ذلــك، أن الإغريــق، ولــو أنهــم كــانوا يفوقــون الأتراك عددًا في كل الولايات الأوروبيــة التابعــة للدولــة، قــد جعلهــم التسامح الديني الذي رخص لهم، وما تمتعــوا بــه مــن حمايــة لحيــاتهم وأموالهم، يسرعون في الموافقــة علــى تغييــر ســادتهم وإيثــار ســيادة السلطان على سيادة أية سلطة مــسيحية. وكــان الغــزاة العثمــانيون فــي بقاع كثيرة من المملكة يلقون ترحيبًا مــن جانــب الإغريــق، ويعــدونهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المــستبد، حكــم الفرنجــة وأهــل البندقيــة الذين طال نــزاعهم مــع بيزنطــة حــول ملكيــة (البلوبــونيز) وبعــض الجهات المجاورة لبلاد اليونان، فقــد صــيروا الــشعب فــي حالــة مــن العبودية يرثى لها، بإدخالهم نظــام الإقطــاع فــي اليونــان، كمــا كــانوا مكروهين من رعاياهم لاختلافهم عــنهم فــي اللغــة والجــنس والعقيــدة، ووجد هؤلاء الرعايا أن أي تغيير لحكــامهم، طالمــا لا يمكــن أن يــنقلهم إلى حالة أسوأ مما هم عليه، وقد يهــيء لهــم فرصــة ممكنــة لتحــسين هذه الحالة.

ويعدد (أرنولد)[٢٢٠] مظاهر تـسامح العثمـانيين فـي معـاملتهم للمسيحيين فيقول: حدثنا المـؤرخ البيزنطـي الـذي روى قـصة سـقوط القسطنطينية، كيف كان بايزيد الـصارم نفـسه، رحـب الـصدر، كـريم الخلق مع رعاياه المسيحيين، وكيف جعلهم يألفونه ألفة تامـة بـأن سـمح لهم بالتردد على مجلسه في حريـة تامـة. وقـد اشـتهر مـراد الثـاني بعنايته في تحقيق العدالة بإصـلاحه للمفاسـد التـي سـادت فـي عهـد الأباطرة الإغريقيين، وعاقب في غير هـوادة أي موظـف مـن موظفيـه استبد بأي من رعاياه. لهذا رأينا بعد سـقوط القـسطنطينية بقـرن علـى الأقـل، طائفـة مـن الحكـام الـصالحين، واسـتطاعوا بفـضل الإدارة الحازمة الصارمة أن ينـشروا الأمـن والنظـام فـي المقاطعـات كلهـا، ووجدنا تنظيمًا رائعًا في الشئون المدنية والقضائية.

المسيحيون في المجتمع العثماني

فتحت الدولة العثمانية كثيـرًا مـن الأقطـار الأوروبيـة التـي يدين معظم أهلها بالدين المسيحي، وقد عـاش الرعايـا المـسيحيون إلـى جانب العثمانيين المسلمين فـي مجتمـع واحـد تظللهـم سـماء الحريـة والتعاون. واعترف المؤرخ (أرنولد) بهذه الحقائق فقـال: وفيمـا وصـل إلينا من الأخبار التـي تتعلـق بالـصلات الاجتماعيـة بـين النـصارى والمسلمين وعدم وجود حدود فاصـلة تميـز بـين الفـريقين، نجـد مـا يرشدنا إلى الحالة التي ظفـرت فيهـا المـؤثرات الإسـلامية تـدريجيا،

---

[٢٢٠] الدعوة إلى الإسلام ص١٧٣.

بداخلين في الدين من بين الأهالي المسيحيين، الأمـــر الـــذي يرجـــع إلـــى تدهور قوة الكنيسة وحياتها الروحية.

وكان قد أصبح من الشائع المعروف لـــدى الأســـر المـــسيحية أن تزوج بناتها من المسلمين، ولـــم تعتـــرض النـــساء المـــسيحيات، وتربـــى الأطفال من الذكور الـــذين نـــشأوا عـــن هـــذا الـــزواج المخـــتلط تربيـــة إسلامية، أما البنات فقد سمح لهن أن يتـــبعن ديـــن أمهـــاتهن. ولـــم يكـــن لمثل هذا السماح تأثير من الوجهة العمليـــة مـــن رجـــال الكنيـــسة الـــذين أمروا أن يحرم الأمهـــات مـــن دخـــول الكنـــائس ومـــن الاشـــتراك فـــي القرابين المقدسة. وكان من أثـــر ذلـــك (علـــى الـــرغم مـــن أن خريـــي الكنائس طالما كانوا يغضون النظـــر عـــن أوامـــر رؤســـائهم) أن كثيـــراً من أولئك الأمهات قد دخلت في دين أزواجهن.

كذلك يتضح هذا الشعور الطيب بين أفـــراد الـــديانتين بمـــا أبـــداه المسلمون في أعياد القديسين من النصارى، فمـــثلاً يقـــول (مـــاركوبتزي) أنه في يوم عيد القديس إيليا وفد على الكنيسة من المـــسلمين عـــدد كبيـــر يماثل عدد الذين وفـــدوا عليهـــا مـــن النـــصارى. وتحـــدثنا الأخبـــار أن المسلمين الألبانيين حتى الوقت الحاضر يعظمـــون مـــريم العـــذراء، كمـــا أن المسيحيين يترددون على قبور أولياء المـــسلمين بقـــصد الـــشفاء مـــن الأمراض أو الوفاء بالنذور. وفي مدينة (كالفاتـــشي) حيـــث كـــان هنالـــك ستون أسرة مسيحية وعشر أســـرات مـــن المـــسلمين، ســـاهم المـــسلمون في إعانـــة كـــاهن أبرشـــية، إذ كـــان للـــسواد الأعظـــم مـــنهم زوجـــات مسيحيات.

كانت الأقطار المسيحية الخاضعة للحكم العثماني أحسن حكمًا وأكثر رخاء من معظم جهات أوروبا المسيحية، وكانت جمهرة السكان المسيحيين الذين اشتغلوا بزراعة الأراضي ينعمون بقدر كبير من الحرية الشخصية، كما كانوا ينعمون بثمار جهودهم في ظل حكومة السلطان أكثر مما كان ينعم به معاصروهم في ظل كثير من الحكام المسيحيين.

وهناك وثيقة تاريخية كتبها (مقاربوس) بطريق أنطاكية اعترف فيها بتسامح العثمانيين، جاء فيها: "..أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد، فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين، يهودا أو سامرة".

وأدى هذا التسامح إلى دخول أعداد كبيرة من المسيحيين في الإسلام فيقول (أرنولد) [٢٢١]: وكثير ما أنحاز الأمراء البيزنطيون وغيرهم إلى صفوف المسلمين، ووجدوا منهم ترحيبًا كبيرًا. ومن أسبق أمثال هذه الحالات ما يرجع تاريخه إلى سنة ١١٤٠م عندما أسلم ابن أخي الإمبراطور (جون كومنين) وتزوج إحدى بنات مسعود سلطان قونية. وبعد سقوط القسطنطينية أظهرت الطبقات العليا من المجتمع المسيحي من الاستعداد لاعتناق الإسلام ما يفوق بكثير استعداد جمهرة اليونان، فتجد من بين الداخلين في الإسلام عددا كبيراً ينتمون إلى بيت (باليولوجوس) الإمبراطوري، كما هجر العالم (جورج أميرو تزيس الطرابيزوني) المسيحية. وأصبح الدين

[٢٢١] الدعوة إلى الإسلام، ص١٧٦.

الإسلامي في ذلك الحـين الملجـأ الطبيعـي لأفـراد الكنيـسة الـشرقية، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا صـورة مـن العقيـدة أنقى وأبسط خلفتها الهرطقة البوليثية.

وقد كانت هذه الحركة إلـى حـد كبيـر احتجاجًـا علـى تقاليـد الكنيسة الأرثوذكسية وعلى عبادة الـصور والمخلفـات الأثريـة المقدسـة والقديسين، كما كانت تتوخى بساطة العقيدة وحياة الورع والخشوع.

وحفظ (أرنولد) [٢٢٢] ما كتبه مؤلف معاصر للعصر العثماني فقد وصف دخول أعداد كبيرة من المسيحيين في العقيدة الإسلامية، وذكر دوافعهم إلـى ذلك، فكتب: "عندما تخالطون الأتراك في مجرى حياتهم العاديـة، تـراهم يقيمون الصلاة، ويرتلون مزامير داود، ويمنحون الصدقات ويدفعون غيـر ذلك من أعمال الخير، ويعتقدون في المسيح اعتقادًا ساميًا، ويتناولون التوراة في شرف عظيم، إلى غير ذلك، هذا فضلاً عن أنه كان يمكن أن يصير أي جاهل، خورى كنيسة، إذا سعى إلى الباشا التركي بالهدايا، ولن يحضكم هذا الخوري كثيراً على المسيحية. حينئذ سوف تنتهون إلى التفكير في أنهم قوم صالحون، وأن من الممكن جدًا أن يدركهم الخلاص، وسوف تنتهـون إلـى الاعتقاد بأن من الممكن أن يدركم الخلاص كذلك إذا ما صرتم مثلهم أتراكًا مسلمين، بذلك سوف يمحي من أذهانكم في سهولة يسر سر الثالوث المقدس، وابن الله المصلوب، وسائر أسرار الدين الكثيرة التي يلوح أنها غير معقولة بصورة ما في نظر الشخص الأمي. وإذا بروح المسيحية تسوت في نفوسكم من حيث لا تشعرون، وإذا بكم ترون أنه سواء عليكم أن تدينوا بالمسيحية أو بالإسلام".

---

[٢٢٢] الدعوة إلى الإسلام، ص١٩٢.

الفصل الثامن

أهل الذمة في مصر الإسلامية

موقف الأقباط من الفتح الإسلامي:

كان العرب يترددون على مصر كثيرًا مـــن قبـــل الإســـلام، فقـــد وفد إلى صعيد مصر منذ أقـــدم العـــصور كثيـــر مـــن التجـــار العـــرب، وذلك عن طريق البحر الأحمر ووديـــان الـــصحراء الـــشرقية، حتـــى أن المؤرخ والجغرافي اليوناني سترابون المتوفي نحو ســـنة ٢٥م قـــال عـــن مدينة فقط في الصعيد أنها مدينة نصف عربية.

فتح عمرو بن العاص العريش بدون مقاومة، ثـــم اســـتمر زحفـــه دون اشتباك مع جند الـــروم حتـــى وصـــل إلـــى الفرمـــا (أو بلـــوزيم)، وكانت وقتئذ مفتاح مصر، وبها كثير من الحـــصون، فحاصـــرها عمـــرو شهرًا حتى فتحها سنة ١٩هـــ. ثم زحف العـــرب إلـــى بلبـــيس ففتحوهـــا بعد شهر أيضًا. ويذكر المؤرخون أن أرمانوســـة بنـــت المقـــوقس حـــاكم مصر الروماني كانت تقيم بها، فأعادها عمر إلى أبيهـــا بعـــد أن أكرمهـــا مما أدى إلى إعجاب القبط به. وتقدم عمـــرو إلـــى أم دنـــين[٢٢٣]، حيـــث

[٢٢٣] تبقى للروم أرضهم وأموالهم.

دارت معركة عنيفة مع الـــروم، ثـــم حاصـــر حـــصن نـــابليون، فطلـــب المقوقس الصلح، وعقد الطرفان صلحاً أهم شروطه:

١. يدفع كل قبطي فـــي مـــصر للمـــسلمين دينـــارين مـــع اســـتثناء الشيوخ والنساء والصبيان.

٢. للمسلمين حق الضيافة على الروم، فمـــن نـــزل عليـــه ضـــيف أو أكثر من المسلمين كان عليه ضيافته ثلاثة أيام.

٣. تبقى للروم أرضهم وأموالهم.

وافق الخليفة عمـــر بـــن الخطـــاب علـــى هـــذه الـــشروط، أمـــا الإمبراطور فإنه رفضها، بل بعـــث يـــوبخ المقـــوقس ويلومـــه، ويـــأمره بمعاودة قتـــال العـــرب. ولكـــن العـــرب تمكنـــوا مـــن اقتحـــام حـــصن بابليون،وبدأ عمرو زحفـــه نحـــو الإســـكندرية عاصـــمة مـــصر حينئـــذ، فحاصرها ١٤ شهراً، وفتحها. وكانت وفاة هرقـــل خـــلال الحـــصار ممـــا أدخل اليأس في قلوب الروم، كمـــا أن أهـــل الإســـكندرية كـــانوا حـــانقين على الروم لما عانوه من اضطهاد دينـــي، كمـــا أن المقـــوقس أقـــنعهم أن الحكم أكثر عدلاً من حكم الرومان.

عقد المقوقس مع عمرو معاهدة صلح أهم شروطها:

١. يدفع كل قبطي جزية قدرها دينارين ســـنوياً مـــع إعفـــاء الـــشيوخ والنساء والأطفال.

٢. عقد الهدنة ١١ شهراً.

٣. أن يكف العرب والروم عن القتال.

٤. أن يحترم العرب الكنائس والطقوس المسيحية.

٥. بقاء اليهود في الإسكندرية.

٦. ألا يحاول الروم استرداد مصر.

٧. أن يحتفظ المسلمون برهائن من الروم ١٥٠ جندياً و٥٠ ملكياً.

٨. أن يرحل الجند الروم عن الإسكندرية بأموالهم وممتلكاتهم.

كان هذا الصلح بمثابة اعتراف بأن مصر أصبحت ولاية عربية إسلامية تتبع الدولة العربية الإسلامية، وأصبحت مصر تتجه نحو المدينة بالحجاز، بعد أن كانت تتجه نحو القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية.

كان الروم من سكان مصر أكثر الطبقات مقاومة للفتح العربي، وهذا طبيعي فقد اعتبر الروم مصر ضيعة لهم يستغلونها أسوأ استغلال. أما اليهود فقد وقفوا على الحياد من صراع الروم والعرب، فقد كان اليهود يمارسون نشاطاً اقتصادياً واسع النطاق، وكانوا يحرصون على مصالحهم الاقتصادية فلم يزجوا بأنفسهم في صراع لا يعود عليهم إلا بالضرر، وكان سيان عندهم من ينتصر

سواء العرب أو الروم. وكافأ عمرو بن العــاص اليهـود علـى حيـادهم فنص في معاهدة الصلح على السماح لهم بالبقاء في الإسكندرية.

أما الأقباط المصريون فقد رحبوا بـالفتح العربـي فقـد رأوا فيـه خلاصاً من اضطهاد الروم البيـزنطيين لهـم. وكـانوا يـسمعون الكثيـر عن تسامح العرب وحـسن معـاملتهم للمـسيحيين فـي الـشام. وذكـر المؤرخ ابن عبد الحكم صورًا كثيـرة لترحيـب الأقبـاط العـرب، فممـا ذكره هذا المؤرخ: "وكان بالإسكندرية عند الفتح أسـقف للقـبط يقـال لـه بنيامين، فلما بلغه قدومه – أي عمرو – إلى مـصر، كتـب إلـى القـبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة، وأن ملكهم قد أنقطـع، ويـأمرهم بتلقـي عمرو، فيقال أن القبط الـذين بالفرمـا كـانوا يومئـذ لعمـرو أعوانـاً". وذكر ابن عبد الحكم في مكان آخر من كتابـه: "أن عمـرو بـن العـاص قد خرج بالمسلمين حتى أمكنهم الخـروج مـن حـصن بـابليون ومعـه جماعة من رؤسـاء القـبط، وقـد أصـلحوا لهـم الجـسور والأسـواق، قاصدين الإسكندرية"(٢٢٤).

لكن مساعدة الأقباط للجيش العربي لـم تكـن العامـل الأساسـي الذي سهل انتصارهم على الروم، فإن هذا النـصر يرجـع إلـى عـاملين أساسيين، **أحدهما** معنوي ويتعلق بتـأثير الإسـلام فـي نفـوس القبائـل العربية الإسلامية. والعامـل **الثـاني** مـادي يتعلـق بظـروف مـصر الداخلية، فقد كانـت تعـاني مـن اضـطهاد البيـزنطيين، إلـى جانـب ظروف الدولة البيزنطية، فلم يكن بين شعوبها ارتبـاط أو تـآلف. وكـان

---

(٢٢٤) فتوح مصر، ص٥٣- ٥٤.

العرب يجيدون بعض الفنون الحربية التـــي لا يجيـــدها خـــصومهم مثـــل فن الرماية، وكان معظم جند العرب مـــن الفرســـان، بينمـــا معظـــم جنـــد الروم مشاة ويستعملون العـــدد الثقيلـــة التـــي تعـــوق حـــركتهم. وامتـــاز العرب عن الروم بالصبر علـــى مـــشاق القتـــال والاكتفـــاء بقليـــل مـــن الزاد، إلى جانب الحماسة الدينية[٢٢٥].

تسامح العرب مع أقباط مصر:

لا شـــك أن موقـــف الأقبـــاط الـــسلمي جعـــل الفـــاتحين العـــرب يعاملونهم معاملة طيبة، فقد خيروهم بين الإسلام أو البقـــاء علـــى ديـــنهم مقابل دفع جزية. فإذا أسلموا صار لهـــم حقـــوق المـــسلمين وواجبـــاتهم، أما إذا تمسكوا بدينهم صارت لهـــم حريـــة ممارســـة شـــعائرهم الدينيـــة مقابل دفع دينـــارين ســـنوياً، وأعفـــي مـــن الجزيـــة النـــساء والأطفـــال والشيوخ، وكتب عمرو للأقبـــاط عهـــدًا بحمايـــة كنيـــستهم، كتـــب أمانـــا للبطريق بنيامين وأعاده إلـــى وظيفتـــه بعـــد أن نفـــاه الـــروم ١٣ ســـنة، واستقبله عمرو عند عودته إلى الإسكندرية استقبالاً حافلاً.

يعترف المؤرخ (توماس أرنولـــد) [٢٢٦] بحـــسن معاملـــة العـــرب للمسيحيين فيقول: يرجع النجاح الذي أحرزه الفاتحون العـــرب قبـــل كـــل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المـــسيحيين الـــذين كرهـــوا الحكـــم البيزنطي، لما عرف به من الإدارة الظالمة وممـــا أضـــمروه مـــن حقـــد

---

[٢٢٥] علي إبراهيم: مصر في العصور الوسطى، ص١٦.

[٢٢٦] الدعوة إلى الإسلام، ص٩٢.

مرير على علماء اللاهوت، فإن اليعاقبة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكس التابعين للبلاط، الذين ألقوا بذور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم.

ترك العرب الأرض للمصريين، وتعهدوا بحمايتهم وتأمينهم، وأعاد العرب إلى مصر الأمن والهدوء والاستقرار، و هتموا بمشاريع الري، وتنظيم القضاء والضرائب، وبناء مقاييس النيل مما أدى إلى انتشار الرخاء.

تحدث المؤرخ (جوستاف لوبون) [٢٢٧] عن سياسة عمرو بن العاص بعد فتح مصر فقال: ودل ما قام به عمرو بن العاص من تنظيم مصر على عظيم حكمته، وعامل عمرو الفلاحين بما لم يعرفوه من العدل والإنصاف منذ زمن طويل، وأنشأ للمسلمين وحدهم محاكم منظمة دائمة ومحاكم استئناف، فإذا كان أحد الخصوم مصريًا حق للسلطات القبطية أن تتدخل، واحترام عمرو نظم المصريين وعاداتهم ومعتقداتهم، وسار عمرو في مصر على غرار عمر بن الخطاب في القدس، فشمل الديانة النصرانية بحمايته، وسمح للأقباط بأن يستمروا على اختيار بطرك لهم كما في الماضي، ومن تسامحه إذ أذن للنصارى في إنشاء الكنائس في الفسطاط، المدينة الإسلامية التي أسسها.

****

---

[٢٢٧] حضارة العرب، ص٢١٥.

أسطورة حريق مكتبة الإسكندرية:

يتهم بعض المستشرقين الأوربيـين الـذين يحـاولون دائمًـا أن يكيدا للعرب عمرو بن العاص بأنـه أحـرق بـأمر الخليفـة عمـر بـن الخطاب مكتبة مدينة الإسكندرية التي كـان قـد أسـسها بطليمـوس الأول والتي كان يستفيد منها كثير من العلماء والطـلاب التـي كانـت تحتـوي على آلاف الكتب النادرة وعللوا ذلك بأن هذه الكتب كانـت تحـوي مـن التعاليم المسيحية ما يخالف الإسلام، واسـتند هـؤلاء المسـتشرقون فـي هذا الاتهام الباطل إلى ما قاله الرحالة عبد اللطيـف البغـدادي[٢٢٨] الـذي زار مصر بين سنتي ٥٩٥ – ٥٩٨هـ وإلى ما جـاء فـي كتـاب أبـي الفرج الملطي[٢٢٩]. فقد ذكر عبد اللطيف البغدادي أنه قـد سـمع بوجـود مكتبة ضخمة في الإسكندرية قبل الفتح الإسلامي ولكنـه لـم يجـد هـذه المكتبة عند زيارته لها، ثم أتهم عمرو بن العاص بإحراقها.

ونحن نهدم هذا الاتهام الظالم الباطـل بأدلـة تاريخيـة، وأخـرى منطقية، وأدلة قياسية. أمـا الأدلـة التاريخيـة، فلـم يـذكر المؤرخـون العرب المشهورون الذين نعتمد علـى رواياتهم فـي دراسـتنا للتـاريخ الإسلامي شيئاً عن هذا الاتهام، مثل الطبـري وابـن الأثيـر والـبلاذري وابن عبد الحكم وغيرهم. كما لم تـذكره كتـب مـؤرخي الـشيعة الـذين نعلم كراهيتهم لعمرو بن العاص ولو حـدث الحريـق علـى يـد عمـرو

---

[٢٢٨] الإفادة والاعتبار ص٢٨.

[٢٢٩] وهو عز بغورس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري وكنساته (مختـصر الدول).

لما سكتت هذه الكتب عن ذكره. وهذا كله يجعلنا نشك تماماً في صحة الاتهام.

أما الأدلة المنطقية، فقد ذكر أبو الفرج الملطي أن كتب المكتبة اتخذت وقودًا لأربعة آلاف حمام لمدة ستة شهور، وهذا لا يخضع لأي منطق ولا يقبله عقل، فليس من المعقول أن يكون في الإسكندرية مثل هذا العدد من الحمامات، ولم يكن بالمكتبة من الكتب ما يستمر وقودا لهذه الحمامات ستة شهور. ولو كان عمرو بن العاص أراد فعلا تدمير المكتبة لاستغرق هذا منه ساعات قليلة.

أما الأدلة القياسية، فنحن نعرف عن العرب اهتمامهم بالعلم والكتب، وتجلى هذا في فتوحاتهم في بلاد الشام، فقد احترموا جميع الكتب الدينية المسيحية واليهودية، فضلا عن دور العبادة. فما الذي يجعل العرب يحيدون عن سياستهم في الشام أو العراق؟.

والحقيقة أن مكتبة الإسكندرية كانت قد تضاءلت قبل الفتح نتيجة نقل معظم كتبها إلى روما، إلى جانب تكرار حوادث السلب والنهب وعدم اهتمام الولاة البيزنطيين. وقد يكون قد اختلط على الكُتَّاب فظنوا أن الحريق الذي أصاب المكتبة سنة ٤٨ ق.م. عند قدوم يوليوس قيصر إلى الإسكندرية لمعاضدة كليوباترة ضد أخيها فظنوا أن الحريق قد حدث زمن عمرو. كما أن المكتبة تعرضت للحريق مرة ثانية قبل الفتح الإسلامي حينما تتبع المسيحيون في الإسكندرية الوثنيين فلجأوا إلى معبد للأوثان مجاور للمكتبة، فأحرق المسيحيون هذا المعبد وامتدت النيران إلى جزء من المكتبة.

انتشار الإسلام في مصر:

لا شك في أن نشر الإسلام كان الهدف الرئيسي من الفتوحات العربية سواء في العراق أو الشام أو مصر. وحمل الفاتحون العرب عقيدتهم لينشروها حيث استقروا في الأمصار المفتوحة. وكان العرب يخيرون الأهالي بين الإسلام أو دفع الجزية أو القتال، واتبعوا دائمًا سياسة (لا إكراه في الدين). وقد وجد الإسلام في مصر أرضًا خصبة، وكان هناك صلة رحم ماسة بين العرب والأقباط، فقد تزوج الرسول عليه الصلاة والسلام من مارية القبطية المصرية، كما أوصى الرسول بالقبط خيرًا.

وكان كثير من المصريين قد ملوا طول الصراع المذهبي بين الأرثوذكس والكاثوليك، وبين اليعاقبة والملكانيين، وأرادوا الخلاص من هذا النزاع المستمر، ورأوا في اعتناق دين العرب ذلك الخلاص[٢٣٠] كما اعتنق بعض المصريين الإسلام ليصبح لهم ما للعرب وعليهم ما على العرب من واجبات. وكان بعض المصريين يفضلون الإسلام على دفع الجزية، فيقول المؤرخ (بتلر) [٢٣١]: رأى المصريون أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ويساويهم بالفاتحين في شرف محلهم، ويجعلهم إخوانهم في كل شيء، يسهم لهم في الفيء ولا يفرض عليهم الجزية. فكان في ذلك باعث قوي لكثير منهم على الدخول في الإسلام، ولاسيما قد

---

[٢٣٠] بتلر: فتح العرب لمصر، ص٣٨٥.

[٢٣١] فتح العرب لمصر ص٢٤٣.

طحن المقوقس عقيدتهم طحنا وحطـم يقيـنهم باضـطهاده. بـل اعتنـق بعض الروم الـذين كـانوا يقيمـون فـي مـصر الإسـلام، فقـد أرادوا الاستمرار في البقاء فـي مـصر بعـد الفـتح، وأرادت هـذه الطبقـة أن تلائم بين واقعها وبين الواقـع العربـي الإسـلامي، وكـان بعـض روم الـشام قـد اعتنقـوا الإسـلام وصـحبوا عمـرو بـن العـاص إلـى مصر لفتحها.

شمل انتشار الإسـلام كـل طبقـات المجتمـع الطبقـي، ومـنهم فريق من الرهبان، مثل يوحنا أحد رهبان ديـر سـيناء، ومـن المكفـرين العقلاء ومن الأشراف، ومن العامة. وكان انتشار الإسـلام يتناسـب مـع انتشار القبائل المهاجرة، فكثرة الوافدين من العـرب كانـت تتـيح ألوانـا من الصلات، صلات التقارب أو صلات التـراحم، ولـيس للإسـلام مـن دعاة إلا أهله، وكثيرًا ما كانت تؤدي هذه الصلات إلى الإسلام.

وكان انتشار الإسلام فـي المـدن قبـل أن يكـون فـي لقـرى، وذلك يرجع إلى انتشار المسلمين في المدن المختلفـة مـن ناحيـة، وإلـى ما يكون من قدرة أهل المـدن علـى الاسـتجابة للـدعوات مـن ناحيـة أخرى، على حين يظل المجتمع الريفي منعزلاً بعض العزلـة عـن هـذه التيارات التي تأخذ سبيلها إليه في بـطء وحـذر(٢٣٢) ويبـدو أن لإسـلام لم ينتشر في ريف مصر إلا في مطلع القرن الثـاني حـين هـاجر إلـى مصر، في ولاية عبيد الله بـن الحبحـاب، هـذه الأسـر القيـسية التـي

(٢٣٢) شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية، ص١٥٩.

سكنت وادي حوف الـشرقي، فجـاورت الريـف المـصري مـن هـذا الجانب، وخالطته وحملت إليه الإسلام[٢٣٣].

إقبال أهل الذمة على تعلم اللغة العربية:

بعد مرحلة الاستقرار، بدأت مرحلة التعريـب اللغـوي. قبـل الفـتح العربي، كانت اللغة الرسمية في مـصر اللغـة اليونانيـة، فكانـت لغـة السياسة والإدارة ولغـة الثقافـة والعلـم، وأصـبحت لغـة العبـادة فـي الكنائس المصرية أما اللغة القبطيـة فقـد كانـت اللغـة اليوميـة لعامـة الشعب المصري من الأقباط.

لما أصبحت اللغة العربية هـي لغـة الطبقـة الحاكمـة بعـد الفـتح العربي، كان من المنطقي أن يقبل المصريون على تعلمهـا. كمـا سـاعد انتشار الإسلام علـى انتـشار اللغـة العربيـة، حتـى يتيـسر لمعتنقيـه الصلاة وقراءة القرآن الكريم. ولكن رغم ذلـك وجـدت اللغـة العربيـة عدة صعوبات، فليس بين اللغة العربية وكل من اللغـة اليونانيـة واللغـة القبطية صلة قرابة لغويـة. ولـذا ظـل نطـاق انتـشار اللغـة العربيـة محدوداً حتى عرّب الخليفة الأموي عبـد الملـك ابـن مـروان دواويـن مصر، فتضاءلت اللغة القبطية وعظم انتشار اللغـة العربيـة، وأصـبحت بمرور الوقت لغة المصريين في الـدين والثقافـة والإدارة، فـي العمـل والبيت، وخلفت اللغة القبطية في جزر صغيرة منعزلة.

---

[٢٣٣] المقريزي: الخطط جـ٢، ص٢٦١.

أما التعريب الجنسي فقد كان محــدوداً فــي أول الأمــر، فلــم يكــن بين المصريين والعرب كثير مــن صــلات التــزاوج فــي القــرن الأول الهجري، كما كانت سياســة عمــر بــن الخطــاب (لا فــيء ولا عبيــد) عاملاً هامًا على قلة السبي والتــزاوج. ثــم وضــح الانــدماج والتــزاوج والامتزاج في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة.

أهل الذمة المصريون في ظل الحكومة الإسلامية:

وضع عمرو سياسة أساســها كــسب محبــة الــشعب المــصري، والتآلف بين العرب الفاتحين والقــبط المــصريين، فقــد بعــث يــستدعى بطريق الإسكندرية من الشام، وكــان قــد هــرب إليهــا مــن اضــطهاد الرومان حيث مكث ثلاث عشرة ســنة. كمــا مــنح عمــرو المــصريين حرية ممارسة شعائرهم الدينيــة. وعــاش المــصريون طــوال العــصر العربي الإسلامي في أمان.

ترك الرومان البيزنطيون مصر وقــد انتــشرت بهــا الفوضــى، وعمت الإدارة والمرافق العامة، فكان على عمرو بــن العــاص أن يعيــد تنظيم الإدارة والحكومة فــي مــصر ممــا يحقــق الهــدوء والاســتقرار والمساواة للجميع على اختلاف أديانهم وأجناسهم، كمــا قــام بكثيــر مــن المشروعات الإصــلاحية لــيعم الرخــاء، ونظــم الــضرائب والخــارج، وأمــر الجنــد العــرب بالانتــشار فــي الريــف المــصري والاخــتلاط بالمصريين. وفي سنة ٢٣هـ أعاد عمرو حفر قنــاة نخــاو التــي كانــت تصل بين النيل والبحر وسماها (خليج أميــر المــؤمنين)، وأنــشأ عمــرو

مقاييس النيل، فقد كان يدرك أن الزراعة مورد مصر الأول. وحرص عمرو على أن ينفق معظم إيرادات مصر في الإصلاحات.

كان المجتمع المصري زمن الفتح العربي يتألف من عدة عناصر مختلفة، من قبط وروم وعرب وأكراد وأحباش، وقد أصبح الرومان في مصر بعد الفتح الإسلامي أقلية ضئيلة، ولكنهم فضلوا الإقامة فيها في ظل التسامح الإسلامي على الرحيل إلى وطنهم.

حرص العرب الفاتحون منذ اللحظة الأولى على صبغ المجتمع بالصبغة العربية الإسلامية، تحقيقاً لوحدة التجانس بين الولايات في الدولة العربية فبدأ انتشار الإسلام والعروبة في المجتمع المصري، في تسامح وسلام. ولم يكن للعرب مبشرون أو دعاة تخصصوا في نشر الإسلام، كما كان الحال بالنسبة للمسيحيين، ولكن المصريين اعتنقوا الإسلام مختارين عن اقتناع حقيقي.

كان الأقباط يمثلون غالبية سكان مصر، وكان الولاة المسلمون يعاملونهم معاملة طيبة، لمساعدتهم الفاتحين العرب أو وقوفهم على الحياد، فأطلقوا لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية. وخير مثال لهؤلاء الولاة، مسلمة بن مخلد الأنصاري (٤٧ – ٦٢هـ) وعبد العزيز بن مروان (٦٥ – ٨٦هـ).

فيعتبر عصر عبد العزيز بن مروان من أزهى فترات العصر العربي في مصر، فقد عامل الأقباط المصريين بكل تسامح، واتخذ لإقامته دير القبط في مدينة طنوية على نهر النيل ومنح الرهبان عشرين ألف دينار، ولم يتخذ حلوان مقرًا له إلا بعد إصابته

بمرض الجذام، فأصبحت حلوان عاصمة مـــصر واهــتم بتعميرهـــا فأقـــام بها البساتين والمباني واهتم بالزراعة ومقاييس النيل[٢٣٤].

تولى الأقباط المناصـــب الكبـــرى ومعظـــم الوظـــائف الإدارية، ففي عصر عبد العزيز بن مـــروان كـــان هنـــاك كاتبـــان أحـــدهما لإدارة مصر العليا أي الوجه القبلي، والآخـــر لإدارة مـــصر الـــسفلى أي الوجـــه البحري. وكان معظم موظفي الإدارة الماليـــة مـــن الأقبـــاط، كمـــا تـــولى الأقباط مناصب ولاة الأقاليم. وكان الأقبـــاط رغـــم بقـــائهم علـــى ديـــنهم حريصين علـــى تعلـــم اللغـــة العربيـــة، حتـــى يتفـــاهموا مـــع العـــرب الحاكمين، وحتـــى يحتفظـــوا بوظـــائفهم فـــي الحكومـــة، وخاصـــة بعـــد تعريب الدواوين في عصر الخليفـــة الأمـــوي عبـــد الملـــك بـــن مـــروان الذي حول ديوان مصر من اللغـــة القبطيـــة إلـــى اللغـــة العربيـــة، ولـــم يتعرض الأقباط لأي اضطهاد أو ضغط.

استقر العرب بعد الفتح فـــي الفـــسطاط والإســـكندرية والجيـــزة، وانصرفوا إلى السياسة والحرب والحكـــم، ولـــم يقبلـــوا علـــى الزراعـــة وسائر المهن والحرف، وكان التـــزاوج بـــين العـــرب والمـــصريين فـــي أول العصر العربـــي محـــدودًا، ولكـــن توالـــت هجـــرات عربيـــة علـــى مصر، وقدمت موجة عربية كبيرة في عهد الخليفـــة الأمـــوي هـــشام بـــن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥هـ)، وتخلى العرب فـــي عهـــده عـــن سياســـة عدم الامتزاج بالمـــصريين، وأقبلـــوا علـــى احتـــراف الزراعـــة، وبـــدأ التزاوج يأخذ صورة واضـــحة، واســـتمر توافـــد القبائـــل العربيـــة، وزاد اندماج العرب فـــي المجتمـــع العربـــي فـــي عـــصر الخليفـــة العباســـي

---

[٢٣٤] السيوطي: حسن المحاضرة جـ٢، ص١٣٦.

المعتصم سنة ٢١٨هـ. فقد أمر المعتصم بإسقاط من في الديوان من العرب وقطع أعطياتهم، ونتج عن هذا تقارب شديد بين العرب والمصريين، وأصبح العرب في مصر لا يتميزون عن أهل البلاد، وبعد أن كان العربي يحرص على إبراز صبغته العربية وانتسابه إلى قبيلته، فكان يحرص على تدوين أسماء القبائل على شواهد القبور، أصبح العرب في القرن الثالث الهجري يعنون اسم البلدة أو الإقليم الذي ينتسب إليه بدلاً من القبيلة. ولذا نعتبر قرار المعتصم أنه أدى إلى امتزاج العرب المصريين وظهور عنصر جديد نتيجة امتزاج العنصرين السابقين، كما أدى إلى انتشار العروبة والإسلام على نطاق واسع.

وبدأ الأقباط المصريون أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يتخلون عن اللغة القبطية ، ويقبلون على التحدث باللغة العربية، وأصبح رجال الدين الأقباط في مصر يكتبون في القرن الرابع الهجري باللغة العربية ويتخاطبون بها مع أبناء الطائفة القبطية.

انتصر المسلمون للأقباط الأرثوذكس على أعدائهم في المذهب الديني وهم الملكانيون، فاسترد الأرثوذكس المصريون عددًا من الكنائس والأديرة التي كانت في يد الملكانيين، بل حولوا عددًا كبيراً في عهد الوالي مرة بن شريك إلى المذهب اليعقوبي. وسمح المسلمون للأقباط ببناء كنائس جديدة، والاحتفال بأعيادهم[٢٣٥]. وكان

[٢٣٥] المقريزي: الخطط جـ١، ص٢٦٤.

عيد وفاء النيل عيدًا عامًا يشترك فيه الولاة والمسلمون والأقباط على السواء.

قام الواليان العباسيان الليثي بن سعد وعبد الله بن لهيفة ببناء الكنائس وقالا: هو من عمارة البلاد. ويذكر المؤرخ (آدم متز) [٢٣٦] أن عامة الكنائس التي بمصر لم تبن إلا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين. ويقول المؤرخ (ترتون) [٢٣٧]: ساهم الأقباط في حياة المسلمين الاجتماعية وأخذوا منها بنصيب، فجرت عادة المسلمين في أسنا من صعيد مصر في أفراحهم وأعراسهم على دعوة النصارى الذين يغنون بالقبطية الصعيدية، ويمثلون أمام العروس في أسواق أسنا وشوارعها، ويقول أبو صالح الأرمني تعقيباً على ذلك أن هذا صار عندهم عُرفًا وعادة مستقرة، وكثيراً ما زار المسلمون الأديرة المصرية المنتشرة في المدن والقرى، وقدموا لها النذور.

احتفل الأقباط والعرب بكثير من الأعياد والمواسم، وكان للأقباط عند الفتح أربعة عشر عيدًا في السنة القبطية بمصر، وهو أول يوم من توت وفيه تشعل النيران وترش المياه[٢٣٨]. وسمح الولاة العرب للأقباط بجميع أعيادهم، وكان المسلمون يشتركون دائماً مع الأقباط في الابتهاج بهذه الأعياد. وكانت جميع طبقات المجتمع

---

[٢٣٦] الحضارة الإسلامية في القرن ٤هـ حـ١، ص٧٣.

[٢٣٧] أهل الذمة في الإسلام، ص١٥٩.

[٢٣٨] السعودي: مروج الذهب حـ٢، ص٣٦٥.

تحتفل بليلة الغطاس. فيجتمع فيها علـــى شـــاطئ النيـــل آلاف المـــسيحيين والمسلمين مرتـــدين أفخـــر الثيـــاب، ويقبلـــون علـــى أشـــهر الأطعمـــة، ويغطس أعظمهم في نهر النيل، معتقدين أن فـــي ذلـــك شـــفاء لهـــم مـــن أمراضهم.

اهتم الولاة العرب بشئون الزراعـــة، الحرفـــة الأولـــى للأهـــالي المصريين، فاهتموا بحفر الترع وإنـــشاء الجـــسور علـــى النيـــل، وبنـــاء القناطر، واهتموا أيضًا بإنشاء مقاييس النيـــل لمعرفـــة منـــسوب الفـــضيان لتنظيم الري وضبط الضرائب. كمـــا اهـــتم العـــرب بالـــصناعة، وكـــان معظم الصناع من المـــصريين، فقـــد انـــصرف العـــرب إلـــى الـــسياسة والجيش والإدارة. وأدى تقدم الزراعة والـــصناعة إلـــى نـــشاط التجـــارة، واهتم الولاة العرب بإصلاح طـــرق التجـــارة والقوافـــل وإنـــشاء الآبـــار بها وتأمينها من اللـــصوص وقـــاموا بإنـــشاء المـــواني. واهـــتم العـــرب أيضاً بتنظيم الـــضرائب والإدارة الماليـــة وكانـــت الإيـــرادات نـــوعين: ضرائب الأرض، والجزية. أما الجزية فقد فرضـــت علـــى أهـــل الذمـــة من النصارى واليهود، وأعفي النساء والأطفال والـــشيوخ، فكـــان للـــذمي يدفع دينارين في السنة، أو ثمانية قروش ونـــصف فـــي الـــشهر، وتتعهـــد الحكومة العربية بحماية أرواح أهـــل الذمـــة وممتلكـــاتهم وتعفـــيهم مـــن الخدمة العسكرية.

لم يزد الخراج في السنة الأولى من ولايـــة عمـــرو بـــن العـــاص عن عشرة ملايين دينار، وفي السنة الثانيـــة عـــن أثنـــى عـــشر مليـــون دينار، بينما كان فـــي عهـــد المقـــوقس عـــشرين مليونـــا. ونـــستطيع أن نستخلص من ذلك أن عمرو بـــن العـــاص راعـــى حالـــة الفيـــضان فـــي

تقدير الضرائب، كما أنفق كثيراً من الإيرادات فـــي ســـائر المـــشروعات الإصلاحية، كما ألغى عمرو كثيراً من الـــضرائب التـــي كـــان الرومـــان يفرضونها للتخفيف عن المصريين. وقد قـــل الخـــراج فـــي مـــصر فـــي العصرين الأموي والعباسي نتيجة دخول عدد كبير من أهـــل الذمـــة فـــي الإســـلام وإعفـــائهم مـــن دفـــع الجزيـــة. واحـــتفظ الـــولاة الأمويـــون والعباسيون بالنظام الإداري الذي وضعه عمر بن الخطاب.

أهل الذمة في العصرين الطولوني والأخشيدي:

شهدت مـــصر فـــي عـــصر أحمـــد بـــن طولـــون فتـــرة رخـــاء وازدهار، وضرب ابن طولون مـــثلا أعلـــى للحكـــم الـــصالح المـــستنير، فقد أهتم بشتى النواحي العمرانية، فقـــد عمـــل علـــى أن يحقـــق لمـــصر استقلالاً ذاتيا عن الدولة العباسية.

صحب ظهور ابن طولون في مـــصر تطـــور هـــام فـــي تـــاريخ الشعب المصري فقد بدأت الصبغة العربيـــة الإســـلامية تـــشكل المجتمـــع المصري وتطبعه بطابعها في العـــادات والتقاليـــد والحيـــاة الاجتماعيـــة. وبدأت اللغة العربية تصبح لغة الحـــديث والعلـــم للغالبيـــة العظمـــى مـــن المصريين، وبدأ المسيحيون ينسون لغتهم الأصـــلية بالتـــدريج ويتعلمـــون اللغة العربية. وعمل ابن طولـــون جاهـــدًا علـــى كـــسب ود المـــصريين، مسلمين أو ذميين وظهـــر فـــي ثـــوب المـــدافع عـــن حقـــوقهم، فـــألغى الضرائب الظالمة، كما أقـــر الأمـــن، فاطمـــأن المـــصريون، وانخفـــضت الأسعار. واستخدم المصريون فـــي الجـــيش والوظـــائف، وتـــزوج مـــن مصرية، وبلغ من تعلق المـــصريين بـــه أن أســـفوا عليـــه كثيـــرًا يـــوم

وفاته، وبقيت ذكرى ابن طولون ماثلـــة فـــي أذهـــان المـــصريون جـــيلاً بعد جيل(٢٣٩).

يؤكد ساويرس مـــؤرخ البطاركـــة أن الحكومـــة الإســـلامية فـــي مصر لم تتدخل في الشعائر الدينية عند أهل الذمـــة، بـــل كـــان الأمـــراء يحضرون مـــواكبهم وأعيـــادهم، وكـــان أبنـــاء مـــصر مـــن المـــسلمين يشاركونهم أعيادهم كما يبين ســـاويرس أن الأقبـــاط شـــغلوا كثيـــرًا مـــن الوظائف في العصر الإســـلامي، وخاصـــة الوظـــائف الماليـــة. ويـــذكر ساويرس كثيرًا من الأمثلـــة ويـــورد أســـماء كثيـــرة لكبـــار المـــوظفين الأقباط. كذلك لم يعرف عن حكام مصر أنهم عارضوا فـــي تعيـــين أحـــد البطاركة بعد أن يتم انتخابه بواسطة الأســـاقفة. ويؤكـــد ســـاورس أيـــضًا أن الدين لم يفرق بـــين المـــصريين فـــي الـــشعور بـــأنهم أبنـــاء وطـــن واحد(٢٤٠).

ضـرب أحمد بن طولون أمثلة كثيـــرة لتـــسامحه وحـــسن معاملتـــه لأهل الذمة، فقد عهـــد بنـــاء جامعـــه المعـــروف باســـمه إلـــى مهنـــدس مسيحي هو سعيد بن كاتب الفرغاني(٢٤١). وأراد ابـــن طولـــون أن يقـــوم المسجد بدون عمد حتـــى لا يحتـــاج إلـــى الاســـتعانة بهـــذه العمـــد مـــن الكنائس فلا يغضب الأقباط، فوضع المهنـــدس نموذجـــاً للجـــامع بحيـــث لا يحتاج في بنائه سوى لعمودي القبلة. ثم عهد ابن طولـــون إلـــى نفـــس

(٢٣٩) حسن محمود: مصرر في الطولونيين، ص٢٣.

(٢٤٠) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص٢١٤.

(٢٤١) سيرة ابن طولون، ص١٨١.

المهندس ببناء القناطر من جهة حي البساتين الحالي إلى القرافة الكبرى. وأقام ابن طولون (المارستان) وهي مستشفي عامة مجانية سنة ٢٥٩هـ، وسمح للجميع بالعلاج فيها على اختلاف أديانهم وأجناسهم مجاناً، فكانت أول مستشفى في مصر، وأوقف عليها كثيرا من الأوقاف، وكان ابن طولون يتردد على المستشفي كل يوم جمعة للتفتيش على الأطباء، والترفيه عن المرضى[٢٤٢]. واهتم ابن طولون بدير القصير وكان صديقاً شخصياً لأحد رهبانه، كما قدم ابن طولون المعاونات إلى المسيحيين في دمشق عندما نشب حريق قرب كنيسة العذراء.

شعر المصريون، مسلمون وذميون، بالاطمئنان والاستقرار في العصر الطولوني، واخفت ثورات المصريين تماما. وأسقط الطولونيون العرب من ديوان العطاء في مصر، ففقدوا امتيازاتهم الاقتصادية والسياسية، وأخذوا يهاجرون إلى الريف واستقروا فيه وامتزجوا بالمصريين، وتمتع الأقباط واليهود بالحرية الدينية في العصر الطولوني، فكان الطولونيون يستمعون لشاياتهم وينصفونهم، وأبدى الأقباط وخاصة الرهبان حزنهم الشديد لوفاة ابن طولون.

كما أبدى خمارويه بن أحمد بن طولون تسامحا كبيرا، وكان الطولونيون يشاركون الأقباط المصريين في أعيادهم، وكانت الأديرة مقصد المصريين على اختلاف أديانهم للتمتع بحدائقها. وكانت حفلة وفاء النيل عيدًا قوميا يشترك فيه جميع المصريين والحكام، وكانت تنصب الموائد وتقام الولائم في القصر الطولوني.

---

[٢٤٢] خطط المقريزي جـ٢، ص٤٠٥.

في العصر الأخشيدي، كان المجتمع متماسكا متعاونًا، وعاش المسلمون والأقباط جنبًا إلى جنب في هدوء، وتمتع الذميون بالحرية الدينية واحتفلوا بأعيادهم احتفالات رائعة، وكان محمد بن طفج الأخشيد، مؤسس الدولة الأخشيدية، يشترك بنفسه في هذه الاحتفالات[٢٤٣]. وكان الأخشيد يقوم بإصلاح الكنائس. وكان لأهل الذمة محاكمهم الكنيسية الخاصة بهم، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يحتكموا إلى القضاة المسلمين إذا أرادوا.

وكان في مصر في العصر الأخشيدي آلاف من الأقباط واليهود يمارسون سائر الأعمال، فكان منهم أصحاب الضياع والأطباء والتجار. ولا نسمع في العصر الأخشيدي شيئاً عن التزام أهل الذمة القوانين الخاصة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في اللباس والركوب.

وكثيرا ما تدخل الحكام الأخشيديون بين الطوائف المسيحية لفض النزاع والتوفيق بينها، ولم يكن في المدن أو القرى أحياء خاصة بأهل الذمة، بل كانوا يعيشون جنباً إلى جنب[٢٤٤].

لم يلتزم الحكام المسلمون بأن يدفع الذميون دينارين كجزية سنوية، بل كثيرا ما نقصت الجزية عن هذا القدر، فيقول المؤرخ (آدم متز)[٢٤٥] ظلت الجزية بوجه عام عند المقدار الذي فرضته

---

(٢٤٣) المسعودي: مروجد الذهب حـ١، ص١٢.

(٢٤٤) سيدة كاشف: مصر في عصر الأخسيديين، ص٢١٤.

(٢٤٥) الحضارة الإسلامية جـ١، ص٧٩.

الشريعة، وكانت تتغير تغيرًا يسيرًا بحسب تغير العملة، وكانت الحكومة في مصر في أول القرن الثالث الهجري تكتفي بأخذ نصف دينار. ويذكر المؤرخ (ترنون) [٢٤٦] أن المسلمين أخذوا بعض الأعياد المسيحية بعين الاعتبار، وقدروا فصول السنة بها، فكان احتفال المصريين ببدء زيادة النيل وقت عيد الصليب، واحتفلوا بالنيروز وقت عيد الفصح، وغير ذلك.

وصف المسعودي[٢٤٧] احتفال الأخشيديين بعيد الغطاس، فقال أن المصريين احتفلوا به احتفالا رائعًا، فجلس محمد بن طفج الأخشيد بقصره في جزيرة في النيل وقد أسرج حوله ألف قنديل، وأوقد المصريون المشاعل والقناديل والشموع، وزخرت القوارب بآلاف من النصارى والمسلمين، ولم يبق من كثرة الناس موضع لقدم على أسطح الدور وشواطئ النهر، ولبس الجميع أحسن ثيابهم.

وكان (ريموند الثالث) كونت طرابلس الشام يريد حث أتباعه على ترك العقيدة المسيحية والتحول إلى الإسلام ، ولكن موت هذا الكونت المفاجئ قد وقف في سبيل تنفيذ هذه الخطة[٢٤٨].

وبلغ عدد من تحول من المسيحيين إلى الإسلام – كما يقول أرنولد – خمسة وعشرين ألفا من المسيحيين في مصر فقط . ويعلق أرنولد على

---

(٢٤٦) أهل الذمة في الإسلام، ص١١٤.

(٢٤٧) مروج الذهب جـ٣، ص٤٠٦.

(٢٤٨) الدعوة إلى الإسلام ص٩٤.

ذلك بقوله :" أن دخول أي مسيحي في الإسلام ، عن اقتناع صادق كان أمرًا ممكنًا".

ورحب أهل الشام من المسيحيين بانتهاء الحروب الصليبية وعودة الحكم الإسلامي ، فيقول المؤرخ (أرنولد) : ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي بلاد الشام قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين والحقيقة أن أهالي فلسطين من المسيحيين، لما وقع بيت المقدس في أيدي المسلمين نهائيا (سنة ١٢٤٤م) رحبوا بالسادة الجدد واطمأنوا إليهم ورضوا بحكمهم.

كذلك دفع هذا الشعور نفسه ، شعور الاطمئنان إلى الحياة الدينية في ظل الحكم الإسلامي ، كثيرًا من مسيحي آسيا الصغرى ، في إبان هذه الفترة ذاتها ، إلى الترحيب بمقدم الأتراك السلاجقة ، إذ خلصوهم من الحكومة البيزنطية البغيضة ، لا بسبب نظام الضرائب المجحف وحده ، ولكن بسبب روح الاضطهاد التي ظهرت بها الكنيسة الأغريقية. وطالما دعا الأهلون الأتراك إلى الاستيلاء على مدنهم في آسيا الصغرى ، تخلصًا من استبداد الدولة ، وكثيرا ما هاجر الأغنياء منهم والفقراء إلى الولايات التركية[٢٤٩].

اقتباس الصليبيين الحضارة الإسلامية :

أثرت الحروب الصليبية في القارة الأوروبية ، إذ أدت إلى إضعاف النظام الإقطاعي ، وهو النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي أعطى المجتمع الأوروبي الغربي طابعه في هذا العصر. ويبدو أثر الحروب الصليبية واضحًا كذلك في الميدان الاقتصادي، إذ ساعدت تلك الحروب على

---

[٢٤٩]) الدعوة إلى الإسلام ص ١١٦.

أحدث تطور ملموس في النظم المالية في غرب أوروبا. هذا إلـــى ازديـــاد النشاط التجاري بين الشرق والغرب على عصر الحروب الصليبية أدي إلى نتائج خطيرة في غرب أوروبا منها ازدياد نفوذ المدن وقوتهـــا ، واتـــساع نطاق النشاط المصرفي ، وتحسين طرق التجارة وإنشاء طـــرق جديـــدة ، ونشاط الطرق البحرية.

على أن أهم ما تأثر به الغرب الأوروبي فـــي عـــصر الحـــروب الصليبية كان في ميدان الحضارة نتيجـــة للاتـــصال بالحـــضارة العربيـــة الإسلامية. ذلك أن الحروب الـــصليبية أتاحـــت فرصًـــا كثيـــرة للاتـــصال الحضاري بين الغرب الأوروبي والشرق العربي في الوقت الـــذي كانـــت أوروبا تسبح في دياجير الظلام. مما أدى إلى انتقال كثيـــر مـــن مظـــاهر الحضارة العربية الإسلامية إلى غرب أوروبا عن طريق الصليبيين(٢٥٠).

أخذ الصليبيون عن المسلمين حياة الرفاهية، وفارقوا عيش البداوة، واشتد إقبالهم على الزراعة والتجارة ، وعرفوا أن في بلاد الشرق الإسلامي صناعات أرقى من صناعاتهم ، وزراعات ناجحة ، وتجـــارات رابحـــة ، وأخلاقًا سمحة. وفي ذلك يقول المؤرخ (هرنشو)(٢٥١) : خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة. لقد بهت أشباه الهمج من مقاتلـــه الـــصليبيين عنـــدما رأوا المسلمين، الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم ، على حـــضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحانًا لا تصح معه المقارنة بينهما.

---

(٢٥٠) أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ١٠٦.

(٢٥١) علم التاريخ لمصر نشو ترجمة عبد الحميد العبادي.

لم يستفد الشرق شيئًا من قدوم الصليبيين ، بل استفاد الصليبيون الكثير ، إذ نهلوا من منابع الحضارة الإسلامية التي لا تنضب. فقال (جوستاف لوبون) [٢٥٢] : كان الشرق يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب ، وأما الغرب فكان غارقًا في بحر من الهمجية. ولم يكن عند أولئك البرابرة ما يفيد الشرق ، ولم ينتفع الشرق منهم بشيء من الحقيقة، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها في قلوبهم والازدراء للغربيين على مر الأجيال.

قبل الحروب الصليبية كان لا يعرف الشرق من الغربيين غير أفراد أذكياء رحلوا في التجارة، أو جاءوا فلسطين للزيارة. أما في هذه الحروب فقد عرفوا الشرق الإسلامي، فرأوا المسلمين في عقر دارهم، وتحققوا أنهم ممتازون بصفات حربية وأدبية وعلمية واجتماعية ، رأوا أمة تحررت من قيود رجال الدين ، وأنها أمة من طراز آخر.

اقتبس الصليبيون كل ما وسعته قرائحهم وهضمته عقولهم من آثار خلد بها العرب حضارتهم، وانتظمت معها شئونهم العمرانية والزراعية والعلمية والفنية والتشريعية. وبدأ المفكرون من رجال هذه الحملات الصليبية يعملون بعد عودتهم إلى بلادهم على تقليد الدول الإسلامية فيما اقتبسوه كتشكيلات الدواوين والمجالس والمصالح التي يتكون منها جهاز الحكومة، كما عملوا على تحسين أصول جباية الأموال والضرائب وتنظيم الميزانيات. كما اهتموا بتأسيس دور العلم.

---

[٢٥٢]) حضارة العرب ص ٣٣٤.

كانت الحروب الصليبية وما أدت إليه من إطلاع الـصليبيين علـى الحضارة الإسلامية، هي الخطوة الأولي نحو عصر النهضة في أورءبـا ، فقال (لوبون) [٢٥٣]: أن تأثير الشرق في تمدين الغرب كان عظيمًـا جـدا بفعل الحروب الصليبية، وأن ذلك التأثير كـان فـي الفنـون والـصناعات والتجارة واضحًا، وإذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية العظيم بـاطراد بين الغرب والشرق وإلى ما نشأ عن تحاك الصليبيين والشرقيين من النمـو في الفنون والصناعة ، تجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب مـن التوحش وأعدوا النفوس إلى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخـذت جامعات أوروبا تعول عليها فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم.

* * * * * * *

[٢٥٣]) حضارة العرب ص ٣٣٩.

الفصل التاسع

اليهود في الدول الإسلامية

بين التسامح الإسلامي والتعصب اليهودي :

ينظر الإسلام إلى الأديان الأخرى في تسامح ، وقد جاء في القرآن الكــريم (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾) ودعا الإسلام الناس مع دعوته إلــى تكــوين الأخــوة الإسلامية إلى أخوة إنسانية عامة شاملة لا فرق معها بين الأمم والعناصــر والعقائد والمذاهب.

وأين هذه التعاليم الإنسانية النقية الصافية من التقاليد اليهودية التــي تدعو إلى الغرور العنصري والاستعلاء الجنسي ، وما كان يدعو إليه اليهود من أنهم (شعب الله المختار)، وأن الله اصطفاهم من بين الشعوب ليكونوا حملة الدين الحقيقي، وأن الله اصطفى الشعب العبري ليكون (شعبه) وأنه يقوم برعايته وإرشاده والسهر على مصالحه بينما لم تحظ الشعوب الأخرى بشيء من هذا قط.

خلال فوضى الأديان، قامت الديانة اليهودية التي ظهرت في أطراف آسيا الغربية تحاول نشر نفوذها وتعاليمها في الشرقين الأدنــى والأوســط، ولكنها أخفقت من أول الطريق ، لأن الإسرائيليين الــذين قــاموا يبــشرون باليهودية كانوا عبارة عن جمهرة من البشر تعيش حياة البداوة والتــأخر ،

وليس لهم حضارة تطبع دعوتهم الدينية بطابع يجمع بين الدين والــدنيا ، أو بين العبادة والعلم والشئون الروحانية ، ومتطلبات التمدن كالرفاهية والثروة والتنظيم والعمران ، وما إلى ذلك من المرافق التي لابد منها لتدعيم بنيــان الحياة الراقية المتكاملة. بينما انتشرت حضارات راقية في الهنــد والــصين فضلاً عن الحضارة الرومانية الأوروبية. ومن البديهي أن مطالبته من قوم متحضر بقبول دعوة دينية يدعو إليها جماعة تعيش في عالم مــن الجهــل والبداوة ، أمر مستحيل ، مهما كانت هذه الدعوة.

وأصبحت الديانة اليهودية دين (تشبيهي) أي أنه يعتبــر التنزيــه المطلق للوحدة الإلهية تشبيهي ، وذلك فضلا عن بعض التخيلات الــصوفية الغامضة والمبهمة. وانقسم اليهود إلــى شــعبتين ، همــا (الغــاريزييون Ghariziste) وهؤلاء يعتنقون المذهب الاسرائيلي القائم على الظواهر، و (الكباليون Kappaliste) وهم طبقة المتصوفين من حاخاميين وســواهم ممن أدخلوا السحر والتنجيم وكل أسطورة غريبة على كتب العبــادة التــي وضعوا أركانها، وهم يتنكرون لكل ما هو روحي ومعنوي فــي الحيــاة ، ومذهبهم يجاري مبادئ الماويين والقوميين الأنانيين الأشداء، ومعني ذلك أن السعادة والمحبة، والفضيلة والخير عند هذه الفئة ليست إلا عبارة عن مآخذ مادية.

ومن جملة معتقداتهم أن الله فضل بني إسرائيل على كافة الخلــق ، وهو سريع الغضب على من عصاه ، ينتقم منه حتى من ذريته بشدة وعــدم تسامح، فلأجل هذا يخشاه الإسرائيليون ويتملقونه بشتى الترضيات الصوفية النفعية أي أنهم لا ينصرفون إلى عبادته بإيمان مجرد أو استــسلام ودعــة ولهذا نجد أن نوع العبادة لدى هذه الفرقة تشبيهية تتمشى على الوجهات التي

تتشبه لهم بكونها الأصلح لمنافعهم فهي والحالة هذه عبادة استنتاجية ماديـــة تتحري وجود النفع للعبد وتفترض أن المعبود يتمشى مع أهواء المخلوقـــات ولا توحيد ولا تنزيه لألوهيته.

لم تكن اليهودية إلا عبارة عن عقيدة دنيوية مادية لا تمت إلى تعاليم موسى إلا بصلة الاسم فقط ، فالأنانية وحـــب الثـــراء والتنجـــيم والـــسحر والاهتمام بالمادة وإضفاء الغموض على يوم الحشر والدينونـــة تبعـــد بعـــد السماء عن الوصايا العشر التي أتى بها موسى[٢٥٤].

كانت اليهودية ديانة محلية قاصرة تحتاج إلى تكملة ، وإلى امتـــداد ولذلك ظل اليهود زمنا طويلا ينتظرون نبيًا جديدًا إلى أن بعث فيهم المسيح عليه السلام. ظهرت المسيحية في بادئ الأمر في البيئات الإسرائيلية، ولكن التعاليم التي قامت بموجبها تدعو الناس إلى إتباعها كانت تخـــالف التعـــاليم اليهودية المحرفة على خط مستقيم ، لأن القواعد الدينية عند اليهود ترتكـــز على المادة ، أما الديانة المسيحية فتنظر إلى معنويات الحياة المتعلقة مـــثلا بالعبادة والزهد وفعل الخير نظرة احترام.

أما العقيدة في الإسلام فجاءت تقريرا للحق المطلق في أية صـــورة من الصور الكونية واعية تماما لحقيقة الإنسان وطبيعته ، مقدرة ما فيه من قوة ومن ضعف ، وما فيه من عقل ومن وجدان ، فربطـــت بـــين ســـلوك الإنسان وإيمانه الصحيح برباط قوي متـــين ، وبـــذلك اســـتوعب العقيـــدة الإسلامية الكمال المطلق بكل معنى من معانيه[٢٥٥].

---

[٢٥٤]) المدور : الديانات والحضارات ص ٢٧.

[٢٥٥]) العقاد : الله ص ١١٠.

أحوال اليهود في الدولتين الفارسية والرومانية :

مر بنا ما كانت العلاقات بين اليهود والدولـــة الرومانيـــة الـــشرقية وكيف قضى الرومان على اليهود في السلم ودمروا معبدهم في أورشليم سنة ٧٠م وكيف خرجوا مشردين إلى جهات متفرقة ، وأنهم حـــين جلـــوا عـــن موطنهم في فلسطين لم يهاجروا إلى مكان واحد، ولم يؤلفوا مجتمعًا واحدًا ، بل تفرقوا في جميع أرجاء العالم المتحضر في أوروبا وآســـيا وأفريقيـــة ، ولكن اليهود في تفرقهم في هذه الأنحاء لم ينسوا أبدًا أنهم يهود فلم يندمجوا في الأقوام الذين عاشوا بينهم ، أنما احتفظوا بعزلتهم وانفصال جماعتهم عن الأوطان التي استقبلتهم ، ولقد أخذ العالم بأسره عليهم هذه الطباع التي تتنافى مع المواطنة الحق ، ومن ثم كانوا دائمًا موضع شك واضطهاد أينما ذهبـــوا بين الأمم المختلفة أثناء العصور المتعاقبة ، وما أحسنت الظن بهم أمة مـــن الأمم وأحسنت إليهم حقبة من الزمن إلا وعادت تنوء من إساءتهم إليها كأقلية غريبة تحرص على غربتها وأنانيتها ولا تهتم بالمـــشاعر العامـــة لـــسائر المواطنين.

كانت أحوال اليهود في عهد البابليين والأشوريين والفـــرس حـــسنة نسبيًا بالمقارنة بحالتهم في الدولة الرومانية فكانوا يشتغلون بالتجارة ويتولون المناصب إلى أن استولى الأسكندر الأكبر على بابـــل ســـنة ٣٣١م فعامـــل اليهود بشدة لمقاومتهم له ، ولكنه سرعان ما تقرب إليهم فانضموا إلى جيشه وكان اليهود أسرع الناس إلى اعتناق النـــصرانية عنـــد ظهورهـــا، وقـــد اضطهدهم أردشير مؤسس الدولة الـــساسانية وســـمح للمجـــوس بتعـــذيبهم والتنكيل بهم ، ولكن سرعان ما لستطاع اليهود إرضاء الأكاسرة فتحـــسنت حالتهم نوعًا ما وعاد الاضطهاد في عهد يزدجر الثاني وقبـــاذ الأول إلا أن

انشغال الأكاسرة في أواخر الدولة الساسانية في لَـمِّ شـملهم شـغلهم عـن اضطهاد اليهود.

اليهود في الدولة العربية الإسلامية :

كان اليهود إلى جانب الطوائف غير الإسلامية يطلق علـيهم اسـم (أهل الذمة)، والذمة في اللغة العهد والأمان والضمان ، وأهل الذمة هـم المستوطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين ، وسموا بهذا الاسم لأنهـم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، فإن تقاليد الإسلام كانت تقضي بأنه إذا أراد المسلمون غزو إقليم وجب عليهم أن يطلبوا مـن أهله اعتناق الإسلام فمن استجاب منهم طبقت عليهم أحكام المسلمين ومـن امتنع فرضت عليه الجزية كقوله تعالى : (قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾) ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى أتباع الملل المعترف بها، وهي المسيحية واليهودية والمجوسية والصابئة والسامرية ، والفرقة الأخيرة، أي السامرية ، من فرق اليهود ، تنقسم إلى عدة طوائف كالربانيين والقرائيين ممن ينكرون مع السامريين أن يكونوا يهودًا لاختلاف التوراة التي بيدهم عمـا فـي يـد الطوائف الأخرى.

تحدث المؤرخ (ترتون)[٢٥٦]. عن اليهود فـي الدولـة العربيـة الإسلامية فقال : أما اليهود فمن العجيب أن المؤلفين المسلمين قلما يشيرون

---

[٢٥٦]) أهل الذمة في الإسلام ص ٩٧.

إليهم ، وقلما يرد ذكرهم في كتب الفقه التي تقصر كلامها في الغالب علـــى النصارى فلا جرم إذا تبادر إلى الذهن أنهم فئة ضئيلة مستــضعفة ليـــست بذات خطر. بيد أن واقع الحال لا يؤيد هذا الفهم وليس له من سند يزكيـــه ، والدليل على ذلك ما أورده (بنيامين التطيبي) من كثرة مصادقته إياهم أنى ذهب ، وإشارته إلى أن لهم في بعض الأحايين جاليات كبيرة العدد فكانـــت لهم في الإسكندرية إبان الفتح الإسلامي جالية يتراوح عددها بـــين أربعـــين وسبعين ألفا بل الثابت أنه ورد في نصوص الهدنة بين العرب والبيزنطيين نص خاص باليهود يأذن لهم بالإقامة في الإسكندرية أما في فـــارس فكـــان اليهود أقل بكثير من النصارى.

تمتع اليهود في الدولة العربية الإسلامية بقسط وافر مـــن الحريـــة مقابل أداء الجزية والخراج ، وارتبطت بالفعل قضاياهم في الأمور المدنيـــة والجنائية برؤسائهم الروحيين ما دامت لا تمس المسلمين ، أمـــا الـــشريعة المحمدية فلم تطبق عليهم لأنها لم توضع لهم ، وكان رأس الجالوت يـــدير شئون اليهود وكان يحكم هذه الطائفة وفقا للعادات الخاصـــة القديمـــة(٢٥٧). وكان البستاني هو أول رأس جالوت تولى شئون اليهود في العهد الإسلامي وهو الذي أعاد مجد رياسة الجالوت بعد زواله وبقي هذا المنصب في أعقابه يتوارثه الخلف عن السلف عهدًا طويلاً ، وقام البستاني هذا بخدمات جليلـــة للمسلمين مما كان موضع تقدير عمر بن الخطاب ورضائه فأوصى بحـــسن معاملة اليهود(٢٥٨).

---

٢٥٧) ديمومبين : النظم الإسلامية ص ١١٦.

٢٥٨) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق ص ١٠١.

كان الرسول ﷺ متسامحًا كل التسامح مع اليهود ، ولنضرب مـثلا واحدًا من أمثلة عديدة لتسامحه : كان من بين الغنائم التي غنمها المـسلمون في موقعة خبير صحائف متعددة من التوراة ، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر الرسول بتسليمها لهم ، فأخذ اليهود يشيرون إلى الرسول بالبنان معتـرفين بفضله ، وعلق ، (إسرائيل ولفنسون. في كتابه : تاريخ اليهود فـي بـلاد العرب) على هذا الحادث فقال : لم يتعرض النبي لصحف اليهود المقدسة ، بينما أحرق الرومان بعد فتحهم أورشليم سنه ٧٠م الكتب المقدسة وداسـوها بالأقدام وأحرق الأسبان المتعصبون صحف التوراة، فهناك فرق شاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام. فقد صـالحهم الرسـول سـنة ١٠هـ على الفيئ.

تمتع أهل الذمة ، يهود ونصارى بالحرية الدينية في ظـل الحكـم العربي الإسلامي العادل فقد تركهم العرب المسلمون يدينون بمـا رضـوا لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجزية للحكومة. ففي فارس ، عامل العرب من ظل من الفرس على مذهبه القديم معاملة حسنة ولم يتعرضـوا لأمـاكن عبادتهم ، وفي بلاد الشام ومصر ، خير العرب أهل الذمـة بـين الإسـلام والبقاء على دينهم ، فمن أسلم منهم تمتع بما يتمتع به المسلمون ومن بقـي على دينه فرضت عليه الجزية مقابل حمايته وتأمينه على نفسه وعلى أمواله وأولاده. كما أحسن العرب معاملة أهل الذمة في بلاد الأنـدلس، فـسمحوا لليهود الذين ذاقوا كثيرا من ألوان العسف والاضطهاد فـي عهـد القـوط بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأولادهم ، وأموالهم ، وأحسنوا معاملة المسيحيين الذين ظلوا على دينهم.

وأشاد (ترتون) بتسامح المسلمين مع اليهود ، فقال : وتدلنا القصة التالية على عدم ازدراء المسلمين للذميين ، وذلك أن يعقــوب بــن اســحق الكندي لم تمنعه يهوديته من أن يكون أبرز فلاسفة عصره ، وطبيب دهره ، وأدنى الناس منزلة إلى المأمون. وحدث أن جاء ذات يــوم إلــى حــضرته وجلس مجلسا فوق أحد كبار المسلمين الذي قال لــه : لــم تجلــس وأنــت اليهودي فوق ما يجلس علماء الملة ؟ فإجابة يعقوب : لأننــي أعــرف مــا تعرف ولكنك لا تعرف ما أعرف.

اليهود في المجتمع الإسلامي :

عاش اليهود بين أفراد المجتمع الإسلامي فــي أمــان واطمئنــان ، واحترفوا عددًا كبيرًا من الحرف ، وتولوا كثيرًا من الوظائف الهامة. كمــا اشتغل كثيرون من اليهود بفلاحة الأرض، فقد ترك عمــر بــن الخطــاب أرضهم لهم مقابل دفعهم الخراج فضلا عن الجزية. ومنذ هاجر اليهود مــن جنوب الجزيرة العربية نزلوا في الكوفة واشتغل بعضهم بالزراعة واشــتغل البعض الأخر في سائر الحرف. وقد امتنع يهود الحيرة ، وهي على أطراف العراق ، من أن يتنقلوا إلى الكوفة عند إنشائها ، حتى وجدوا من سبقهم في الهجرة قد حازوا الثراء ، فأسرعوا يهاجرون إليها سنة ٢٠هـ(٢٥٩).

واحترف عدد كير من اليهود الصباغة ونــسج الحريــر وصــناعة الزجاج وإدارة السفن (٢٦٠)، وكان الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقــة العاملة من اليهود أسرع الناس إلى الإسلام ، فقد اعتنقه عــدد عظــيم فــي

---

(٢٥٩) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق ص ١٠٣.

(٢٦٠) ترتون : أهل الذمة في الإسلام ص ٢٠٥.

حماسة كبيرة(٢٦١). كما عمل اليهــود بالتجــارة ، واشــتغلوا بالــصناعة ، واحترفوا الطب ، فقد كان للحجاج بن يوســف الثقفــي ، مــثلا ، طبيبــان يهوديان(٢٦٢). واشتغل اليهود بشتى أنواع التجارة ، كما اتــصلوا بــالملوك لاشتغالهم بصنع المجوهرات وبيعها.

وكان يهود بيت المقدس يحتكرون تجارة الأصباغ في المدينة ، فقد استأجروا معملاً من الملك عموري الأول ، وانحصرت هذه المهنــة فــيهم وأقاموا في حى مجاور لبرج داود ، كما احتكروا في الأندلس حرفة خصي الرقية الصقالبة(٢٦٣).

وعن التجارة اليهودية فالأوروبيين معــروفين تمامــا فــي الــبلاد الإسلامية ،وكانوا يتحدثون باللغات العربية الفارسية واليونانية والفرنــسية والأسبانية والروسية، ويتنقلون من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق برًا وبحرًا ، فتراهم يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج والجلود والخز والفراء والسيوف ويبدءون سفرهم عادة من بــلاد الفرنجة ، وميممون شطر الفرما ، ثم يسافرون برا حاملين تجارتهم علــى ظهور الإبل إلى القلزم ، ثم إلى جدة ، فالهند فالصين ، ومن هناك يحملون المسك والعود الدرصيني والكافور ، وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي من فرنسا إلى أنطاكية ، ثم يسافرون برًا إلى الفرات وبغداد ، ثم يرحلــون في نهر دجلة إلى الأبلة وعمان والهند والصين(٢٦٤).

---

(٢٦١) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢.

(٢٦٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٤.

(٢٦٣) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٧٥.

(٢٦٤) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥٣.

كان يتولى شئون اليهود رئيس ديني يسمى (رأس الجالوت)، ونستطيع بدراسة تاريخ أحد هؤلاء الرؤساء معرفة نفوذ صاحب هذه الوظيفة.

اليهود في العصر العباسي :

تحدث المؤرخ العربي المسيحي المعاصر الدكتور متى عن اليهود في العصر العباسي ، فقال أن اليهود كانوا يعيشون حياة تسامح واطمئنان في أرجاء الدولة العباسية. وذكر (المقدسي) أن معظم الصيارفة وأصحاب المصارف في الشام كانوا من اليهود، وولى الخليفة المعتضد كثيراً من اليهود المناصب الكبرى وكان لليهود في بغداد مستعمرة كبيرة ظلت قائمة حتي سقطت المدينة في أيدي المغول. وقد وجد (بنيامين التطيلى) الذي زار المستعمرة سنة ١١٧٠م أن بها عشر مدارس ربانية وثلاثة وعشرين كنيسة (معبدًا) لليهود ، وكان المعبد الرئيسي مبنيًّا بالرخام المختلف الألوان ومزدانا بزينة غالية من الذهب والفضة.

أدى انتشار اللغة العربية بين اليهود إلى ترجمة التوراة إلى اللغة العربية ، ففي عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد قام أحمد بن عبد الله ابن سلام بترجمة التوراة إلى العربية ، كما اهتم الخليفة العباسي المتوكل بترجمة التوراة مرة أخرى إلى اللغة العربية ، وكان هذا الخليفة معروفًا بالتسامح، وكثيرا ما عقد المجالس التي تدور فيها بعض المناقشات والأبحاث الدينية وتتناول الأديان الثلاثة ، وأتاحت هذه الترجمة للمسلمين والمسيحيين فرصة الاطلاع على التوراة.

في العصر العباسي ، كان يتولي شئون اليهود رئيس يدعى (عـــين الجالوت)، ومن أشهر من تولوا هذه المناصب (دانيال بـــن حـــسدان) ، وكان يشغل أيضًا وظيفة قاضي اليهود عامة ، ويسميه المسلمون (سيدنا ابن داود) ويسميه اليهود (سيدنا رأس الجالوت)، وهو يسيطر علـــى جميـــع اليهود في البلاد الخاضعة للخليفة، وكان الجميع يحترمونه ، فكان المسلمون واليهود على السواء يقفون إجلالاً له إذا كانوا بحضرته ومن لم يقـــف لـــه ضرب مائة سوط ، وكان يذهب للقاء الخليفة مساء كل خمـــيس ، وإذ ذاك يصيح أمامه الفرسان من اليهود والمسلمين أفسحوا الطريـــق لـــسيدنا ابـــن داود ، وكان دخله من الضرائب المفروضة علـــى اليهـــود مـــائتي ألـــف دينار(٢٦٥).

وكان يطلق أحيانا على (رئيس الجالوت) لقب (ملك) ويدفع لـــه أهل ملته الضرائب فيأخذ نصفها ويرسل النصف الأخر إلى بيـــت المـــال ، بينما كان المسلمون والمسيحيون يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة وامتد نفوذ (رئيس الجالوت) على اليهود المقيمين في البلاد الواقعة في شـــرقي الفرات ، وبلغ عدد يهود بلاد العراق وحدها ستمائة ألف.

وأمدنا المؤرخ (آدم متز) (٢٦٦) بإحصائية عن عـــدد اليهـــود فـــي الأقطار الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، فذكر أنه كان في دمشق ثلاثة آلاف يهودي ، وكان في جزيرة ابن عمر أربعـــة آلاف يهـــودي ، وفـــي الموصل سبعة آلاف ، وفي مدينة (حربة) بأقصى الشمال فـــي العـــراق خمسة عشر ألفا، وفي عكبرى وواسط عشرة آلاف. وكان المدن التي بهـــا

---

(٢٦٥) المسعودى : التنبيه والإشراف ص ١١٣.

(٢٦٦) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـــ١ ص ٦٤-٦٥.

يهود كثيرون على الفرات هي مدينة الحلة وكان بها عشرة آلاف ، والكوفة وبها سبعة آلاف ، والبصرة وبها ألفان ، وعاش في همذان ثلاثون ألف يهودي ، وفي أصفهان خمسة عشر ألفا ، وبشيراز عشرة آلاف ، وبسمرقند ثلاثون ألفا.

ويقارن (آدم متز) [٢٦٧] بين تسامح المسلمين ، الذي بدا في صورة سماح المسلمين لهذه الأعداد الكبيرة من اليهود لتعيش في المجتمع الإسلامي في حرية تامة ، وبين تعصب الصليبيين الذين غزوا بلاد الشام ، فقال : "إن السياسة التي جرى عليها قواد الصليبيين في الشام في القرن الرابع الهجري إزاء اليهود كادت تفنى الطائفة الإسرائيلية ، ويقدر بنيامين عدد سكان الحي الخاص باليهود في القدس بأربعة أنفس ، ولم يكن في صور إلا تسعة من شبان اليهود ".

اليهود في بلاد الأندلس الإسلامية :

تمتع اليهود في الأندلس الإسلامية بكثير من مظاهر التسامح الديني الذين لم يظفروا به تحت حكم القوط ، فقد أسند إليهم كثير من مناصب الدولة. وأصبحت بعض الحرف وخاصة الطب مقصورًا عليهم ، وغدوا عنصرا هامًا في الإدارة والتجارة والثقافة ، وأضحت قرطبة مركز الدراسات العبرية كما أصبح كثير من اليهود يتحدثون باللغة العربية الصحيحة ويكتبون بها.

[٢٦٧]) المصدر السابق جـ١ ص٦٤.

وكان لليهود كما كان للمسيحيين ، نظام إداري خاص بهم ، وقد ذكر الإدريسي في كتابه (ضعة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس) أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلاً جنوبي قرطبة وأنهم كانوا " يسكنون بجوف المدينة ولا يداخلهم فيها مسلم البتة ، وأهلها أغنياء مياسير أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين ".

وليس أدل على ما بلغه اليهود في عهد الأمويين بالأندلس من نفوذ ، من اختيار (حسداي بن شيروط) اليهود لاستقبال سفراء الدول الذين كانوا يفدون على البلاط الأموى ، وقد قام حسداى بدور هام في البعثة التي أوفدها قسطنطين الثاني إمبراطور الدولة البيزنطية إلى عبد الرحمن الناصر. وفي البعثة التي أوفدها إمبراطور ألمانيا ، كما أسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نافار.

اليهود في مصر الإسلامية :

كان اليهود في مصر أقل عددا من المسلمين والمسيحيين. ويـــذكر بنيامين التطيلي أنه كان لليهود زمن الفتح الإسلامي لمصر جاليات كبيـــرة العدد ، فكان لهم في الإسكندرية جالية يتروواح عددها بـــين أربعـــين ألفـــا وسبعين ألفا ، بل الثابت أنه ورد في نصوص الهدنة بين العرب والبيزنطيين نص خاص باليهود والتزود بالحضارة العربية التي كانت أرقى كثيرًا مـــن حضارتهم التي كانوا عليها وقت الفتح العربي.

لقي أهل الذمة في مصر ، يهـــودًا أو نـــصارى ، معاملـــة طيبـــة متسامحة ، لا يمكن أن تقارن بما كان يعـــاملهم بـــه الأبـــاطرة الرومـــان

المسيحيون. وتعدد المصادر التاريخية ألوان الاضطهاد الذي شهده اليهــود والنصارى في عهد الإمبراطور هرقل، إذ كان المصريون يخــالفون فــي مذهبهم مذهب البيزنطيين. كما تذكر هذه المصادر ما ألحقه كاثوليك أسبانيا بالبروتستانت والمسلمين واليهود على السواء ، ولا تزال ذكــرى محــاكم التفتيش في أسبانيا باقية ما بقي التاريخ.

لم يتدخل المسلمون في شئون اليهود ، وأطلقوا لهم حرية ممارسة عقائدهم الدينية ، كما لم يتدخلوا في أحوالهم المدنية ، وســمح المــسلمون لليهود ببناء المعابد ، وبالاحتفال بأعيادهم الدينية ، بل كــانوا يــشاركونهم احتفالاتهم. وكان هذا التسامح دافعا لأهل الذمة في مــصر علــى اعتنــاق الإسلام وإتقان اللغة العربية ، والاندماج في المجتمع العربي الإسلامي ،

ووصل كثير من أهل الذمة إلى المناصب الكبــرى فــي الدولــة ، واشتغلوا بجميع الحرف البارزة ، واقتنوا ثروات كبيرة ، وعــاش الــذمي والمسلم في المجتمع جنبًا إلى جنب في سلام وأمان.

أدى تعريب الدواوين إلى انتشار اللغة العربية ، فبدأ أهل الذمة يهودًا ونصارى ، يتخلون عن لغاتهم القديمة ، ويتعلمون اللغة العربية ، وأصــبح المسلم والمسيحي واليهودي يتحدثون بلسان واحد ، ممــا أدى إلــى إذابــة الفروق الاجتماعية وإيجاد نوع من الوحدة الاجتماعية ، والتقارب الفكري ، فاللغة ليست حروفًا جامدة ، بل هي مظهر مــن مظــاهر وحــدة الثقافــة والمشاعر.

في العصر الطولوني ، أقبل بعض اليهود على اعتناق الإسلام ، فقد شهد هذا العصر تحولاً كبيرًا من أهل الذمة إلى العقيدة الإسلامية ، وأثر هذا

التحول في الحياة الاجتماعية في مصر ، وترك آثاره المختلفة في العـــادات والتقاليد والأعياد والأزياء. وبدأت الجزيـــة تختفـــي كبـــاب مـــن أبـــواب الإيرادات ، وأخذ المسيحيون واليهود على السواء يـــشاركون فـــي الحيـــاة الاجتماعية والثقافة العربية.

لم يرتفع صوت واحد من أصوات أهل الذمـــة بالاحتجـــاج طـــول العصر الطولوني ، ولم يهتم الطولونيون بالجزية ، وانصرفوا إلى الخـــراج ومضاعفته ، باعتبار أن مصر بلد زراعية ، كما عملوا على تنمية الزراعة ونهضتها. وتولى كثير من أهل الذمة الوظائف المالية الكبرى في مصر.

وفي العصر الأخشيدى، عاش اليهود في تسامح تـــام ، واشـــتغلوا بالحرف والصناعات التي تدر عليهم أرباحًا طائلة ، وبرز منهم كثير مـــن الصياغ والأطباء والصيارفة ، وكان لليهود محاكمهم الخاصـــة وأن كـــان يمكنهم الاحتكام إلى قضاة المسلمين ، ولم يهتم الأخشيديون بتطبيق الـــنظم الخاصة بالأزياء والركوب ، وولوا اليهود بعض الوظائف المالية.

وفي العصر الفاطمي ، نَعِم اليهود والمسيحيون على السواء ، بفترة هدوء ورخاء وتسامح ، بل عومل أهل الذمة في عهـــود بعـــض الخلفـــاء الفاطميين معاملة تتجلى فيها المحاباة ، وتقلدوا أرقـــي المناســـب وأعلاهـــا وبخاصة في عهدي الخليفتين العزيز بالله والمستنصر ، وبعـــض الخلفـــاء الآخرين ، فقد تولوا المناصب المالية في الدولة ، بل تقلدوا الوزارة أيضا ، وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الديني وهو أمر نستطيع تبينه مـــن بناء عدد من الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية.

كان يتولى شــئون اليهــود فــي القــاهرة رئـيس دينــي يــسمى (سر هساديم) أي أمير الأمراء، وكان يعين أحبــار اليهــود فــي الــشام ومصر ، أي في حدود الدولة الفاطمية . وذكر (بنيامين) أن عدد اليهــود في القاهرة كان سبعة آلاف ، وفي الإسكندرية ثلاثة آلاف ، وبمدائن الــدلتا نحو ثلاثة آلاف ، وفي الصعيد ستمائة يهودي[٢٦٨].

استعان المعز لدين الله الفاطمي بكثير من الأطباء اليهود ، وما لبث أن عظم نفوذهم في بلاطه ، ومن أشهر رجال المعز (يعقوب بن كلــس) وكان يهوديًا واعتنق الإسلام ، وولى كثيرًا مــن اليهــود فــي المناصــب الكبرى ، ووصل يعقوب إلى الوزارة في عهد الخليفة العزيز بــالله الــذي اشتهر بالتسامح مع اليهود والنصارى على السواء ، فقد كان متزوجا مــن مسيحية وولى العزيز على حكم الشام واليًا يهوديًا هو منــشا بــن إبــراهيم الفرار. أما الخليفة الحاكم بأمر الله ، فقد تخللت فترات حكمه فترة نعم فيهــا اليهود بالتسامح ، فقد سمح لهم بتجديد معابدهم ، وأصدر عهدًا لهم يــؤمنهم فيه على أرواحهم وأموالهم وأملاكهم[٢٦٩]. وسمح الخليفة الظــاهر لليهــود بالاحتفال بأعيادهم ولم يطبق قيود الملابس. وتولى الوزارة بالقاهرة منذ عام ٤٣٦هــ إلى ٤٣٩هــ أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي ، وكان يهوديًا ثم اعتنق الإسلام ، وكان يدير الدولة معه أبو سعد التستري اليهودي[٢٧٠].

واشتهر صلاح الدين الأيوبي بالتسامح والرحمة ، ويذكر المؤرخون أن طبيبه الخاص (الميموني) قد توسط لديه ليسمح لليهود بــالعودة إلــى

---

[٢٦٨]) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جــ١ ص ٦٦.

[٢٦٩]) تاريخ يحيي بن سعيد الانطاكي ص ٢٣٢.

[٢٧٠]) السيوطى : حسن المحاضرة جــ٢ ص ١١٧.

بلادهم ، فتدفق سيل المهاجرين من بلدان غرب أوروبا إلى فلسطين طوائف عدة تختلف فيما بينها بجنسيتها التي انتمت إليها في الأصل. وكان اليهود قد نزل بهم ألوان كثيرة من الاضطهاد والإفناء خلال الحروب الـصليبية فـي بلاد الشام.

مقارنة بين يهود مصر ويهود أوروبا :

عاش اليهود في مصر في تسامح وتساهل عظيمين ، ولنتذكر أحوال اليهود في الدول الأوروبية في العصور الوسطي لنستطيع أن نـوازن بـين معاملة الأوروبيين لليهود ومعاملة العرب لهم ، وكان اليهود يعيـشون فـي أرجاء الدولة الرومانية بين قوم يخالفونهم في الدين ، وكانوا يعيشون فـي عزلة عنهم باختيارهم وأقاموا في أرجاء الدولة مراكز متفرقة للمعـاملات التجارية وشئون الصيرفة ومبادلة السلع والنقوذ ، ولكنها متفقة فيمـا بينهـا على قصد وعلى غير قصد لانعزالها في كل بقعة على حدة، فـإذا سـافر اليهودي من الإسكندرية إلى روما علم قبل سفره أن هناك بيئة مماثلة لبيئته يذهب إليها ليستعين بها على عمله ويشترك معها في استغلال مـن حولـه ،وكان هذا الاستغلال بطبيعته سببًا لنقمة الفقراء والأغنياء في وقت واحد ، فكان اليهود عرضة لغضب المعوزين ، كما كانا عرضة لغضب المـدينين وأصحاب المحصولات الزراعية من الضياع الواسعة وبخاصة فـي إبـان الأزمات والحروب الخارجية والأهلية ، وقد كانت تتعاقب بكثرة قبل انهيار الدولة الرومانية.

وكلما كثرت الحروب وضح لأبناء الأمم المختلفة أن هـذا الـشعب المسمى (اليهود) متفق متفاهم على ابتزازهم واستباحة أموالهم وأرزاقهـم

لأنه يعتزلهم كافة بمجتمعه في كل بقعة ، ثم يرتبط بالمعاملة بينه وبين أبنائه في المعسكرات المعادية ، ولا ينظر اليهودي إلـــى زميلـــه نظـــرة العـــداء والمقاطعة ، وإن قطعت الحروب والفتن بين البلدين(٢٧١).

كانت أخلاق اليهود المعروفة لا تسمح لهم بالإقامة المـــستقرة فـــي العصور الوسطي ، إذ اضطرتهم الإمارات المسيحية إلى الجـــلاء القهـــري والهجرة القسرية ، فاتجهوا صوب الشمال الشرقي في أوروبا إلـــى ألمانيـــا الشرقية وبوهيميا وخاصة بولندا ، كما أن اليهود الإنجليـــز قـــضي علـــيهم جميعا في سنة ١٢٩٠ بالنفي ، وتبعت إنجلترا في ذلك فرنسا ومن أوروبـــا الوسطي ودولها ، وبلغ ذلك الإجراء منتهاه أثناء نفيهم المروع من أســـبانيا والبرتغال في العقد الأخير من القرن الخامس عشر ولم يـــنجح مـــن هـــذه المعاملة الجماعية سوى الجماعات اليهودية الصغيرة في إيطاليا.

يرجع السبب في هذا الإخراج الجماعي لليهـــود ، مـــن الأوطـــان المسيحية التي استوطنوها إلى الإحساس بـــالخطر مـــن اليهـــود المقيمـــين باعتبارهم أجانب لا مواطنين لأن الأقليات السورية واليونانية وغيرها التي هاجرت مع اليهود إلى دول أوروبا قد اندمجت في شـــعوبها قبـــل القـــرن الحادي عشر ، ولكن الأقلية اليهودية عاشت في أحياء خاصة بهم ثم أرغمت بعد ذلك على الإقامة بها تجنبًا لشرها ولاختلافها عن الباقين.

رأي المسيحي نتيجة تجربته أن اليهود معول من المعاول الهدامة في بنيان المجتمع من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، وذهب به الخوف منـــه إلى أن يتصور عنه أبشع التصورات العدائية للدين المسيحي ومعتنقيه. ولم

(٢٧١) المصدر السابق جـــ١ ص٦٤.

يكن في ذهن المسيحي وخياله أن يرى ببصره بيـوت المـسيحيين تنهـار دعائمها وتنقوض جدرانها من أثر الربا الفاحش الذي ارتبط باسم اليهـود ، بل أصبح عنوانًا له ، فالدين المسيحي لم يعد له كيان اقتصادي أمام مغـالاة المرابين اليهود في فرض النسب الخيالية لفائدة على قروضهم.

نشبت العصبية بين اليهودية والمسيحية، وترجع جذورها إلى مهـد المسيحية ، وما صادفته من غدر اليهود ، وتبادل الطرفان الـتهم وأعمـال الانتقام ، ووجد الناس في الكنيسة المسيحية معبرًا عما تنطوي عليه نفوسهم من مقت ، فالكنيسة صورت اليهودية تصويرًا كريهًا.

وعبر (بارلس) عن هذا الشعور فقال : لقد كان معتقدا أن اليهودي يطلب دم المسيحي لأغراض الطقوس الدينيـة ، وأنـه يـسرق الأطفـال المسيحيين، وكان معتقدًا أنه يسمم الآبار وينشر الأمراض ولقد كـان فـي ذاكرة عامة أوروبا أن اليهود يمتصون مجهود البلاد الاقتصادية ويمثلـون الطرف الخبيث الخطر الذي يسعي أبد الدهر لتحطيم المسيحية.

ووصف (سنيكا) موقف اليهود من سكان العالم فقال : إن عـادات هذه الأمة ينتشر أثرها بسرعة حتى أصبح لها مناصرون في كل بلد ، ولـم يتخلف نفوذ اليهود بعد اعتناق الامبراطورية الرومانية المسيحية عما كـان عليه في عهدها الوثني وإنما ازداد نتيجة تركزهم فـي المهـن التجاريـة والمالية. ثم جاءت الفتوحات الإسلامية في الشواطئ الجنوبيـة والـشرقية للبحر المتوسط ، فاحتكر اليهود التجارة في أسواق أفريقية والشام ، هاجروا مختارين إلى المدن التجارية الجديدة التي أنشئت في شـمال أوروبـا فـي القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، كما هاجروا من قبل إلى المدن التجارية في الإمبراطورية الرومانية.

الفصل العاشر

اليهود في فلسطين في العصر الإسلامي

فلسطين العربية الإسلامية :

كان اسم فلسطين لا يطلق على القطر المعروف بهذا الاسم الآن بل كان قاصرًا على شعب قديم ولم يطلق على هذا القطر إلا قبل نصف قــرن إذا كان القطر المعروف الآن بهذا الاسم يؤلف قــسمًا مــن الإمبراطوريــة العثمانية التي قسمت الوطن العربي إلى ولايات ومتصرفيات دون أن يكون بينها اسم ولاية فلسطين بل كان هناك متصرفية القدس وهي تابعة لولايــة دمشق، فلما وقعت الحرب العالمية الأولي وتقرر في نهايتها وضع الأقطار العربية تحت الانتداب البريطاني واستولت بريطانيا على القسم الجنوبي من سوريا وأطلقت على نصفه الغربي اسم فلسطين وعلى نصفه الشرقي اســم شرق الأردن.

أما معنى كلمة فلسطين فإنها محرفة من اسم شعب كان يقيم في تلك البقعة قبل أربعة آلاف سنة وأن هذه القبائل كانت تغزو ســوريا والعــراق ومصر وتستقر فيها وأن معظم الشعوب والدول التي ظهرت في الأقطــار المذكورة كانت نتيجة هذه الغزوات العربيــة وأن الكنعــانيين والفينيقيــين والبابليين والكلدانيين والحيثيين والأراميين والهكسوس وغيرهم كانوا جميعًا من القبائل العربية العاربة أو التي استقرت مع مرور الزمن ولا شك أيــضًا في أن مما عدا تدمر وغسان ولخم والأنباط ومؤاب وأدوم وغيرها كانــت الأخرى عربية.

وكان شعب فلسطين يقيم في جنوب البلاد وكانت له مدينة وحضارة امتدت حتى كريت وليبيا وآسيا الصغرى واليونان وقبــل أن تقــوم ســفن الفينيقيين يجوب البحار كانت سفن الفلسطينيين تمخر عبــاب البحــار إلــى المناطق الواقعة في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوســط وكانــت أشهر مدن الفلسطينيين يافا وغزة ومجدل وعسقلان وبيت داجــون وبيــت جبرين وغيرها وكان هذا الشعب يعبد الإله داجون وقد رسموه على شــكل سمكة كبيرة مما يدل على أن هذا الشعب كان يميل إلى أعمال البحر وكــان هذا الشعب يعيش عيشة القبائل العربية ولكل قبيلة ملك وكانت أسماء هؤلاء الملوك تدل دلالة واضحة على أنهم عرب.

وقبل أن يأتي الفلسطينيون ويستقرون في الرقعة الجنوبية من أرض فلسطين كانت هناك قبائل عربية أخرى قد استقرت في البلاد وأقامت فيها ، ومنها العمالقة الذين كانوا يستوطنون أطراف سيناء إلى بير سبع والخليــل. والبابوسيون الذين كانوا يستوطنون القدس وما حولها والكنعــانيون الــذين كانوا يستولون على جبال السامرة والكرمل إلى لبنان ، كما كانــت هنــاك قبائل أخرى مستقرة في البلاد.

ومن العسير الفصل بين تاريخ فلسطين ، وتاريخ سوريا ، وتــاريخ مصر عبر القرون الطويلة إلا في بعض الأزمنة والعصور القصيرة التــي خضعت فيها أقسام من سوريا بالغزوات جاءت عليها أحيانا مــن بابــل أو مقدونيا، أو روما أو فارس ، وكثيرًا ما اشتركت سوريا كلها في الدفاع عن وحدتها أمام غزوات الفاتحين ومطامع الطامعين " وكثيرًا ما خــاض أبنــاء سوريا المعارك جنبًا إلى جنب مع إخوانهم سكان الجنوب في رد العــدوان الأجنبي.

وهكذا رأينا فلسطين قطرًا عربيًا أصيلاً ، لا تشوب عروبته شـــائبة ما تضعف من شأنها فيه ، حيث كان مهجرًا من مهاجر الموجات العربيـــة قبل الإسلام ، ثم خلدت عروبته بالموجة الإسلامية الكبرى التي جرت بينها وبين الرومان فيه معارك طاحنة أستشهد فيها الألوف من مجاهـدي الفـتح الأول ، ودفن في تربته فيمن دفن أبو عبيدة القائد العـــام لجيـوش الفـتح الإسلامي وشرحبيل وعكرمة وغيرهما من كبار القواد والصحابة، وخلـدت صلة قدسية بالإسلام في القرآن وبما كان من الإسراء النبوي إليه.

رحب سكان الشام العرب بالجيوش العربية الإسلامية ، فقد كـــانوا على استعداد للاستظلال بظل الراية العربية التي وحدت بينهم دون أن ترغم أحدا منهم على اعتناق الدين الإسلامي ، وكان معظم هؤلاء السكان العرب الذين حررتهم الراية العربية من الاستعمار الروماني ، فأصبح الجميع شعبًا واحدًا ، وانخرط رجال الشام في الجيوش العربية التي نشرت راياتها فـــي المشرق والمغرب فكان معظم أفراد هذه الجيوش وقوادها من سوريا.

أصبحت أرض فلسطين تابعة للدولة الأموية دون أن تكـــون هنـــاك حدود بينهما ، وكان الخلفاء الأمويون يملكون الضياع والقـــصور فيهـــا ، ويقضون فصل الشتاء في مناطقها الدافئة ، فكان عبد الملك بن مروان يقيم أحيانا في مدينة الرملة البيضاء وكان هشام بن عبد الملك يقيم فـــي أريحـــا والمعروف أن الخلفاء الأمويين هم الذين أقاموا المسجد الأقصى ، وبنوا فيه قبة الصخرة ، وأنشأوا المدن والقصور وعَمّروا القرى والدساكر.

ظلت فلسطين تشارك أمها سوريا الحوادث والتطورات ، في أيـــام العباسيين ثم الأيوبيين ثم المماليك ثم العثمانيين ، دون أن يحاول أحد مـــن الفاتحين التفريق بينهما أو شطرهما ، أو إيجاد حدود أو أسماء لكل منطقـــة

من مناطق سوريا ، بل على العكس كان المعروف أنها جميعًا تؤلف قطــرًا واحدًا أطلق عليه اسم بر الشام.

أصبح لفلسطين دور عظيم في سجل تاريخ النــزاع بــين الــشرق والغرب استمر مائتي عام ، ودفن في تربته كذلك عشرات ألوف الــشهداء من العرب المسلمين ، وانتهى بدحر الغرب عنه وتخليــد صــفته العربيــة الإسلامية ومدته القبائل العربية بعد ذلك بموجاتها في خلدت أسماءها، فــي مختلف بقاعه ، مثل ديار بني حسن وبني مرة وغسانة والحوارث والحارثية وبني عامر وغيرها ، فضلاً عن الموجات التي مازالــت تحــتفظ بــصفتها وطابعها القبلي البدوي والمتوطنة في أنحاء عديدة منه في الجنوب والشرق والشمال ، وكان رجال فلسطين وشبابها في إبان انبثاق الحركــة العربيــة الحديثة في طليعة الصفوف ، وكانوا من الأركان التي قامت عليهــا هــذه الحركة في مختلف مظاهرها وأدوارها(٢٧٢).

ظل الحال على هذا المنوال حتي بدأ الانتداب البريطاني ، فوضــع الحدود بين فلسطين وجاراتها العربية ، لتنفيذ سياســة مرســومة وخطــة موضوعة ، كانت نتائجها تشريد الشعب الفلسطيني من وطنه وإنشاء الدولة الصهيونية في قسم من فلسطين.

فلسطين جزء من الوطن العربي : فلسطين جزء من الوطن العربي ، إذ نزل بها العرب منذ آلاف السنين وأقاموا فيهــا ، وظلــوا حتــي اليــوم يحتفظون بصلات الدم والقرابة التي تربطهم بإخوانهم الذين يعيشون في بقية البلاد العربية.

---

(٢٧٢) دروزة : حول الحركة العربية الحديثة ٣ ص ٢٠.

وتقع فلسطين في الطرف الجنوبي الغربـــي مـــن منطقـــة الهـــلال الخصيب وفيها تتمثل جميع الظاهرات الطبيعية والبشرية التي نصادفها في البلاد العربية المجاورة ، وبصفة خاصة لبنان وسورية ، والمملكة الأردنية ومصر ، فالسهول الساحلية التي تمتد في غرب فلسطين ، وتشرف على مياه البحر الأبيض المتوسط ليست إلا امتدادا طبيعيًا للسهول الساحلية في لبنـــان وشبه جزيرة سيناء ، وهي وإياها تتشابه في كل الصفات ، فهـــي ســـواحل ضيقة ذات سطح منخفض وتربة خصبة ،وأمطارها شـــتوية غيـــر كثيـــرة والمنطقة الأخدودية المنخفضة التي تمتد في شرق فلسطين ، ويجري نهـــر الأردن في بعض أجزائها ، ويشغل البحر الميت بعضها الأخر ، تشبه مـــن جميع الوجوه وادي البقاع الذي يمتد في لبنان ، بل إنهاء جزء مكمل لهـــذا الوادي ، لها نفس الخصائص التي تميزه والظاهرات التي يتصف بها.

والأرض الجبلية التي تفصل المنطقة الأخدودية في الـــشرق عـــن السهول الساحلية في الغرب ، وهي التي تسمى هضبة الخليل ، تعتبر امتدادا طبيعيًا لشبه جزيرة سيناء وصحراء النقب ، ولا تختلف عنهما في شـــيء ، إلا أنها أكثر ارتفاعًا وأغزر أمطارًا لهذا كانت رغم فقرها أوفر حظًا فـــي الحياة النباتية والحيوانية ، وأكثر تقدمًا في مظاهر النشاط البشري.

والظروف المناخية السائدة في فلسطين هي بعينها الظـــروف التـــي تخضع لها بقية البلاد العربية وهي خليط من الخصائص التي يتميز بها مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوي ، وفيما تتمثـــل الظـــاهرات المناخيـــة المختلفة التي يتميز بها هذان الإقليمان.

والعناصر الجنسية التي تعيش في فلسطين هي بعينها العناصر التي تقيم في بقية البلاد العربية ، وهم يتألفون من أكثرية عربية وأقلية يهودية ،

ولا يختلف نظامهم الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين عنـــه فـــي الـــبلاد العربية الأخرى ، فهم يعيشون على الزراعة وتربية الحيوان ويعتمدون على قليل من الصناعة والتجارة(٢٧٣).

اليهود وفلسطين قبل القرن الثامن عشر :

لا نجد لكلمة صهيون أصلاً متفقًا عليه في اللغة العبريـــة ، وأكثـــر الشُرَّاح يرجحون أنها عربية الأصل لها نظير في اللغة الحيثية ، وإنها مـــن مادة الصون والتحصين ، وكانت فعلان من حـــصون الروابـــي العاليـــة ، والمقصود بالعربية هنا لغة الأصلاء من أبناء الجزيرة الذين ســكنوا أرض فلسطين قبل هجرة العبرانيين بمئات السنين ، وهم الذين أطلقوا على الأرض كنعان بمعنى الأرض الواطئة ، ولا تزال مادة كنع توضع بهذا المعنى فـــي لغتنا العربية الحاضرة.

والكلمة تكتب في العبرية تارة بالسين وتارة بالزاي ، ولم يحـــرص عليها اليهود بعد دخولها في حوزتهم بل جاء في سفر صـــمويل الثـــاني أن داود غير اسمها باسم بيت داود ولم يشأ أن ينقل تابوت الرب إليه – بل مال به إلى بيت عربية وكذلك كان شأن صهيون قبل سبي بابل . فلمـــا حمـــل اليهود إلى الأسر أصبح الحنين إلى (صهيون) رمزًا للحنين إلـــى عـــودة المملكة الغابرة . وتحولت الوعود الإلهية في كتبهم تحولاً جديدًا مع مصالح السياسة ، فانحصرت في ذرية داود – عليه السلام -- ليخرج منها غير ذي الذرية من اليهود.

---

(٢٧٣) الشرق الأوسط للدكاترة عامر ومتولي وعز الدين فريد ص ٤٨.

وليس هذا بالتحويل الأول عندهم في هذه الوعـود علـى حـسب المصالح السياسية. فقد كان الوعد لإبراهيم فحولوه إلى إسحاق ليخرجوا منه أبناء إسماعيل وهم العرب ، ثم حولوه إلى ذرية داود لينحصر فـي مملكـة الجنوب دون مملكة الشمال. وهكذا كان وعد صهيون (وعدًا سياسيًا) تابعا لمآرب الدولة ومآرب الهيكل الذي يقام في جوارها فلا شـأن لـه بالعقيـدة الدينية التي تشمل جميع سلالة إبراهيم[٢٧٤].

تفرق اليهود في عصر السيد المسيح ، في أنحاء الدولة الرومانيـة واتخذوا لهم وطنا في كل قطر من أقطارها الواسعة ، فكتـب (فيلـون) فليسوف الإسكندرية اليهودي يقول في تحديد موقفهم مـن الدولـة : (وأن اليهود – لكثرة عددهم – لا تحتويهم بقعة واحدة ، ويتفرقون لطلب الـرزق في أغنى البلاد من أوروبا وآسيا ، على أنهم ينظرون إلى أورشـليم مقـر هيكل الله المقدس كأنها حاضرتهم الكبرى ، ويحسبون وطنًا لهم كـل أرض عاشوا فيها وعاش فيها آباؤهم من قبلهم).

والكلمة التي عبر بها فيلون عن الحاضرة هـي الكلمـة اليونانيـة (متروبوليس) أي أم المدن من كلمة (متري) بمعني أم . و (بـوليس) بمعنى مدينة ، وتطلق على كل مركز مهم من مراكز المعابد أو الدواوين.

لم تكن الصهيونية في الزمن القديم عقيدة دينية ، بل كانـت نزعـة سياسية ، ثم ذهب الأمل في نجاحها السياسي ، فانقطعت العلاقة بينها وبين معناها الجغرافي ، وأطلقت في بعض التعبيرات على معنى آخر بعيد كـل البعد عن المعاني الجغرافية ، وذلك حيث يقـول صـاحب الرسـالة إلـى

---

[٢٧٤]) العقاد : الصهيونية ص ١٢.

العبرانيين من الإنجيل : (إنكم لم تأتوا إلى جبل ملموس مضطرم بالنار .. بل أتيتم إلى جبل صهيون ، وإلى مدينة الله الحي أورشـــليم الـــسماوية . . وكنيسة أبكار مكتوبين في السموات وإلى الله ديان الجميع).

وواضح من تعبير هذه الرسالة أن الصهيونية قد تحولت إلى فكرة لا تتعلق بمكان معين ، ولا تتطلب العودة إليها ، واعتبروا هذه الدعوة إنكـــارًا للمسيح المنتظر في عالم الروح ، فتلاقت عقيدة المسيحيين المؤمنين بالمسيح وعقيدة اليهود الذين ينتظرونه في آخر الزمان ، فاتفقتا على شيء واحد وهو الفصل بين الصهيونية والسياسية والفكرة الدينية..

تناثر اليهود في أرجاء المعمورة ، حاملة معها تفكيرها الساذج الذي يزعم أن بني إسرائيل خير الأمم لأنهم شعب (يهوه) وأن أرض إســـرائيل أحسن البلاد وطن (يهوه) وانتقلت هذه الأفكار من الآباء إلى الأبناء وغدت أمورًا مسلمة لا يستساغ بحثها أو الجدل فيها.

وكان هذا هو الوضع السائد على درجات متفاوتـــة فـــي مختلـــف الأماكن والأزمان.

منذ قضى الرومان على مملكة يهوذا وفقد اليهود اســـتقلالهم حتـــى أصبح اليهود يضرعون إلى ربهم فـــي صـــلواتهم أن يـــردهم إلـــى أرض الميعاد ، وتأصلت هذه الأمنية في قلوبهم ، حتى أصبحت لديهم عقيدة دينية قائمة على ما وعد به رب السماوات والأرض نبيه إبراهيم من أن الأراضي المقدسة ستبقى أبد الآبدين وقفا على ذريته ، فظلوا على إيمانهم الراسخ بأن المسيح سيأتي ذات يوم لينشر السلام على الأرض ويجمع شملهم في أرض أسلافهم ، وكانوا يجدون في هذا الأمل ما يخفف اللوعة ويـــشفي النفـــوس

الحائرة فيذكرونه في صلواتهم اليومية الثلاثة ، مبتهلين إلـــى الله أن يبعـــث صهيون ويعيدهم إلى أورشليم.

وكان هذا الدعاء يتردد في أعيادهم التي تـذكرهم بأحـداث العهـد القديم ، أما صيامهم فيمتد طوال فترات يتخللها الحزن على أيامهم الخـوالي ومجدهم الضائع ، وأما التلمود الذي يحفظونه عن ظهـر قلـب فيـذكرهم بالأرض الطيبة التي كان يقلها أجدادهم ، والمعبد الذي كان يشهد صـلواتهم وأدعياتهم بأن يعود مخلص الشعب المختار إلى أرض صهيون.

فإذا ما حل عيد الفصح وانتهت فترة التوبات ، تبادل اليهود التحيـة فيما بينهم قائلين : إلى اللقاء في أورشليم ، العام القادم ، وكـان المتـدينون منهم يحجون إلى بيت المقدس في القرون الوسطي ، أما أولئك الـذين لـم يسعدهم الحظ بهذه الزيارة ، فقد كانوا يوصون أهلهم بأن يـضعوا تحـت رؤوسهم في مثواهم الأبدي حفنة من تراب فلسطين(٢٧٥) .

حاول الإسلام في أول الأمر ، أن يتألف اليهود ، أو يجذبهم إليـه ، ولكنه لم يفلح في ذلك لعنتهم في تفكيرهم ، وإغفالهم فهم روح هذه الوثبـة العربية العظيمة ، ومع ذلك فقد كان تسامح المسلمين مع اليهـود واضـحًا ومستمرًا على مر العصور فأتيح للسفارازيم ، وهم اليهود المقيمين في الديار الإسلامية ، أن يعيشوا في سلامة وطمأنينة ، أكثر مما أتيح للاشكنازيم وهم اليهود المقيمين في البلاد المسيحية ، واستقام للسفارازيم الأمر بعض الشيء وانسجموا مع بيئتهم ، فظهر منهم الأدباء والحكماء ، والمقربون إلـى ذوي

---

(٢٧٥) هذه هي الصهيونية : (من مطبوعات وزارة التربية والتعليم) ص ١٤.

السلطان واصطبغوا بصبغة البلاد المقيمين فيها ،فلا يختلفون إلا فيما تفرضه عليهم عقيدتهم الدينية من طقوس وسلوك.

كان الذوبان الكامل في الخضم الإسلامي أمرًا لا مفر منه ولذا بقيت الحضارة في العالم نامية متفاعلة. بيد أن الظلام خيم على تلك الديار وعلى من فيها من اليهود ، فلبثوا قرونًا دون تغيير ، ليسوا بالذائبين نهائيـــا فـــي المحيط الذي لم يعد قادرًا على الإذابة ، وليسوا بالمتمسكين بالعقيدة الأصلية المبنية على كونهم شعب الله المختار ، وأن العودة علـــى أرض إســـرائيل واجبهم الأكبر .

وإنما أصبح هذا الاعتقاد مجرد طقوس وتبتلات وأمـــاني دينيـــة ، يتسلى بها العجزة في بيوتهم ، ويستعيض بها الشباب عمـــا يجدونـــه مـــن اختلاف بسيط بينهم وبين المحيطين بهم . وهكذا فقـــدت العقيـــدة حيويتهـــا السابقة ، وأمسى مظهرها الوحيد أفرادًا من اليهود يتحاملون على أنفسهم في شيخوختهم ليموتوا في أورشليم ، بعد أن يذرفوا أرواحهم دموعًا سخينة على حائط المبكى وأيامه الحلوة التي لن تعود.

أما (الأشكنازيم) فقد اضطرهم الاضطهاد المسيحي إلى التجمع في شرق أوروبا حيث عانوا من الضغط والإرهاق قدرًا كبيرًا ، أوجـــد فـــيهم طباعًا غربية ، فقد أصبحوا ناقمين على مواطنيهم ، كارهين لهـــم خـــائفين منهم ، مبتعدين عنهم.

مضت الأعوام والأجيال ،وهـــذا التباعـــد النفـــسي بـــين اليهـــود الأشكنازيم ، والمسيحيين والأوروبيين تزداد شقته ، وتتأصل جذوره. فلمـــا انهارت الأندلس العربية الإسلامية ، وارتدت أوروبية مسيحية ، خير يهودها

بين مصائر ثلاثة : الكثلكة أو الهجرة أو الحرق فهاجر من هاجر من هؤلاء اليهود الذين كانوا منسجمين مع محـــيطهم الإســـلامي ، إلـــى دول غـــرب أوروبا ، حيث كانت البروتستنتية تسود تدريجيًا ، فتجنبهم شيئا من المصير السيئ الذي أصاب الأسكنازيم في شرق أوروبا.

اليهود في فلسطين في العصر العثماني :

استولى العثمانيون في عهد السلطان سليم الأول على بلاد الشام بما فيها فلسطين ، في سنة ١٥١٦ بعد هزيمة السلطان المملوكي قنصوه الغوري في موقعة مرج دابق ، وتلا ذلك وقوع العالم العربي تحت الحكم العثمـــاني وازداد تدفق اللاجئين اليهود إلى فلسطين في أعقـــاب الاضـــطهاد الـــديني ومحاكم التفتيش في إسبانيا ،وكان أغلبهم يمتاز بعلم واسع ، فشغلا أســـمي المناصب بين أبناء دينهم ، وما لبثت عشائر المغاربة منهم أن اندمجت مـــع الطوائف العربية واليهودية ، بينما ظل يهود ألمانيا وبولندا على انزوائهم لا يختلطون بالآخرين.

ذلكم هو التقسيم الطائفي الذي استمر عدة قرون في فلسطين، إذ لـــم يعد يهود بخارى وفارس واليمن إلى أرض صهيون قبل القرن التاسع عشر وتلا هؤلاء يهود وسط أوروبا وشرقها فانضموا إلى طائفة الأشكنازيم.

استمر الحكم العثماني أربعة قرون ، تميزت بعدم اكتراث الحكـــام بالمحكومين وما كانوا يفرضونه من ضرائب باهظة ، مما أنزل الفقر بأهل فلسطين عرب ويهود ، ودام ذلك الحال إلى أن طرد محمد علـــى الأتـــراك العثمانيين من فلسطين سنة ١٩٣٢ وحاول بعد ذلك إجراء الإصلاحات ، إلا

أن الضرائب ظلت باهظة بقدر ما كانت أبان حكم العثمانيين ، فثار عـــرب فلسطين على حكمه ، واستولوا على القدس وصعد .. وقمع محمد على ثورة العرب عام ١٨٣٧، ثم حدث زلزال مروع فقضى على نحـــو ألفـــين مـــن اليهود.

وقامت الحرب مرة أخرى بين محمد على والـــسلطان العثمـــاني ، فتدخلت الدول الأوروبية وأعيدت سوريا وفلسطين إلى الحكم العثماني بعـــد أن وعد الأتراك بإجراء بعض الإصلاحات ومعاملة جميع السكان على قدم المساواة.

ثم استقرت أحوال اليهود بعد إنشاء عدة قنصليات أوروبية فكانـــت كل واحدة منها تمنح حمايتها لرعاياها الأصليين بمقتضى الامتيازات التـــي منحها العثمانيون لبعض دول أوروبا.

اختلط العنصر الديني وفكرة ظهور المسيح الذي سيعيد اليهود ذات يوم إلى فلسطين ، بالعنصر السياسي في بعض الأحيان ،وكان أول مظاهر هذا الاختلاط مشروع وضعه (دافيد روبيني) خلال القرن السادس عشر ، وكان هذا بدعوة اليهود من العرب إلى غزو فلسطين وانتزاع أراضيها مـــن أيدي الغاصبين الغزاة بمساعدة أقطاب اليهود في أوروبا ، مستهدفين تأسيس دولة يهودية في الأراضي الفلسطينية.

ولكن هذا المشروع آثار الذعر في النفوس فمات في المهد ، وظهر فيما بعد مشروع آخر عرضه تاجر دانيماركي يدعي (أوليجر باولي) على ملك إنجلترا غليوم الثالث ، وملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وكـــان هـــذا

المشروع يقوم على أساس دنيوي لا ديني ، غير أن عاهلي إنجلترا وفرنسا أعرضا عنه[٢٧٦].

أثر الانقلاب الصناعي والثورة الفرنسية في السياسية اليهودية :

في أواخر القرن الثامن عشر بدأ الانقلاب الصناعي ، وقامت الثورة الفرنسية ويصحبهما تبدل كبير في تفكير وحياة وسياسة اليهود المقيمين في غرب أوروبا.

أشعرت الثورة الفرنسية اليهودية بالحرية وبالمساواة ، فشرعوا يخالطون الناس على خور ، ويستفيدون من حقوقهم الجديدة على وجل ، وخيل إليهم أن عذاب اليهود التائه قد انتهى .. ثم اقبلوا على العلم ، يأخذون ويعطون. على غير عاداتهم . تطور الفكر اليهودي تطورًا لم نشهده أبدًا ، منذ تحجر على أنهار بابل ، منذ أربعة عشر قرنًا فسفر التكوين لم يعد له ، مكان في عصر الفلك والرياضيات والعلوم التجريبية ، وشجرة نسب بني إسرائيل اقتلعها (داروين) بنظريته عن التطور والارتقاء ، والأساطير فضحها (فريزر) وغيره من الدارسين لنفسية الإنسان الفطري.

وهكذا بدد نور العلم الضباب الكثير الذي اكتنف الفكر اليهودي مئات الأجيال ، وساهم يهود غرب أوروبا في النهضة العلمية ، فظهر منهم العلماء والفلاسفة والأطباء والمخترعون العاملون في كل مكان. وهيأت لهم الثورتان الصناعية والفرنسية، المجال لبدء حياة جديدة ، هي حياة المواطن العادي.

---

[٢٧٦]) هذه هي الصهيونية ص ٢٩.

جاءت الثورة الفرنسية بنظريات سياسية تدعو إلى الحقوق الطبيعية للإنسان ، وأهمها الحرية والمساواة ، ولم تحاول أن تستثنى من التمتع بهذه الحقوق فردًا من الأفراد أو الجماعات. وكان اليهود في أوروبا مـــن أبــرز الجماعات التي أفادت من هذا الجو الحر ، ومن هذه الحركة التحريريـــة ، خاصة وأن هذه النظريات السياسية قد وجدت في نابليون وفتوحاتـــه التـــي امتدت إلى جميع أنحاء أوروبا وسيلة التنفيذ الفعلي . فأمام غزوات نـــابليون سقطت جدران أحياء اليهود في كل مكان، وبالرغم من رد الفعل الذي حدث للثورة الفرنسية بعد سقوط نابليون فإن الرجعية لم تشملْ على وجه العموم ما ناله اليهود من حقوق في الحرية والمساواة. إذ خرج اليهود من الأحياء التي اختاروا العزلة فيها أول الأمر ثم فرض عليهم الإقامة فيها بعد مـــا احتـــدم العداء بينهم وبين المسيحيين ، وخرجوا كـــذلك مـــن أزيـــائهم التقليديـــة ، فأصبحوا يلبسون اللباس الأوروبي العادي ويلبسون معـــه لبـــاس التحـــرر الظاهري في العقائد الدينية ، وحاول بعضهم أن يتنصر التماسًا للمـــشاركة التامة في حياة الأوروبيين ، ومثال ذلك (دزرائيلي) الذي أصرت أمه على تعميده وأن تغسل بماء التعميد كل ما يحمله ابنهـــا مـــن مظـــاهر التميـــز الطائفي(٢٧٧).

نابليون واليهود :

كان نابليون من الخبراء الذين يحذقون صناعة الحكم ، وكان علـــى علم بديهي بأطوار الجماعات ومصادر النفوذ في الرأي العام ، ولـــذا اهـــتم بعوامل النفوذ الصهيوني في البلاد الفرنسية وفي البلاد التي يتطلـــع إليهـــا

---

(٢٧٧) دكتور عبد المعز نصر : الصهيونية ص ٥٦.

بنظره ، لأغراض سياسية أو عسكرية. كان في سنة ١٨٠٦ سيد القارة الأوروبية غير مدافع ، هزم النمسا وروسيا وتغلب على وليام بت في ميدان العلاقات الدولية ، ولكنه في تلك السنة كان يرفع يديه دهشا ويسأل من حوله قائلا : (بأية معجزة أصبحت أقاليم كاملة من فرنسا مترهنة لليهود ، وليس منهم فيها أكثر من ستين ألفا ؟).

فكر نابليون في الصهيونية العالمية قبل حملته على المشرق وساوم هذه الصهيونية على تبادل المنفعة من وراء تلك الحملة ، فهم يعودون إلى أرض الميعاد ويعيدون فيها دولتهم البائدة ، وهو يستفيد من أموالهم ورعايتهم في تأييد تلك الحملة ومقاومة النفوذ السياسي أو المالي الذي يعترضها ويعوق حركاتها.

لما اتجهت أوروبا كلها إلى طرق المواصلات بين الشرق والغرب خلال الدولة العثمانية ، أراد نابليون أن يستخدم اليهود للسيطرة على التجارة في هذه البقاع ، فنشر بالصحيفة الرسمية في ٢٠ أبريل سنة ١٨٩٩ إعلانا دعا فيه يهود أفريقية وآسيا إلى موافاة جيشه بمصر ، ليدخلوا معه إلى أورشليم ، وراجت في باريس سنة ١٧٩٨ دعوة يهودية إلى اغتنام الفرصة ، للاستعانة بفرنسا على تنظيم الحملة التجارية بين الوجه البحري في مصر ، وعكا والبحر الميت وشواطئ البحر الأحمر.

وواضح من خطة نابليون أنه لم يكن يريد المعونة العسكرية من الصهيونيين ، وأن الفرق المزعومة التي قال أنها تهدد مدينة حلب لم يكن لها وجود ، وإنما أراد بها معونة الأيدي الخفية في مراكز السياسة العليا كما أراد ضمان المال إذا ضنت به خزانة الدولة[٢٧٨].

---

[٢٧٨] العقاد : الصهيونية ص ٧٠.

وعد نابليون اليهود أن يعيد إليهم مجدهم الضائع ، ويرد لهم حقوقهم المسلوبة منذ آلاف السنين ولكن نابليون فك الحصار عن عكا وعـاد إلـى بلاده قبل أن يصل نداؤه إلى اليهود.

ثم دخلت قضية فلسطين بعد جلاء الفرنسيين عن مصر في أوائـل القرن التاسع عشر (سنة ١٨٠١) في دور جديد ، لن نتعرض له في هـذا الكتاب ، إذ هو خارج عن دراستنا ، وقد رأينا الاقتصار على دارسة أطماع اليهود في فلسطين في نهاية التاريخ الإسلامي ، وبداية التاريخ الحـديث ، وسنقتصر في الفصل القادم ، وهو الأخير ، على دراسة أحـوال العـرب والمسلمين السيئة في فلسطين المحتلة التي اغتصبتها إسرائيل الـصهيونية ، وما ترتب على قيام هذه الدويلة المزعومة من تشرد أهالي فلـسطين مـن العرب المسلمين ، مما أدى إلى ظهور مشكلة (العائدين) أو (اللاجئين).

* * * * * * *

الفصل الحادي عشر

العرب والمسلمون في إسرائيل

شهدنا في الفصول السابقة كيف عاش اليهود في الدول الإسلامية ، في ظل التسامح الإسلامي ، فقد تولوا المناصب الكبرى ، ومارسوا شـعائر دينهم في حرية تامة ، واشتغلوا بجميع الحرف والمهـن ، وشـاركوا فـي الحياتين الاجتماعية والاقتصادية ، وهذه هي صورة قائمة ، تبـين أحـوال العرب المسلمين في فلسطين التي اغتصبتها إسرائيل ، حتي يمكن المقارنـة بين معاملة المسلمين لليهود ومعاملة اليهود الصهيونيين للمسلمين.

مشكلة اللاجئين :

بلغ عدد سكان فلسطين عام ١٩٤٨ حوالي مليون وثلـث المليـون نسمة وبدأت موجة الهجرة العربية من فلسطين قبيل موعد انتهاء الانتـداب البريطاني (١٥ مارس ١٩٤٨) بسبب الأخطاء العظيمـة التـي أحـدقت بالعرب والذعر الذي حل بهم بعد مذبحة دير ياسين.

بعد أن خرج البريطانيون من أرض فلسطين في سنة ١٩٤٨ تـولى اليهود زمام الأمور بالقوة وأعلنوا قيام دولتهم التي أسموها إسرائيل ثم أخذوا يمكنون لأنفسهم في البلاد وينشرون الرعب والفزع في قلوب العرب. ولـم تجد الدول العربية بدًا من مقاومة الحركة اليهودية الجديدة ومقاومـة القـوة بالقوة ، فزحفت جيوشها على أرض فلسطين للقـضاء علـى العـصابات اليهودية التي تحاول أن تقيم دولة يهودية في أرض عربية وكادت الجيوش

العربية أن تقضي على اليهود لولا مساعدة أمريكا وبريطانيا لهم في إرغام الجيوش العربية على قبول الهدنة وتمكن اليهود من الاستيلاء علــى جــزء كبير من أرض فلسطين وطرد العرب منه.

عندما احتلت القوات الإسرائيلية المناطق التي يقـيم فيهـا العــرب حاولت أن تطردهم وترغمهم على الهرب من إسرائيل إلى الــبلاد العربيــة فقامت بأعمال إرهابية كثيرة كانت نتيجتها أن خرج عدد من هؤلاء السكان إذ كان عدد سكان القرى العربية في المناطق العربيــة ٣٤٧٠ ألــف نــسمة يقيمون في ١١٠ قرية ما زالت قائمة ومحافظة على وضــعها العربــي ولا يبقى فيها الآن غير حوالي ١٥٢ ألف نـسمة فقـط كمـا قامــت القــوات الإسرائيلية بطرد السكان العرب من ٣٧ قرية عربية أخــرى بعــد الهدنــة الثانية وجمعت سكان هذه القرى وأرسلت قسمًا كبيرًا منهم في خطوط الهدنة وأمرتهم بدخول البلاد العربية ونقلت قسما آخر إلى منــاطق أخــرى فــي إسرائيل.

سقطت المدن في أيدي اليهود فأخذوا ينزحون إلى الأماكن الآمنــة داخل فلسطين وخارجها . وخاصة إلى الأردن وقطاع غزة وسورية ولبنان ومصر وعندما وصلت الحرب إلى منطقة النقب رحل من عرب البادية نحو ثلاثين ألف. وما جاء شهر أكتوبر ١٩٤٨ حتى ساءت الحال وتفاقم الخطب وأصبح نحو مليون عربي من اللاجئين والمشردين فــي حاجــة للمــأوى والمأكل والملبس والعمل والعلاج والتعليم بعد أن دمرت مساكنهم وضاعت أموالهم وجردوا وفقدوا جميع موارد الرزق وأسباب العيش ومنذ ذلك الحين أصبحت قضية هؤلاء اللاجئين قضية تنظر الحل السريع.

أحوال العرب السيئة في إسرائيل :

عينت السلطات الإسرائيلية ضباطًا من الجيش لإدارة الأعمال فـــي المناطق العربية ويدير هؤلاء الضباط شئون القرى العربية إدارة عـسكرية وضعت محكمة إسرائيل قانونًا خاصًا في ٣١ مارس ســنة ١٩٥٠ اســمه (نظام الطوارئ في مناطق الحكم العسكري) وأنشئت بموجب هذا القانون ست مناطق عسكرية في البلاد وينص قانون الحكم العسكري على اعتبـــار كل قرية أو مدينة أو حي يقيم فيه العرب منطقة مغلقة لا يجوز الدخول إليها أو الخروج منها إلا بتصريح من الحاكم العــسكري الــذي لا يمــنح هــذه التصاريح إلا في الحالات الضرورية كالمرض أو القضايا أمـــام المحـــاكم والحالات المشابهة.

يجرى اختيار الحاكم العسكري من الضباط الذين ليست لهم صداقات شخصية وعلاقات ودية مع العرب وليس من الضروري أن يعــرف اللغـــة العربية لأنه يرغم العرب على أن يكتبوا له بالعبرية أو يخاطبوه بها.

للحاكم العسكري أن يفرض نظام منع التجول على المكان ويحـــدد ساعاته ويستدعي قوة من الجيش أو بوليس الحدود لتنفيذه ولا يجوز لأحـــد من سكان المكان أن يخرج منه وعليه أن يقدم طلبًا رسميًا على ورقة تمغة وينتظر المصادقة على طلبه في خلال ٤٨ ساعة ويأخذ التصريح وعليه بعد ذلك أن يبحث عن وسيلة نقل للسفر إلى الجهة المعنية فـــي التـــصريح ولا يجوز له أن يذهب إلى غيرها.

وإذا كان أحد السكان يملك قطعة أرض خارجة من منطقة القريـــة التي يعيش فيها فإن عليه أن ينال تصريحًا للذهاب إليها . وهذا التــصريح يعين الساعات التي يجوز له أن يذهب فيها إلـــى الأرض وإذا كـــان أحـــد السكان يشتغل في عمل دائم خارج القرية فإن عليه أن ينال تصريحًا يعطى له بناء على موافقة صاحب العمل.

في حالة وقوع مخالفة عامة من سكان القرية فإن من حق الحـــاكم العسكري أن يفرض غرامة جماعية على جميع السكان وأن يحصلها بالحجز على ممتلكاتهم. وللحاكم العسكري جواسيس على العرب في القرية يدفع لهم مكافآت لتبليغه عن كل نشاط مشبوه. ومن حق الحاكم العسكري أن يتداخل في الأمور السياسية ويشجع السكان على الانتماء إلى الأحزاب الرسمية.

يبلغ عدد سكان إسرائيل حوالي مليوني نسمة بينهم ٢٢٦ ألف مـــن العرب والباقون من اليهود. والسكان العرب في إسرائيل يتألفون من عـــشر طوائف إسلامية ومسيحية هي : المسلمون الـــسنيون والـــشيعة والـــدروز البهائيون والأحمديون والمـــسيحيون الأرثـــوذكس والكاثوليـــك والموازنـــة والأرمن والبروتستنت.

أما السكان اليهود فإن الانقسامات بينهم عديدة أهمها اللون والـــدين والقومية والاتجاه العقائدي والميل السياسي والعادات الوطنية.

ويلعب اللون في إسرائيل دورًا رئيسيا في الحيلولة دون خلق مجتمع صحيح فإن نصف سكان إسرائيل من أبناء اللون الأسمر أي مـــن مواليـــد الأقطار الأسيوية والأفريقية والنصف الثاني من أبناء أوروبا. وهناك اندماج حزبي بين الأوروبيين ولكن لا يوجد أي اندماج بين الشرقيين والأوروبيين

أو حتى بين الشرقيين بعضهم بعضًا . ويسيطر الأوروبيون سـيطرة تامـة على كل شيء في إسرائيل[٢٧٩].

دخل إلى إسرائيل منذ تأسيسها حتى الآن حوالي مليون نسمة مـن المهاجرين اليهود الذين جاءوا من مختلف أقطار العالم وقد أظهرت الأرقام الرسمية التي نشرتها حكومة إسرائيل أن نصف هؤلاء المهاجرين جاءوا من الأقطار الشرقية أي بين آسيا وأفريقية وأن النصف الأخر جاء من أوروبـا كما ثبت أيضًا أن ٩٣ في المائة من هؤلاء المهاجرين لم يأتوا برغبتهم بـل جاءوا تلبية لوسائل الدعاية والإغراء التي قامت بها الهيئات الصهيونية التي دفعت عنهم نفقات سفرهم وأنفقت عليهم مبالغ طائلة لا تقل عن سبعة آلاف دولار على كل مهاجر قبل استيطانه.

وقد كان من السهل في بادئ الأمر إسكان هؤلاء المهاجرين إذ كان عرب فلسطين عند رحيلهم قد تركوا وراءهم عددًا كبيرًا من المدن والقرى الخالية ، فنزل اليهود بها فلما امتلأت نزلوا بالمعسكرات التي كان الجـيش البريطاني قد تركها في البلاد ، وهي عبارة عن أكـشاك خـشبية واسـعة يجاورها عدد كبير من الخيام وبيوت من الصفيح . وقد خدعتهم الـسلطات اليهودية وقالت أن هذه المعـسكرات هـي معـسكرات انتقـال فقـط وأن المهاجرين سينقلون منها إلى بيوت جديدة تقام لهم خصيصًا وأطلقت علـى هذه المعسكرات كلمة (معابر) أي أماكن انتقال ولكن الأمر على العكـس تمامًا فإن هذه المعابر بدلاً من أن تختفي وتزول أصبحت أماكن سكن دائـم وأضيفت إليها ألوف من الخيام والبيوت والخشب ليس بها مجاري المياه أو غيرها من وسائل الصحة والنظافة.

---

[٢٧٩]) واكد : إسرائيل في الميزان ص ٦١.

فلسطين قطر صغير وهي في أغلب جهاتها تتألف من مناطق جبلية يعوزها الماء ، ومن أراض صحراوية مجدبـــة ، ولا يـــصلح للاســـتغلال الزراعي منها إلا مناطق محدودة تكاد تقتصر على السهول الساحلية التـــي تجاور البحر المتوسط والسهل الشمالي حول بحيرة الحولة وسهل مرج بـــن عامر ، وهي جهات ذات تربة خصبة وموارد مائية منتظمة وفيهـــا تعـــيش الغالبية العظمي من سكان فلسطين وتقوم المدن الرئيسية ومراكز الاستغلال الهامة.

وعلى الرغم من تقديم الزراعة فيها ونجاح اليهود في استغلالها إلى أقصى حد مستطاع فإن إنتاجها من الغلات الزراعية لا يكفي حاجة السكان بأية حال فضلاً عن مواجهة الزيادة المنتظرة في عدد اليهود بالذين وفـــدوا وما زالوا يفدون إلى فلسطين(٢٨٠).

ويدرك اليهود هذه الحقيقة إدراكًا تامًا ، وهم من أجل هذا يبـــذلون أقصى الجهود لزيادة الأرض المنزرعة وذلك بتوفير المياه اللازمة لريها إما باستنباطها من باطن الأرض كما هي الحال في منطقة النقب وإما بتحويـــل المجاري النهرية إليها كما هي الحال في مشروع نهر الأردن.

ولكن عقبات كثيرة تحول دون ذلك ، منها أن النقب إقليم جـــاف لا يمكن استغلال أراضيه وأن مياهه الباطنية قليلة لا يمكن الإفادة منها، ومنها أن نهيرات الأردن التي تمده بالماء لا تجري في أرض فلسطين وإنما تمتـــد في بلاد عربية أخرى غير خاضعة لإرهاب اليهود.

---

(٢٨٠) مصطفى عامر الدكتور متولي والدكتور عز الدين فريد : الشرق الوسط جـــ٢ ص ٥٤.

وإلى جانب الزراعة والانتاج الزراعي أدخل اليهود في فلسطين صناعات كثيرة حديثة لتكون منفذًا يستوعب عددًا كبيرًا من اليهود المهاجرين وكان من الممكن أن تزدهر هذه الصناعات وتنمو خصيصًا وأن الولايات المتحدة الأمريكية تقف وراءها تشد أزرها وتمدها بالمعونة ولكنها على العكس من ذلك لقيت صعوبات جمة إذ أنها لم تنهض على أسس طبيعية صحيحة وإنما قامت على مجرد العاطفة والمساعدات الأمريكية ولذا فإن مصيرها إلى الانهيار ولن تقوى على استيعاب عدد كير من المهاجرين.

الضمير العالمي ومشكلة اللاجئين :

بلغ عدد اللاجئين في عام ١٩٥٤ ما يقرب من مليون عربي ، وكان توزيعهم على النحو الأتي :

العراق ٥٠٠٠ لاجئ لبنان ١٠٤,٠٠٠ – سوريا ١٤٠٠٠ لاجئ – المملكة الأردنية ٤٠٧٠٠٠ لاجئ – فلسطين العربية ٢٢٠,٠٠٠ لاجئ – قطاع غزة ٢٠٤,٠٠٠ لاجئ.

لقد شرد حوالي مليون عربي من سكان فلسطين الآمنين وأجبروا على ترك أراضيهم التي عاشوا وعاش أجدادهم فيها لإفساح الطريق لليهودية الغاشمة تحتل أرضيهم وتغتال أرزاقهم وتقطع أوصالهم وتأكل أقواتهم ، ويفتك الجوع بهم وينهش السل في أجسادهم – فبدلت عزتهم ذلاً وسيادتهم هونا وبؤسًا[٢٨١].

[٢٨١]) محمد صفوت : إسرائيل العدو المشترك .

لم تتوان الدول العربية في البداية عن إيواء من كانوا إليها يلجــأون وبادرت الحكومة والهيئات والأفراد إلى اتخاذ التدابير الواجبــة للإســعاف العاجل. وفي يوليو ١٩٤٨ طلبت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية مــن المنظمات الدولية التابعة لهيئة الأمم المتحــدة أن تقــوم بإغاثــة اللاجئــين الفلسطينيين واتخذت هيئة الأمم المتحدة قرارًا في أكتوبر سنه ١٩٤٨ بجمع الأموال لتنفيذ برنامج إغاثة لمدة ستة أشهر تنتهي في آخر أغــسطس ســنة ١٩٤٩. وفي ديسمبر سنة ١٩٤٩ تألفت وكالة الإغاثة للاجئين الفلسطينيين التابعة للأمم المتحدة على أن تبدأ أعمالها في أول مارس سنة ١٩٥٠.

تعمل الهيئة العامة للإغاثة على إيجاد عمل للاجئين وبناء مــساكن لهم وتتحمل عبء تغذيتهم ، وإعانتهم . إلا أن المعونة التي تقدمها ، ليست من الكافية بحيث تساعد على نمو الأطفال طبيعيًا ، والاحتفاظ لهم بمستوى عادي من الصحة والنشاط فتبدو عليهم علامات المرض وآثار الجوع.

ويعمل المجلس الأعلى لإغاثة اللاجئين الذي أنشأته جامعة الــدول العربية رغم موارده المالية المحدودة على تقديم بعض الخدمات الاجتماعية وهذا مهما بلغت لا تعدو أن تكون مــساعدات محــدودة ، لا تــستطيع أن تعوض على المهاجرين شيئًا مما أصابهم.

وقد طالب العرب بعودة اللاجئين إلى ديارهم ، وإعطائهم ضمانات دولية يطمئنون بها على أرواحهم وأموالهم ، وتعويضهم ماديًا عن ممتلكاتهم التي فقدوها. فعرضت المشكلة على الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩. فقررت إعادتهم إلى بلادهم ولكنها لم تقو على تنفيذ هذا القــرار ، لأن اليهود رفضوا أن يعود أي عربي إلى أرض فلــسطين إلا إذا ســويت القضية الفلسطينية لصالحهم . وحتى عند تسويتها يشترط اليهود أن يتــرك

لهم تحديد عدد اللاجئين الذي يقبلون عودتهم ، واختيــار اللاجئــين الــذين يسمحون بعودتهم ، وتعيين الأماكن التي يقيمون بها دون التقيد بمــساكنهم وأراضيهم الأصلية[٢٨٢].

الأحوال المؤلمة التي يعيش فيها اللاجئون :

قدر عدد اللاجئين كما ذكرنا بما يزيد على مليون شخص ، يقيمون في بيوت قديمة وأكواخ وثكنات ومساجد وأديـرة فــي المــدن والقــرى ، ويعيشون في هذه الأماكن عيشة صــعبة قاســية ، وعلــى الأخــص فــي معسكرات الوكالة المقامة من الخيام وألواح الخشب والصاج.

أما الخيام فرديئة إلى أقصى حد ، وقد استنفدت أغراضها وتلاشــت تمامًا منذ زمن بعيد ، فأصبحت لا تقي حرًا ولا بردًا ولا تمنع شمــسًا ولا مطرًا والأسر مفصولة عن بعضها بقطعة من قماش داخل الخيمة الواحــدة. بل أن كثيرًا من اللاجئين ما يزالوا ينامون في العــراء علــى الأرض دون غطاء وفي حاجة إلى المأوى مهما يكن بسيطًا . لأن الأكواخ من الخيــام ، أنها كالقبور المظلمة لا تدخلها الشمس محرومة من الهواء ، معظمها لــيس له من منفذ سوى الباب. وأكواخ الصاج أو الخشب لم تثبــت إلا بالحجــارة وأما الأكواخ في المعسكرات الجديدة فقد روعي في بنائها أقــصى حــدود الاقتصاد ، وخصصت غرفة فيها لا تزيد مساحتها على ثمانية أمتار للأسرة المؤلفة من ٤ – ١٠ أفراد . وفي حالات كثيــرة نجــد عــددًا آخــر مــن الأشخاص يشتركون مع تلك الأسرة في الغرفة الواحدة.

---

[٢٨٢]) الشرق الأوسط : مصطفي عامر ، الدكتور متولي ، الدكتور عز الدين فريد جـ٢ ص ٥٩.

وفي التقرير الذي رفعه المــدير العــام لوكالـــة غــوث اللاجئـــين الفلسطينيين لمنظمة الأمم المتحدة عن السكن خلال عام ١٩٥٦ – قال : إن اللاجئين لم يحصلوا حتى الآن على الحد الأدنى لاحتياجاتهم في الـــسكنى ، ولا يزال عدد كبير منهم يقطنون في تلال فلسطين ، ولم تتلق أية مـــساعدة لإيوائهم منذ تشريدهم عن وطنهم ، وهناك أيضًا حشود غيـــر قليلـــة فـــي مخيمات غير رسمية لا تستطيع الوكالة تحمل مسئوليتها.

وأما الماء فيكاد يكون معدومًا في كل مكان ، ولا يظهر إلا في قليل من المعسكرات ومياه الآبار ملآى بالأملاح الـــضارة وملوثـــة بالطفيليـــات المسببة للأمراض، وليس هناك من تسهيلات أو وسائل للغسيل والاســـتحمام إلا في بعض المعسكرات.

كما أن الغذاء قليل لا يكاد يكفي لسد الرمق ، إذ يخص كل لاجـــئ في اليوم رغيفان وقطعتان من السكر ومعلقة من الأرز وخمس فولات وهي مقادير ضئيلة لا تكفي قوت طفل صغير ، وأن السواد الأعظم من اللاجئين لا يذوقون اللحم أيامًا وشهورًا مع شدة حاجتهم إليه، وأدت حالة سوء التغذية إلى انتشار كثير من الأمراض الصدرية وغيرها ، وتعريض حياة الـــصغار والمرضى والحوامل والمرضعات إلى الخطر الشديد.

والملابس كلها قديمة بالية تبرع بها أصحابها بعد أن قل النفع منهـــا ويصرف للاجئ قطعة واحدة كل ثلاث سنين . وهكذا أصبح اللاجئون فـــي الأغلب محرومين مما يقي البدن من الحرارة أو البرد ، والحفاء عام شامل.

فلا عجب إذن أن ينحدر مستوى الحصة بين اللاجئين الفلـــسطينيين هذا الانحدار السريع، وأن تزداد نسبة الأمراض باطراد على الـــرغم ممـــا

تقدمه الوكالة من إشراف وعلاج محدود ، وتدل تقارير هذه الوكالة أن عدد اللاجئين المعرضين للأمراض يبلغ نحو ٩٢% من المجموع . وجـاء فـي الإحصائيات الرسمية أن لكل ١٠٣٨١ لاجئًا طبيبًا واحدًا ونسبة الوفيات بين اللاجئين ٢٣,٦% وهو رقم خطير يدل على ضـعف الوسـائل الـصحية والعلاج(٢٨٣).

أما التعليم فقد أنشأت الوكالة عددًا من المدارس الابتدائية والثانويـة في المخيمات والمعسكرات والمراكز التي يكثر فيها اللاجئون ، وتقوم هـذه المدارس في خيام وبيوت خشبية وغرف واسعة في الثكنات ، مقسمة إلـى صفوف بحواجز من الخشب ، وسمحت الإدارة المصرية في منطقة غـزة باستعمال دور المدارس الرسمية في أوقات الفراغ لتعليم أبناء اللاجئـين ، ودل الإحصاء على أن ما يزيد على مائتي ألف ولد وبنت منهم محرومـون من التعليم.

ضرورة حل مشكلة المهاجرين :

وجدت وكالة الإغاثة أن حل مشكلة اللاجئين هو عودتهم إلى بلادهم في فلسطين التي طردتهم اليهود منها ،فجاء في تقرير الوكالـة أن هـؤلاء اللاجئين المعوزين الذين فقدوا منازلهم ومواردهم وموارد رزقهم وعاشـوا على المعونة والتبرع نتيجة العدوان الصهيوني على فلسطين ليتساءلون اليوم عن مصيرهم ، وعما يخبئه القدر في طياته لهم . وهـم لا يطلبـون غيـر العودة إلى وطنهم والاستقرار في بلادهم ، ولا أمل لهم فـي الحيـاة إلا إذا أجيبت طلباتهم ونالوا حقوقهم في العودة والتعويض ينبغـي التـشديد مـرة

(٢٨٣) من تقرير الشيخ الأمريكي (جاك تني) .

أخرى بأن رغبة اللاجئين في العودة إلى وطنهم مازالت على أشدها ما لم تفقد شيئًا من حدتها ، وأنهم ما زلوا يعتقدون أن ظلمًا فاحشًا قد لحق بهم وأن الحل الوحيد المقبول عندهم هو العودة إلى الديار.

حذرت الوكالة من نتائج عدم السماح بعودة اللاجئين إلى ديارهم بقولها : " إن اللاجئين كمجموع مازالوا يعارضون معارضة جماعية مشاريع الإنماء الكبرى اعتقادًا منهم أنها تؤدي إلى الإسكان الدائم ، وبالتالي تنطوي على مضاعفات سياسية خطيرة " ومن الواضح أن مشكلة اللاجئين ليست مشكلة اقتصادية مادية ، بل مشكلة نفسية روحية ،فقالت " إن المشكلة التي تتمثل في اللاجئين الفلسطينيين تتعلق بالآلام والذكريات وخيبة الآمال التي يعانيها مئات الألوف من بني البشر ، وهي ليست مجرد مشكلة مادية قابلة للحلول الاقتصادية ، ومن الواجب رؤية الأمور في ضوء الأثر النفسي الناجم عن تلك الآلام والذكريات وخيبة الأمل التي يعانيها هؤلاء المشردون ".

وأعلنت الوكالة أن مشكلة اللاجئين تسبب اضطرابات في الشرق الأدنى . أن هناك تفهمًا غير كاف للصلة الوثيقة بين التوتر المستمر في الشرق الأدنى وبين مشكلة اللاجئين الفلسطينيين . ولقد تبين من الحقائق الثابتة أن الشعور يتزايد ما بين قرابة مليون نسمة الذين قوضت أركان حياتهم نتيجة لأحداث ١٩٤٧ – ١٩٤٨ وهم اليوم في عام ١٩٥٦. من أهم أسباب الاضطرابات كما أنهم في الوقت ذاته ، ضحية هذا الاضطراب ".

إن بقاء اللاجئين على هذا الوضع أمر تأباه الكرامة وينفر منه الذوق ، إذ من غير المعقول أن يعيش اللاجئون على هذا النحو المشين على

ما تجود به الهيئات والمؤسسات ، مع أن لهم حقًا طبيعيًا في الحياة الحــرة الكريمة.

وأن لابد من إيجاد حل عاجل ، تستقر به أمور اللاجئــين العــرب وتدبر موارد الرزق لهم ، لكي يحيوا كغيرهم ، من أبناء البلاد العربية حياة كريمة ولكي يعملوا معا على بناء وطنهم ويساهموا بنشاطهم وجهودهم فــي النهوض به في الارتفاع بمستواه.

ومن واجب الدول – التي تسمي نفسها حرة– حــل هــذه المــشكلة الخطيرة من غير تأخير ، وأن تلزم صنيعتها إســرائيل بتنفيــذ المقــررات الدولية الصادرة في ذلك منذ بضع سنين فإن هي لم تشأ ذلك أو لم تستطعه ، مال اللاجئون بقلوبهم إلى أقوام آخرين علهم يجدون عندهم من عدل وخير لم يجدوهما قط عند حماة إسرائيل . واتجهوا بأفكارهم لاعتناق مثل جديــد عسي أن يكون فيها ما يساعدهم على الخلاص من الــبلاء الــذي أصــابهم والشر الذي وقعوا فيه.

وخلاصة القول أن ما يجب عمله قبل كل شيء هو ما ذهبت إليــه الأمم المتحدة من وجود عودة هؤلاء المنكوبين إلى وطنهم الذي تهفوا إليــه قلوبهم في كل حين ، وتعويضهم عن ممتلكاتهم التــي اغتــصبها اليهــود ، وضمان استقرارهم ثانية في بلادهم الذي لا يبغون علها بديلا أبدا.

هذه هي صورة قائمة مظلمة ، لحياة العرب والمسلمين داخل حدود فلسطين المحتلة ، التي اغتصبتها العصابات الإسرائيلية. وهــذا الكتــاب لا يتناول قضية فلسطين بطريق مباشر ، إذ أنــه يــدرس موقــف الإســلام والمسلمين من أهل الذمة . ولكننا رأينا أن نتيح للقارئ فرصــة المقارنــة

معاملة اليهود الصهيونيين في فلسطين المحتلة للعرب المسلمين الذين أوقعهم سوء حظهم في براثنهم . وما أبعد الفرق الشاسع بين التسامح العربي الإسلامي ، والتعصب اليهودي الصهيوني.

* * * * * * *

الفصل الثاني عشر

حضارة العرب أرقي من حضارة اليهود

لا تراث حضاري لليهود :

قبل ظهور اليهودية ، كانت الفوضى الدينية تغمر العالم القــديم ثـــم ظهرت اليهودية في أطراف آسيا الغربية ، تحاول نشر نفوذها وتعاليمها في الشرقين الأدنى والوسط أي في جزيرة العرب والهند والــصين ، ثــم فـــي أوروبا ولكنها فشلت من أول الطريـــق ، لأن الإســـرائيليين الــذين قـــاموا يبشرون باليهودية كانوا عبارة عن جمهرة من البشر تعيش عيـشة البـــداوة والانحطاط، ليست لهم حضارة تطبع دعوتهم الدينية بطابع يجمع بين الدين والدنيا ، أو بين العبادة والعلم والشئون الروحانية ، ومتطلبـــات الحـــضارة كالرفاهية والثورة والتنظيم والعمران ؛ بينما كانت الحضارات في كل مـــن إيران والهند والصين فضلاً عن الحضارة الرومانية الأوروبية نالت نصيبًا كبيرًا من التقدم والتكامل .. ومن البديهي أن طلب الانــصياع مـــن قـــوم متحضرين إلى قبول دعوة قوم يعيشون في عالم من الجهل والبداوة مهمـــا كانت دعوتهم هذه منصرفة إلى أغراض دينية سماوية لا تلقي طبعًا غيـــر الإعراض والسخرية.

ومن البديهي أيضًا ، أن تقابل تلك الرسالة يحملها ذلك الإســـرائيلي الذي على جانب ضئيل من الحضارة بمثل هذا الإعـــراض مـــن الهنـــدي والصيني والإيراني والروماني ، الذين كانوا يرون أنفـــسهم أعظـــم رقيًـــا وحضارة وثقافة ونظامًا ، ولا ينقصهم في نفس الوقت دين يلجـــأون إلـــى

عبادته فلديهم آلهة كثيرة يعبدون من يشاءون منها ، ولا يرون في أنفسهم حاجة إلى تبديلها طالما أنها تغمرهم بكل ما ترنو إليه ميولهم الزمنية والدنيوية من شهوات وآمال ومتممات لحياتهم الحافلة بالحضارة.

ليس لليهود فلسفة نظرية أو عملية أو آثار فنية ، وكل ما في الأمر ، أنهم خصصوا أنفسهم للعبادة القائمة على المتاجرة والانتفاع ، فلا يوجد بينهم ، ولاسيما قديمًا من كرس نفسه للفن والعلم والفلسفة وإذا كنا لا نجد عند اليهود ثقافات أدبية وفنية أو ثقافات فلسفية وأخلاقية يفيدون به العالم . فهم في أدوار حياتهم الثلاثة ، دور البداوة ودور المملكة ودور التشتت في العالم – لم يصدروا من عندهم ثمرة نافعة من ثمرات الآداب والفنون أو ثمرات العلم والفلسفة وكل محصولهم من الكتب المقروءة فإنما هو تلك المواعظ والترانيم التي وقفوها على أنفسهم، ولم ينبغ منهم مشتغل بالحكم والدراسة العملية قبل اتصالهم بأمر الحضارة واضطرارهم إلى المعيشة بين تلك الأمم في المشرق والمغرب[٢٨٤].

عقلية اليهود :

كانت أهم مظاهر الحياة اليهودية في خلال القرون الطويلة الماضية هو الميل إلى العزلة والاعتقاد بأن اليهود يحمل من أسرار الكون أكثر من أي إنسان آخر وكان اليهود إذا نزلوا مكانًا رفضوا الاختلاط بأهليه واختاروا لهم فيه زاوية بعيدة عن الأنظار وأقاموا فيها مساكنهم ، وقد عرفت أحياء اليهود في أوروبا باسم " جيبتو " وفي هذه الأحياء اليهودية نشأ المجتمع اليهودي بأسراه وخفاياه ، وفي هذه الأحياء وصفت الكتب اليهودية السرية

[٢٨٤]) العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٦٨.

التي لا يعرف العالم عنها إلا القليل ، وفي هذه الأحياء نمت علوم الـسحر والشعوذة وبقية العلوم السرية.

إن هذه العزلة التي عاش فيها اليهود كانت سببًا في محافظته علـى مستوى الذكاء والدهاء ومحاولة اختراق الحجب والأسرار ، وقد نشأت فـي هذه الأحياء اليهودية جماعات سرية صغيرة من المفكرين والعلماء مالوا إلى الكتاب والتأليف. وكانت القواعد الرئيسية التي تسيطر علـى عقـول هـذه الجماعات هي :

١) المحافظة على النفسية اليهودية ومنعها من الضياع في تيار الغربة.

٢) نشر الحقد في قلوب اليهود ضد العالم ونشر فكرة احتقار اليهـودي لغيره من الشعوب.

٣) العمل على أن يسترد الشعب اليهودي مكانه.

٤) العمل من أجل سيادة الشعب اليهودي للعالم كله.

وقد قامت هذه الجماعات اليهودية بوضع عشرات من الكتب السرية الخطيرة التي تطرق هذه المواضيع وتدفع اليهودي إلى التمسك بها ، وأصبح اليهودي لا يهتم بالثورات قدر اهتمامه بهذه الكتب ويعتبر أن هـذه الكتـب تفسخ الثورات وتحل محلها.

وكل من يطلع على ما ورد في هذه الكتب السرية يـشعر بالتـأثير الذي أحدثته في عقلية اليهودي على مر السنين ، ويشعر بأن العقلية اليهودية تختلف في تفكيرها واتجاهاتها عن عقلية البشر جميعًا وأن هذا الاتجاه قـد

أحدث تأثيره في تاريخ العالم كله ، وحاول أن يفرض طابعه على البــشرية جمعاء ، لكي يضعها تحت طاعة حكماء اليهود . فإن السحر بجميع أسراره وأنواعه جاء من العقلية اليهودية والإيمان بالأشباح ونقل الأرواح جاء مــن هذه العقلية ، والعرافة والتدجيل والتكهن بالمستقبل وقراءة الكف والنجــوم والطوالع كل ذلك جاء من العقلية اليهودية.

هذا النشاط الفكري اليهودي لم تكن غايته خدمة البشرية والإنسانية بل كانت هذه السيطرة على البشرية بأساليب شيطانية غريبة لأغراض أهمها نشر البلبلة في عقول الناس وتفريق صــفوفهم ودفعهــم نحــو الانحطــاط والفجور.

وقد أدى هذا النشاط والاجتهاد إلى تأليف جمعيات ســرية منظمــة تنظيمًا دينيًا غريبًا ، وتنتشر في جميع أنحاء العالم – ومازالت هذه الجمعيات قائمة حتى الآن ، وقد أصبح بعضها صهيونيًا ، وما زال الــبعض الأخــر يهوديًا متدينًا.

ثقافة اليهود محدودة :

إن الصهيونيين مكروهون في كل مكان وفي كل زمان وهم يعرفون ذلك ولكنهم لا يعترفون به لمجرد الاعتراف بالواقع الظاهر المتواتر ، بــل يعترفون به لأنهم ينتفعون منه ، ولأن دعواهم كلها قائمة على شكوى الظلم والاضطهاد وعلى الحاجة الملحة إلى الإنصاف على أنهم يسلمون أن العلــة منهم ، ولكنها علة تشرفهم. والعلة في زعمهم أنهم قوم محسودون ، لأنهــم قوم ممتازون بالنبوغ والنجاح ، وأنهم أصحاب كفايات لم تجتمع لغيرهم عن

الأمم. منهم ناجحون في ميادين الأعمال نــاجحون فــي ميــادين العلــوم والفنون ، وخليق بهذه الكفايات النادرة والنجاح الملحوظ أن يجلب الحــسد والكراهية ، لغير ذنب جنوه وهكذا هو الزعم الباطل بحذافيره[٢٨٥].

لم يحدث أن اليهود أنشئوا لهم ثقافة مستقلة قط في زمن من الأزمان وإنما يستفيد اليهودي الألماني من ثقافة ألمانيا ويستفيد الصهيوني الإنجليزي من ثقافة إنجلترا ويستفيد اليهودي الأمريكي من ثقافة أمريكا. ويقال مثل ذلك في اليهود في إيطاليا وسويسرا وهولندا وبلجيكا ، فهم يستفيدون من ثقافات هذه الأمم.

أن المقياس الصحيح لنبوغ اليهود في العلوم والفنون هو تــاريخهم القديم وقد كانت في الإسكندرية مكتبة جمعت مئات الألوف من المجلدات في الطب والفلك والجغرافية والحكمة والرياضة وسائر العلوم ، وكانــت هــذه المكتبة الجامعة التي احترقت في بعض الحروب عنوانًا لثقافة الأمم القديمة من يونان ورومان وبابليين ومصريين ، وكانت منها محفوظات من تــأليف هذه الأمم ومقتبساتها ، فكم كتاب كانت من تأليف اليهود القدماء ؟ كم أثــرًا من آثارهم في علوم الفلك أو الجغرافية أو الهندسة أو الطب أو الفلسفة ، أو غيرها من ثمرات العقول الإنسانية ؟

والإجابة على هذا السؤال : لا شيء ، لا كتاب ، ولا أثر ، ولا ثمرة وهذا هو المقياس الصحيح المعقول.

وكان أذكياء الأمم يعيرونهم بها ويسألونهم عنها ، كما فعل (ابيان) حيث وجه السؤال بصددها إلى المؤرخ اليهودي (يوسفيوس) فبماذا أجابه يوسفيوس ؟ أنه لم ينكر السبة لأنه لا سبيل للإنكار ، وإنما اعتــرف بهــا

---

[٢٨٥]) العقاد : الصهيونية العالمية ص ٥٠ .

واعتذر عنها كما قال بحروفل : " أننا نسكن بلدًا بعيدًا من البحر ولا نتصل بالمعاملات ، وليست بيننا وبين الأمم مواصلات فهل من العجــب أن أمــة كهذه الأمة على بعدها من البحر قبل اشتغالها بالكتابة – تظل مجهولة بــين غيرها ؟ ".

وقد أورد (فولتير) هذه العبارة ، فعلق عليها قائلا ، على فــرض أن كتب العهد القديم تعد من كتب اليهــود : (لابــد أن نلاحــظ أن اثنــين وعشرين كتابًا صغيرًا ليست بالعدد الكبير إذا نظرنا إلى أرقام الكتب التــي كانت محفوظة في مكتبة الإسكندرية ، ولا شك أن اليهود قد كتبــوا قلــيلاً وقرأوا قليلاً وأنهم كانوا على جهل مطبق فــي علــوم الهيئــة والرياضــة والجغرافية والطبيعيات وأنهم لم يفقهوا شيئًا من تواريخ الأمم الأخرى ، ولم يبدأوا بالتعليم في الإسكندرية حيث أخذوا يهتمون بتحصيل بعض المعــارف وما كانت لغتهم إلا خليطًا بربريًا من الفينيقية والكدانية المحرفة ، ناقصة في تصرفات الأفعال فقيرة في أدوات التعبير ، وهم عدا هذا لا يظهرون الغرباء على كتبهم ولا على عناوينها.

تلك حقيقة الدعوى التي يروجها اليهود عن النبوغ المحسود ، وعن الكراهية التي يغيرها في النفوس امتيازهم في الكفايات والممتلكات ، فهم في الثقافة عالة على كل أمة يستمدون منها التعليم ، وهم في ميادين العمل دون غيرهم من الأمم.

هل نجح اليهود في ميادين الاقتصاد ؟

هناك خطة يهودية صهيونية للــسيطرة علــى العــالم ، لا بــالقوة العسكرية ولا بالسيطرة الحكومية ولا بالتسلط الاقتصادي القائم على التقــدم

العلمي ولكن بشيء واحد هو امتلاك زمام التجارة العالمية والـتحكم فيهـا وأقدر الناس على هذا هم اليهود.

إن ظهور اليهود في ميادين المال والتجارة وقوة نفوذهم السياسي في الوقت الحاضر إنما يرجع إلى صفات متأصلة فيهم ، وهي الوحدة والقـدرة على انتهاز الفرص المواتية واليهودي يعرف ماذا يفعل ، ومتى وكيف ولماذا هو فاعله ؟.

ومما يذكر أن اليهود أينما أقاموا تركزت الأعمال حيـث أقـاموا ، ولكما رحلوا انتقلت مراكزهم معهم حيثما حلوا والدليل على ذلك أن أسبانيا كانت مركز الذهب في العالم طالما كان اليهود هناك، ولمـا طـردوا مـن أسبانيا خسرت البلاد بفقدهم ما كان لها من مكانة في هذا الشأن. وشبيه بهذا انتقال مركز التجارة إلى أوروبا من الجنوب إلى الشمال، لما غادر اليهـود إيطاليا وأسبانيا والبرتغال، ونزلوا هولندا وألمانيا وإنجلترا فالاقتـصاد هـو أساس كيان العالم ، ومن يملك زمام الاقتصاد ملك زمام الموقف فـي هـذا العالم.

ومن جهة أخرى ، أثبت اليهود أنهم لا يـصلحون للزراعـة. فقـد ظهرت بشرق أوروبا في مستهل القرن ١٩ حركة زراعية يهودية ، ولكـن لم يبد نشاطها على أشده إلا في الثلث الأخير من هذا القرن. وكان الغرض منها هو توجيه اليهودية إلى ناحية الزراعة ، فأنشئت لهم مستعمرات فـي الأرجنتين وفي أوكرانيا وغيرهما، ولكن هذه المحاولات لـم تعـد بنتـائج مبشرة لأن اليهود أنفسهم لا يعملون لحياة الزراعة[٢٨٦].

---

[٢٨٦]) جوزيف هيلر : الفكر الصهيونية ص ١٧.

الثقافة العربية أرقى من الثقافة العبرية :

الثقافة العربية هي ثقافة الأمة التي نشأت تتكلم اللغة العربية وعاشت تتكلمها كما كانت على الألسنة في كل دور من أدوارها على سنة التطور في جميع اللغات.

عاشت العرب طوال حياتهم على مر العصور على اتصال مباشـــر بإخوانهم في البشرية في شتى أنحاء العالم ، وساهموا بنصيب كبيـــر فـــي تطور الحضارة والمدنية في شتى ميادينها وعلى اختلاف ألوانها ، وحاولوا دائمًا أن يتطوروا من حسن إلى أحسن ، فكان للعرب دائمًا رسالة عالميـــة إنسانية.

إنه لمن فضول القول أن يقال عن ثقافة اليهود الدينية المحصورة في هذا الحيز المحدود إنها رسالة عالمية. أو أنها يمكن أن تسفر قبل زوالها عن رسالة عالمية.

لكن الأمر يتجاوز فضول القول إلى فقد الحياة حسب ما يقـــال : أن العبرية هي التي نهضت بأمانة الرسالة العالمية في تاريخ بنـــي الإنـــسان ، وأن تنعقد المقارنة بينها وبين حضارات الشرق في وادي النيل وفـــي وادي النهرين وفي شبه الجزيرة العربية ، فيقال أن تلك الحضارات جميعًا لم تحفل بمبادئ الأخلاق ولم تقرر قواعد العدل والفضيلة ، وأن أربابها لا تغـــضب للواجب والحق كما غضب لهما رب العبريين : رب الصواعق والجنود.

الحضارة والثقافة في إسرائيل :

في إسرائيل ألوان كثيرة متباينة من الحضارة والثقافة نتيجة لتباين الأصناف والأديان فهناك : اليونان الأرثوذكس والأقباط الأرثوذكس ، والأقباط الكاثوليك ، واليونان الكاثوليك والبروتستانت والأوروبيون ، والنسطريون ، والدروز إلى جانب اليهود والمسلمين.

وتنتشر بينهم جميعًا عدة لغات : الألمانية والإنجليزية والفرنسية ، والروسية والبولندية ، واللغات السلافية ، وكذلك العربية ، والأرامية ، واللغة الأولى بطبيعة الحال هي اللغة العبرية.

ينقسم السكان إلى فريقين يتقاربان عددًا : أحدهما يهود نزحوا من أوروبا وهؤلاء هم الذين يسيطرون على الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والفريق الثاني من أصل شرقي يهودًا كانوا أو غير يهود ، وهؤلاء متأخرون متقاربون في حظوظهم الضئيلة بجانب غيرهم الذين من أصل عربي.

إن العادة جرت في إسرائيل على المناداة بإعادة تهذيب وتثقيف يهود الشرق، ويجب أن يعاد تشكيل تفكيرهم وشخصيهتم بحيث يصبحون نسخة من يهود أوروبا ، وأنه يحن لا ينفع الإغراء والترغيب في الوصول إلى تلك النتيجة يجب أن يأخذ التشريع مجراه.

وهذا الرأي يشبه رأي الأوروبيين في القرن ١٩ في شعوب البلاد التي كانوا يخضعونها لسلطانهم.

في أوائل شهر أغسطس سنة ١٩٥٧ عقدت في إسرائيل حلقة علمية خطيرة ، اشترك فيها عدد كبير من مفكري اليهود وزعمائهم وعلمائهم في أنحاء العالم. وكان القصد من عقود هذه الحلقة هو القيام بدراسات اجتماعية

لمعرفة أسباب التدهور الثقافي والاجتماعي الذي أصاب يهود إسرائيل وبقية يهود العالم وأسباب تدهور العلاقات الاجتماعية بين يهود إســرائيل وبقيــة يهود العالم وأسباب فشل الأيدولوجيا الصهيونية في جلب يهود العالم نحــو إسرائيل لكي يعتبروها دولتهم ويهاجروا إليها.

وقد تعلم في هذه الحلقة ٧٢ مفكرًا يهوديًا ، وعلى رأسهم (دافيد بن جوريون) رئيس حكومة إسرائيل والدكتور (ناحوم جولــدمان) رئــيس الجمعية الصهيونية العالمية ، و (عيما نويل نيــومن) رئــيس الجمعيــة الصهيونية لنشر المعرفة اليهودية.

وقد اتفق الجميع على أن المجتمع اليهودي مريض وأن هذا المرض منتشر بين جميع اليهود في إسرائيل والخارج ، وأن هذا المجتمع لم يستطع أن يغسل نفسه من أدران الماضي وفشل في تكوين بيئة اجتماعية مــستقلة وأن هذا المجتمع اليهودي يشبه برج بابل ليس له طابع خاص.

وقد اختلف أعضاء الحلقة في تعيين أسباب هذا الفشل : فقال بعضهم أن السبب في ذلك هو الدين اليهودي وتعاليم التوراة والتلمود . فــإن هــذه التعاليم الدينية تحتوي على قواعد اجتماعية ذات طابع وحشي غير إنــساني فهي تدعو اليهودي إلى قتل غير اليهود وسلب ممتلكاتهم وتدعوه إلى قتــل الأسرى والاعتداء على النساء والأطفال وتدعوه إلى الهدم والتخريب وإلــى استعمال القسوة والشراسة.

ولكن بعض هؤلاء العلماء يقولون أن السبب الرئيــسي فــي نقمــة اليهودي على العالم هو العزلة النفسية التي عاش فيها عبر القرون ، وهــي التي خلقت لديه عقلية قاسية تميل إلى الشر والهدم ، وسفك الدماء.

* * * * * *

فهرست